سلسلة كلاسيكيات الإسلام

جون سي. بلِر

مصادرُ الإسْلامِ

بحث في العقيدة وأركان الدّيانة المُحَمَّديّة



ترجمه عن الإنكليزية:

مالك مسلماني



المركز الأكاديمي للأبحاث

مصادرُ الإِسْلامِ

بحث في العقيدة وأركان الدّيانة المُحَمَّديّة

تاليف:

جون سي. بلِر

ترجمه عن الإنكليزية:

مالك مسلماني

مصادرُ الإسْلامِ

بحث في العقيدة وأركان الدّيانة المُحَمّديّة

THE SOURCES OF ISLAM

AN INQUIRY INTO THE SOURCES OF THE FAITH AND PRACTICE
OF THE MUHAMMADAN RELIGION

تأليف: جون سي. بلِر

ترجمة: مالك مسلماني

إخراج الكتاب وتصميم غلافه: القسم الفني، التقويم اللغوي: محمد وليد فليون

الناشر: المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت: الطبعة الأولى 2024.

العراق/ تورنتو - كندا

The Academic Center for Research
TORONTO -CANADA

موثق بدار الكتب والوثائق الكندية.

Library and Archives Canada

ISBN : 978-1-990131-57-8

naseer.alkaabi@uokufa.edu.iq

+964 780 226 2494 facebook.com/acadcntr www.acadcr.com info@acadcr.com

إلى

ذكرى الرّاحلة السيّدة سي. إ. أتكينسون

الصديق الحنون

و

معاونة جميع الإرساليات

تمهيد

في هذه الأزمنة، وعندما غدونا على اتّصالٍ وثيق بالعالم المُحَمَّديّ أكثر من أيّ وقت مضى من خلال معاناة الجزء المحتلّ من قِبل الأتراك في الحرب الأخيرة والقلق بشأن الخلافة التي تؤثّر فينا في الهند كما في مصر وبلاد الرّافدين وفي بلدان أخرى، فإنّ مقداراً محدّداً من الاهتمام أبداه النّاس فيما يتعلّق بالدّيانة المُحَمَّديّة ـ دين الإِسْلاَمِ.

إنّ هذه الدّيانة، وإن كان في أشكالٍ متنوّعةٍ نوعاً ما، تمارس سلطة على جزء واسع جدّاً من العالم الشّرقيّ؛ فإنّ من الطّبيعيّ أن يتوارد عفويّاً إلى ذهن حصيفٍ، محبٍّ للمعرفة السّؤال عن مصدرها، وعلى الأقلّ، السّؤال عن بعض الحقائق الرّئيسة التي تتعلّق بمعتقداتها الأساسيّة، وتاريخها، ومؤسّسها. وفي الآونة الأخيرة دفع الإسلام الدّيانة موضع البحث كما تُسمّى من جانب علمائها باحثي الدّين المقارن إلى إجراء أبحاث كثيرة بصدده، دعْ تأثيره في الماضي وفي الحاضر أيضاً، ولهذا كان وما زال على الباحث المفكّر ألّا يتغاضى عنه.

من هنا، فإنّ الكتاب الحاليّ ـ كما أثق ـ سيفيد كثيراً من المشتغلين بالقضايا الشّرقيّة.[1]

---

(1) بمراجعتي للكتاب بحكم تخصّصي في الشّريعة الإسلاميّة أشير في البداية إلى أنّ قارئ هذا الكتاب، سيجد أنّ السّيّد جون سي. بلر، ينكر قضيّة أساسيّة هي صلب العقيدة الإسلاميّة، وهي قضيّة الوحي؛ وأنّه يعتبر الإسلام مشروعاً شخصيّاً لمحمّد، وأنّ القرآن من تأليفه! فهو يقول مثلاً عند حديثه في ركن الحجّ: (وفي سورة المائدة يقول مُحَمَّدٌ: جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ، قِيَاماً لِّلنَّاسِ، وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَالْهَدْيَ

إنَّ مؤلِّفَه، جون سي. بلر الموقّر عاش زمناً طويلاً في الشّرق، ودرس المُحَمَّديّة من مصدرها الأوّل، لا من الكتب فحسب، بل عبر التّواصل والتّعارف مع الأشخاص الذين هم أنفسهم مسلمون. وزيادة على ذلك، فإنّ كتابَه يشهد له على إطّلاع واسع ودراسة دقيقة للموضوعات المهمّة التي عالجها على نحو يدعو للإعجاب! إنَّ السّيّد بلر لم يقرأ ويفحص تقريباً كلّ المراجع الرّئيسة حول هذه القضايا، بل قدّم النّتيجة في صورة ممتعة كما هي مثقّفة.

إنَّ القارئ سيتمكّن لا من معرفة ما هو جيّد في الإسْلام فحسب، بل سيدرك العوامل التي مارست تأثيراً في حياة مؤسِّسِه المبكرة كما في أواخرها، وسيكون بوسعه فهم درجة الأصالة التي يمكن نسبتها إلى مُحَمَّد؛ وسيعلم أيضاً، كيف أنّ الحال الفاسدة للمسيحيّة الشّرقيّة في ذلك العهد أثّرت في موقفه من عقيدة الصّليب، وكيف كان امرءاً ـ في فترة ما على الأقلّ ـ جادّاً لدرجة كبيرة بالقضايا الدّينيّة؛ قد حيل بينه وبين قبول الحقيقة، وإدراك العواقب المهلكة على القسم الأعظم من السّكّان التي نتجت عن المسيحيّة المنحرفة.

إنَّ المُحَمَّديّة تظهر لنا بوضوح ما كانت ستكون عليه المسيحيّة، لو أنّ ربّنا قد تكيَّف مع الآراء المسبّقة ورغبات الشّريحة المقاتلة من اليهود في زمنه.

إنّ مُحَمَّداً، عوضاً عن أن يحاكي «أمير السّلام» أصبح «نبيّاً يحمل سيفاً»،

وَالْقَلاَئِدَ... (سورة المائدة. 97). وأمثال هذا كثير في هذا الكتاب. كذلك اعتبر الكاتب أنّ النّسبة الأعظم من الشّريعة الإسلاميّة إنّما مصدرها الشّريعة اليهوديّة وغيرها. وأمّا ما سيذكره الآن كلير ديسدال من أنّ المؤلّف عاش زمناً طويلاً ـ 30 سنة ـ في الهند، وأنّه تواصل مع المسلمين هناك؛ فإنّ مالا يخفى على باحث منصف أنّ المسلمين في الهند في غالبيّتهم ليس عندهم الفهم الكافي للإسلام بما يصلح أن يكون مصدراً لدراسته. (المقوّم اللّغويّ).

والدّيانة التي أسّسها نضجت على نحو واسع في روح «النّبيّ» واقتفت مثاله. وهي قد أخفقت في تقديم ما تحتاج إليه الرّوح الإنسانيّة؛ فإنّ العالم الإسْلاَمِيّ، كما بقية العالم، يحتاج إلى إعلان إنجيل المسيح.

كلير تيسدال

اسْتهلال

إنّ تجربة العمل بين المسلمين والأعراق الأخرى في الهند الغربيّة، خلال السّنين الأربع والثّلاثين الماضية، وفّرت للكاتب فرصة اكتساب معرفة بالإسْلام التي تسوّغ له القيام بهذا البحث في مصادر عقيدته وأركانه.

منذ تسع سنين، وحينما كان في إجازة، فإنّه شرع بدراسة أكثر تفصيلاً للموضوع مع نيّة كتابة المعالجة الحاليّة. فيما بعد، في فترات المرض في الميدان، سنحت له فرص أخرى للقيام بدراسة إضافيّة؛ وعندما كان في إجازة مرضيّة، قضى أشهراً في المتحف البريطانيّ؛ يجري بحثه عن الموضوع في المصادر الأصليّة.

سعى الكاتب في دراسته للموضوع إلى صوغ آرائه لا من الكتب ولا من الاستنتاجات التي توصّل إليها الآخرون فحسب، بل من التّواصل مع أصدقاء شخصيّين من المُحَمَّديّين، والپارْسيّين، واليهود والهندوس في الهند.

زُوّدت الاستنتاجات المطروحة بإحالات إلى مراجع وافرة، وقد وُضعت في الهوامش مع الإحالات القرآنيّة. وحيثما افترق رأي الكاتب عن المصادر المعترف بها، فإنّه بيّن الأسباب تأييداً لوجهة نظره.

إنّ المؤلّف ليأمل بأنّ الكتاب سيكون مفيداً للمبشّرين في عملهم بين المُحَمَّديّين، ولجميع باحثي الإسْلام؛ كما ستجد دوائر الحلقات الدّراسيّة في الكنيسة الأمّ فيه عوناً في دراستها المسألة المُحَمَّديّة.

بالنّسبة لكتابة أسماء الأعلام، فإنّه تمّ اتّباع الرّسم المألوف باستثناء حالة

بعض مفردات معروفة جيّداً مثل مكّة (Mecca)، وأيّ رسم إملائيّ آخر سيكون حذلقة.

إنَّ الكاتبَ يعبّر عن عميق العرفان للطف العلماء التّالية أسماؤهم لقراءتهم المخطوط، ويشكرهم على تقديمهم الاقتراحات القيّمة:

كانون إ. سِل الموقّر، دكتور في الّلاهوْت؛ كلير تيسدال الموقّر، ماجستير في الفنون، دكتور في الّلاهوْت؛ البروفيسور د. س. مرگوليوث، ماجستير في الفنون، دكتور في الآداب، أوكسفورد؛ ژي. سينكلِر ستِفنسون الموقّر، ماجستير في الفنون، بكالوريوس في الّلاهوْت، كوجارات، الهند؛ والرّاحل جي. پ. تايلور الموقّر، ماجستير في الفنون، دكتور في الّلاهوْت، رئيس كلّيّة ستِفنسون، أحمد آباد، الهند. ويشكر بالخصوص الدّكتور تيسدال على كتابته التّمهيد، والدّكتور سِل على قراءته وتصحيحه التّجارب المطبعيّة عندما كان المخطوط قيد الطّبع.

ج. س. ب.

ديسا كامپ، الهند

1925

مُقدمة

من بين مسائل السّلام التي أعقبت الحرب العالميّة العظمى، فإنّ المسألة المُحَمَّديّة التي تؤثّر في الإمبراطوريّة البريطانيّة في أجزاء كثيرة من العالم، هي بالتّأكيد ليست الأقلّ أهمّيّة.

وعندما نفكر بمساحة العالم الإِسْلاميّ الذي يضمّ - زيادة على تركيّا - قسماً كبيراً من إفريقيّا، وكافّة أرجاء الجزيرة العربيّة، وسوريّا، وفارس، وأفغانستان، وتقريباً ربع الجزيرة الهنديّة،[1] ويشكّل ثُمن سكّان العالم، أو نحواً من مئتي مليون نسمة،[2] ممّن يقرّون بالإِسْلامِ ويتّبعون أركانه، إنَّ بحثاً في مصادر العقيدة والدّين - بعيداً عن الاهتمام بالموضوع بحدّ ذاته - لا يمكن إلّا أن يكون عظيم الأهمّيّة في الوقت الحاضر.

إنّ الإقامة لأكثر من ثلاثين سنة في الشّرق، حيثما كان يعمل الكاتب، وفّرت

---

(1) حسب آخر إحصاء رسميّ للهند، والذي جرى سنة 1921، فإنّه كان ثمّة 68.735.233 مسلماً في الهند.

(2) من الصّعب تقديم أرقام دقيقة بالمطلق، بسبب من غياب الإحصاء في الإمبراطوريّة التّركيّة. إنّ الدكتور س. م. زويمر، وهو مرجع رفيع بشأن الإِسْلام في خطابه المُلقى في مؤتمر كِسويك سنة 1915، أشار إلى أنّ «هناك بالكاد 200.000.000 مُحَمَّديّ في العالم» (*Vide The Keswick Week*, 1915, p. 4).

ويقول البروفيسور د. س. مرگوليوث (*Mohammedanism*, p. 8) - «إنّ عدد المسلمين اليوم في العالم يُعدّ حوالي 15.543٪ من جمع سكّانه. ذلك أنّ عددهم كان يبلغ تقريباً 233 مليوناً سنة 1906».

له اتّصالاً شخصيّاً مع مُحَمَّديّي غرب الهند، وكان كثيراً ما يناقش معهم، في جلسات عامّة وخاصّة، ومع ملاليهم[1] وآخرين، باللّغة المحلّيّة أسس العقيدة الإِسْلاَمِيَة. وزيارته لمصر، وسوريّا، وفلسطين خلال الإجازة، وسّعت معرفته بالإِسْلام، وقدّمت له بعض المعرفة حول القبائل البدويّة في الصّحراء؛ إنّ هذه الأحوال وفّرت للكاتب فرصة فريدة بالعمل على الدّراسة الحاليّة.

إذاً، كيف نشأ الإِسْلام؟ وكيف ومِنْ أيّ مصادر؟ هل كانَ مُحَمَّدٌ، مؤسّسُه، يحوز على تلك المفهومات الدّينيّة التي اتّسمت بها عقيدته وأركانه؟ وإلى أيّ مدى كان مديناً إلى عقائد أبناء جلدته الدّينيّة، وإلى تلك العقائد المستوردة من جانب العناصر الأجنبيّة من السّكّان؟ وماذا أخذ من المنظومات الدّينيّة الأخرى والسّابقة؟ وأخيراً، ما هي العناصر في منظومته التي يمكن عزوها حصراً إلى شخصيّة مُحَمَّد؟

هذا هو المشكل أمامنا، ومقاربة ذلك تكون بتقصّي الأجوبة عن الأسئلة أعلاه بشكل صحيحٍ، وهذا ما يعرّفنا على مصادر الإِسْلام.

على أيّ حال، لا يجب افتراض أنَّ مجرّد تشابه تعاليم وطقوس القرآن الدّينيّة مع اليهوديّة أو أيّ عقيدة أخرى؛ يؤسّس واقعة أنّ مُحَمَّداً أخذ معتقداته القرآنيّة من هذه الأديان؛ ذلك أنَّ هناك بعض المفهومات الدّينيّة المشتركة تقريباً بين الأديان، لكن إذا كان بوسع بيان أنّ تعاليم وأركان إسلاميّة محدّدة كانت موجودة في ديانات أخرى، قبل نشوء الإِسْلام، فإنّه يمكن الاستنتاج بشكل مقبول أنَّ مصادر الإِسْلام وُجدت في هذه الدّيانات الباكرة.

وقبل إجراء أيّ بحث فيما يخصّ مصادر الدّيانة الإِسْلاَمِيَة، من الضّروريّ قبل أيّ شيء، أن نسأل: «ما المبادئ أو العقائد الخاصّة بالإِسْلام؟» لذلك، فإنَّ

---

(1) المُلاّ: عالم الدّين المسلم، وينطبق أيضاً على أيّ معلّم للدّيانة الإِسْلاَمِيَة.

طريقة العمل في هذا البحث ستكون تحديد هذه المبادئ أوّلاً، ومن ثمّ، حيثما أمكن، تتبّعها إلى مصادرها.

في البدء، علينا أن نسلّم بأنّ مجال بحثنا سيقتصر إلى حدّ كبير، على ما هو موجود في القرآن، فكما قال السيّد ويليام موير عن حقّ بأنّه «العمل الأساس ونصّ كلّ الأبحاث عن أصلِ الإِسْلامِ».(1)

إنّ التّعاليم المدوّنة الواسعة من الحديث المُحَمَّديّ التي تضخّمت منذ تدوين القرآن بالكاد تقع في مجال بحثنا، ما عدا تلك التي يمكن أن تضيف تفصيلاً، أو تلقي ضوءاً على آية من القرآن تقع موضع البحث.

بكلّ الأحوال، لا بدّ من التّسليم بأنّ المُحَمَّديّين ينظرون إلى الحديث أنّه جزءٌ من قانون الإيمان، ويحوز على درجة من الإلهام. لكن لمّا كانت الأحاديث الإِسْلاَمِيّة بقيت لزمن يقارب قرناً بصيغة غير مكتوبة، ومن ثمّ؛ كانَت عرضة للخطأ أثناء النّقل الشّفاهي، وتحتوي على مادّةٍ ذات محاباةٍ وحكمٍ مسبّقٍ؛ وحتّى أكثر من ذلك أيضاً في بعض المسائل، مادّة زائفة وملفّقة،(2) لأنّها على تعارض مباشر مع القرآن، ومناقشة درجة مقبوليّتها تقع خارج دائرة اختصاصنا.

وزيادة على ذلك، لعبت العصبيّة(3) دوراً كبيراً في تأليف الأحاديث، ولهذا

---

(1) Sir W. Muir's, *Life of Mahomet*, vol. i. p. xxvii.

(2) تزخر الأحاديث بمعجزات مُحَمَّدٍ، مع أنّ مُحَمَّداً أنكر في القُرْآن سلطة القيام بالمعجزات. سورة الإسراء: 17/59، 90-93، 104-105.

(3) تآمر أتباع أسرة عليّ [بن أبي طالبٍ] مع العبّاسيّين للإطاحة بالسّلالّة الأمويّة الحاكمة، ومن أجل تحقيق هدفهم فإنّهم حرّفوا واختلقوا الأحاديث.

يقول كوئن (*Hibbert Lectures*, 1882, p. 11): «إنّ الأحاديث مصبوغة في كلّ موضع بنظرات المؤمنين الأوائل الدّوغمائيّة؛ وهي دائماً عرضة لأشدّ الرّيبة».

نحن لسنا واثقين قطّ بأنّنا نقف على أرضيّة تاريخيّة! ويمكننا بثقة أن نحصر اهتمامنا بشكل رئيس بما يحتويه القرآن، والذي أعلن مُحَمَّدٌ أنّه أخذ منه جميع تعاليمه، وهو السّجّل الموثوق الوحيد لـ «آياته».

الجزءُ الأوّل

عقيدة الإِسْلام

الفصلُ الأوّل

الجزيرة العربيّة قبل الإسْلام

لا يمكن لأحد أن يفلت من سلطان العصر الذي يعيش فيه.

ذلك أنّ البيئة تؤثّر وتصبغ كما كانت دائماً فكر البشر وتعبيراتهم، كما كلّ أفعالهم الصّريحة، ولهذا، فلصوغ تقييم عادلٍ لأيّ شخصيّة تاريخيّة، علينا أن نلم بجذورها التّاريخيّة.

وهذا المبدأ ينطبق على مُحمَّدٍ مؤسّس الإسلام، أكثر من أيّ شخصيّة أخرى. وبالتّأكيد، إنّه كان أكثر «المصلحين» الدّينيّين تأثّراً ببيئته.

وقد وُلد محمّد ونشأ في الجزيرة العربيّة، وورث خيال العرب وحبّ الشّعر، وهو ينتمي رغم فقره إلى أسرة رفيعة النّسب،[1] ولبعض الوقت كان ابن الصّحراء، وفيما بعد راعِياً يقود قطعانه بين تلال ووديان الجزيرة العربيّة. وجلال الصّحراء الغامض، ومهابة التّلال المؤثّرة ستحضر لدى صاحب حسّ

---

(1) لقد كانت قريش «أكثر أهل الجزيرة العربيّة رفعةً وأدباً». وقد مات أبوه عبد الله قبل ولادته، فوُضع الولد في حماية جدّه عبد المطّلب، الذي كان سادن الكعبة، وزعيم مكّة الأوّل.

دينيّ مثل مُحَمَّدٍ، وسوف تثير فيه الفكر السّامية والنّبيلة بشأن الكائن الأعلى.

وعندما كان شابّاً، ارتاد الأسواق السّنويّة وملتقيات قومه الدّينيّة، وشاهد المنافسات الشّعريّة التي كانت تبهج العرب؛ وبذلك، فإنّ خيال مُحَمَّد المتفتّح أصبح مشبعاً بأحاسيس العرب الدّينيّة؛ وكما سنرى فيما بعد، فإنّ تعرّفه على العقائد الأنقى والأكثر روحانيّة لليهود والمسيحيّين المقيمين في الجزيرة العربيّة، ترافق مع رحلاته التّجاريّة إلى سوريّا، وإنّ ذلك وسّع من اطّلاعه على هاتيْن العقيدتيْن اللّتين ألهمتاه حينما كان يقارنهما مع وثنيّة قومه المنحطّة بفكر إيمان آخر، حيث يمكنه فيه أن يجمع ما يعتقد أنّه الأفضل في هذه المنظومات الدّينيّة، والمجرّدة ممّا يبدو له أنّها شوائب فيها، وحيث يمكن أن يرى تحقيق إلهاماته الدّينيّة، ويحقّق طموحاته السّياسيّة في ذات الوقت.

ولا يمكن الشّكّ ـ كما أشار إلى ذلك كُتّابٌ كثر بشأن الإسْلام ـ بأنّ الجانب السّياسيّ في دعوته كان حاضراً بشكل كبير في تصوّر مُحَمَّد من أوّل بدء رسالته بالضّبط، وإلى جانب ذلك، وكونه معلّماً دينيّاً ومصلحاً، كان يتوق إلى أن يصبح حاكماً للجزيرة العربيّة، وموحّد بني قومه، ومحرّرهم من السّيطرة الأجنبيّة.[1] ما إنْ كان هذا الطّموح الرّفيع تجاوز حدود القوميّة وكان يرمي إلى الإمبراطوريّة العالميّة، كما يرد ذلك في الحديث؛ وما يبدو أنّ بعض الآيات في القرآن تشير إليه مسألة لا يمكن الفصل فيها بيقين الآن.[2] على أيّ

(1) يُروى أنّه في إحدى المرّات في العهد المكّيّ أنّ عمّ مُحَمَّد وحاميه ـ الذي وفرّ لمحمّد حرّيّة الدّعوة بحمايته، فلم يتعرّض له المكّيّون رغم هجماته على ديانته ـ ومن أجل التّصالح مع القرشيّين، طلب العمُّ من ابن أخيه أن يعتدل في سلوكه العدائيّ، وعندها أجابه مُحَمَّد: «أدعوهم أنْ يتكلّموا بكلمة تدين بها لهم العرب، ويملكون بها العجم».

(2) إنّ المصادر تنقسم حول الموضوع. فالبروفيسور س. هورگرونيه، لامِنس، موير وآخرين يتبنّون نظرة سلبيّة، بينما يؤمن نِلدِكه بأنّ برنامج الفتح الذي نُفّذ بعد وفاة

حال، إنّ الإسْلام بوصفه ديانة بسبب سمته المتحجّرة والمقولبة لا يمكن أن يصل العالميّة قطّ.

لكن من أجل فهم طبيعة بيئة مُحَمَّد بجلاء، ولصوغ تقييم مقبول لمسرحه التّاريخيّ، الذي شكّل ـ بدون شكّ ـ نظرته الدّينيّة والسّياسيّة بشكل كبير؛ علينا أن نلمّ بالشّروط الدّينيّة والسّياسيّة للجزيرة العربيّة قبل الإسْلام، أو كما يقول المسلمون عنها «الجاهليّة».

ماذا كانت السّمة العرقيّة لشعب الجزيرة العربيّة، وماذا كانت عبادتهم وأعرافهم الدّينيّة؟

وما العناصر التي كانت غريبة أو أجنبيّة بين سكّان الجزيرة العربيّة، وتلك التي وصلت إلى أرض العرب بالهجرة؟

وما كانت ديانتها؟

مُحَمَّد كان النّبيّ نفسه قد رسمه. البروفيسور ت. دبليو. أرنولد يشير إلى أنّ مُحَمَّداً منذ البدء كان يعتبر رسالته عالميّة (*The Preaching of Islam*, 2nd ed., pp. 28–31). ويقول البروفيسور د. س. مرگوليوث (*Mohammedanism*, p. 15): «منذ البدء كان في برنامج الإسْلام التّوسّع». ويقول ميرزا غلام أحمد (*Teachings of Islam*, pp. 79, 80): «إنّ هدف رسالة النّبيّ كان... أن يكون عالميّاً». ويصرّح فايل: «لقد أصبحت الفكرة ثابتة في ذهن مُحَمَّد بأنّ الإسْلام بوصفه الدّيانة الحقّة الوحيدة لم يكن ديناً معدّاً للعرب فحسب بل للبشريّة جمعاء».

ويبدو أنّ آيات عدّة في القُرْآن تؤكّد هذه النّظرة: قارن سورة يوسف (12: 104): ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾؛ سورة سبأ (34: 28): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾؛ لكن كوين يعلن (*Hibbert Lectures*, p. 53): «القومية العربيّة لم تكن مهد الإسْلام، بل جداره الفاصل».

وما الأحوال الاجتماعيّة والسّياسيّة في الجزيرة العربيّة في عصر مُحَمَّدٍ قبل نشوء الإسْلام تماماً؟

إنَّ أيَّ ضوء يُلقى على هذه الأسئلة سيساعدنا في بحثنا عن مصادر الإسْلام بشكل ملموس، كما إنّه يكشف على الأقلّ بعض العوامل والتّأثيرات التي كانت تعمل في بيئة مُحَمَّد، والتي جعلته يبني المنظومة السّياسيّة ـ الدّينيّة التي أسّسها، وإنْ كان في بعض الجوانب بشكل غير واعٍ.

لقد قيل: إنّ العرب من سلالة إبراهيم، وإنّ هذه الدّعوة فيما يخصّ القاطنين شمال وغرب أرض الجزيرة لا يمكن أن تكون محلّ تنازع.[1] أمّا من الشّمال، فإنَّ مجموعات كبيرة من القبائل الإبراهيميّة هاجرت جنوباً، ونفذت إلى اليمن ووسط الجزيرة العربيّة، ويتحدّث المأثور المُحَمَّديّ عن بعضها. وقد استقرّ بعضها في مكّة، حيث كان التّقليد القوميّ للسّلالة الإبراهيميّة منتشراً قبل زمن مُحَمَّد إلى جانب التّقليد الوطنيّ. وزيادة على ذلك، فإنَّ الصّلة الوثيقة بين اللّغة العربيّة واللّسان العبريّ في الاشتقاق، والتّركيب، والأسلوب تشير إلى

---

(1) يقول يوسِفوس (Antiq. Jud., Bk. 1, Chap. xii. - 2, p- 26):

Ἀραβὲς δὲ μετὰ ἔτος τρὶς καὶ δέκατον. Ἰσμάηλος γὰρ ὁ κτίστης αυτῶν τοῦ ἔθνους, Ἀβράμω γενόμενος ἐκ τῆς παλλακῆς ἐν τούτῳ περετέμνεται τῷ χρόνῳ

(إنَّ أهل الجزيرة العربيّة يقيمون الختان بعد سنّ الثّالثة عشرة، ذلك أنّ إسماعيل، مؤسّس قومهم، ابن إبراهيم من محظيّته، كان قد خُتن في ذلك العمر).

ويُقال: إنَّ العرب الخلّص ينحدرون من يَقْطَانُ بن الحفيد أَرْفَكْشَاد، ابن سامَ (التّكْوِين: 22/10، 25). انظر مقدّمة السّيّد دبليو موير لكتابه حياة مُحَمَّد، المجلّد 1، ص (-cxi cxxv)؛ وكتاب تيسدال، ديانة الهلال، ص 127، وميرزا غلام أحمد، تعاليم الإسْلام، ص 78، 79.

استنتاج مشابه.

وبينما ثمّة آثار عناصر أجنبيّة أو إثيوبيّة بين السّكّان، كما برهن على ذلك أنّ المستوطنين الأول في شبه الجزيرة كانوا من السّلالة الحامية،(1) فإنّه لا يُقبل الجدل في أنّ الكتلة الكبرى من السّكّان كانت ساميّة في أصلها ودينها، وكانت في البدء تتبع عقيدة إبراهيم في عبادة الإله الواحد الحقّ.(2)

في القرن السّابع الميلاديّ، وتماماً قبل نهوض الإِسْلام، فإنَّ شعب الجزيرة العربيّة كان مؤلّفاً أساساً من القبائل والعشائر المستقلّة، التي تملك لغة مشتركة، وتتّبع ذات العادات الدّينيّة، بيد أنّها كانت بدون سلطة مركزيّة مُعترف بها.

آنذاك، كانت الوثنيّة البدئيّة ديانتهم، وكان لكلّ قبيلة معبود قبليّ، لكنّ

(1) تؤكّد نقوش الجزيرة العربيّة المبكرة ذلك.

(2) أشار البروفيسور د. س. مرگوليوث إلى أنَّ النّقوش التي تعود إلى عصور سحيقة وثنيّة. ويؤكّد كوزن (Hibbert Lectures, 1882, p. 19): «إنّ الرّأي بأنّ مُحَمَّداً جاء ليوقظ مجدّداً ويبعث ما كان موجوداً من قبل بين قومه، لهو مجرّد استعادة باهتة من ماض بعيد، ولا يجد دعماً في القُرْآن». إنّ حجّة كوزن غير قاطعة. فإذا ما قبلنا الأصل الإبراهيميّ للعرب (الذي من الصّعب أن يكون موضع جدل)، فإنّه يتبع بأنّ إيمانهم القديم كان «إيمان إبراهيم» أي، الإيمان في وحدانيّة الإله، والذي ما زال ومضات باهتة موجودة في الجزيرة العربيّة في عهد مُحَمَّد كما سنرى لاحقاً. إنّ شپرنگر، موير، تيسدال، آرنولد، ميرزا غلام أحمد ومؤلّفين آخرين يأخذون بالنّظرة المبسوطة في نصّ ج. م. آرنولد (Islam, p. 16) والتي تقول: «الدينا إيمان أبويّ مشوّه في أساس العقيدة الوثنيّة للعرب القدامى». ويقول السّير سيّد أحمد خان (Essay on Various Religions of Pre-Islamic Arabs, p.6): «لقد كانت تسيطر أربع أديان منزّلة مختلفة من وقت إلى آخر في الجزيرة العربيّة». ويقول: إنّ واحداً منها كانت «ديانة إبراهيم».

الكعبة كانت تلقى توقيراً خاصّاً، وكانت تُسمّى «بيت اللّه». وبحسب المرويّات كان يحيط بالكعبة ثلاث مئة وستّون صنماً، قيل: إنّ واحداً منها كان صورة مريم العذراء وابنها.

إنَّ الصّابئة، وهي طائفة،(1) حدّدها بعضهم بأنّها شبه مسيحيّة، وآخرون بأنّها ضدّ المسيحيّة، لكن كانت تؤمن بالتّوحيد وتعبد الأجرام السّماويّة إلى جوار الْمَلاَئِكَة وصورها، وكانت منتشرة بين العرب الذين اتّخذوا بعضاً من طقوس وأعراف هذه النّحلة، وفيما بعد أدخلها مُحَمَّدٌ إلى الإِسْلام.(2) وثمّة سبب للاعتقاد، كما أشار إلى ذلك السّير ويليام موير، بأنّ هذه الطّائفة، فيما يخصّ عبادة الأجرام السّماويّة كانت في الجزيرة العربيّة الصّيغة الأقدم التي ابتعدت عن العبادة الخالصة للإله.(3)

الفَتَشِيّة، كانت أيضاً منتشرة بين العرب من خلال توقيرهم الحجارة المقدّسة، وقد كانت عادة «نصب» الحجارة شائعة في فلسطين في العهد

---

(1) يبدو أنّ الصّابئين من سلالة حاميّة. انظر التّكْوِين: 7/10.

(2) إنَّ أبا الفداء في كتابه المختصر في أخبار البشر (ص 148)، ينقل عن كاتب عربيّ قديم، أبي عيسى المغربيّ رواية عن أعراف هذه النّحلة التي تظهر نقاط التقاء عديدة مع الإِسْلام.

إنَّ الأمر الْقُرْآنيّ [سورة فصلت (37/41)]: ﴿لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، يشير إلى ممارسة الصّابئة في عبادة الأجرام السّماويّة. انظر الفصل الرّابع.

ويشير السّير سيّد أحمد خان أيضاً (*Religions of Pre-Islamic Arabs*, p.6): إلى التّشابه بين الممارسات الدّينيّة للصّابئة والمُحَمَّديّين فيما يتعلّق بالصّلاة والصّيام.

(3) Sir W, Muir's *Life of Mahomet,* Intro. p. ciii; Tisdall's *Religion of the Crescent*, p. 128. *Cf.* Job xxxi. 26-28; Ezek. viii. 16.

البطريركيّ،[1] وهي ترقى إلى عهد بعيد جدّاً في الجزيرة العربيّة، وكانت صيغة عبادة ساميّة قديمة.

إنّ ابن إسحاق كاتب سيرة النّبيّ الأقدم يقول: «كان لا يَظْعن من مكةَ ظاعنٌ منهم،... إلّا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به طوافهم بالكعبة».

لكن على الرّغم من أنّ ذلك كان تخلّفاً عن إيمان إبراهيم الأوّليّ، نتج عن انحطاط العرق الأخلاقيّ والرّوحيّ،[2] فإنّ ثمّة شهادة تظهر أنّ معرفة الإله الواحد الحقّ لم تتلاشَ قطّ في النّفوس، على الرّغم من أنّها كانت باهتة وغير تامّة.

إنّ هذا الموضوع سيُدرس بتفصيل أكثر في الفصل الثّالث عندما تتمّ معالجة وحدانيّة الإله. وإنّه لكافٍ هنا القول: إنّه إلى جانب عبادة الآلهة القبليّة والصّغيرة، فإنّ العرب كانوا يعبدون «اللّه تعالى»[3] وكانوا يعتبرون آلهتهم الدّنيا شفعاء لديه.

---

(1) قارن التّكْوين: 18/28؛ 45/31، 52؛ 14/35؛ الْخُرُوج: 4/24؛ يَشُوع: 3/4، 7، 8؛ 26/24، 27؛ صَمُوئِيل: 12/7. انظر كذلك: .Palmer's *Qur'an*, p. xiii.

(2) انظر *The Teachings of Islam*، ميرزا غلام أحمد، ص 20، 166 ـ 167. ويقول الدّكتور ج. م. أرنولد (*Islam*, p. 29): «إنّ العرب انحرفوا بشكل كبير عن دينهم البطريركيّ الأصليّ. إنّ ديانة العرب تمثّل لنا بقايا من الدّين البطريركيّ، والعبادة الصّابئيّة للأجرام السّماويّة، وعناصر من الوثنيّة الأكثر انحرافاً».

(3) Abulfarag, 160. See also Palmer's *Qur'an*, p. xii; Sale's *Koran*, p. 12; Muir's *Life of Mahomet*, p. xvii, note. See also Tisdall's *Sources of the Qur'an*, pp. 33, 40, 260.

وزيادة على ذلك، وُجدت تجمّعات مبعثرة للقبائل اليهوديّة في جميع أنحاء شبه الجزيرة، وهي كانت قد نشدت في قديم الزّمان ملجأً في الجزيرة العربيّة من النّكبات التي حلّت بها في بلدها،[1] ولا يمكن أن يكون موضع شكّ أنّ معرفة اللّه الواحد ترسّخت في نفوس العرب بسبب من التّواصل مع اليهود.

كما كان ثمّة في الشّمال دولتا أو مملكتا الحيرة وغسّان، وكلتاهما من أصل عربيّ، وعبرهما كانت شبه الجزيرة على تماس مع العالم الخارجيّ.

إنّ الحيرة في الشّمال ـ الشّرقيّ، متاخمة لفارس وخاضعة لها، بينا غسّان في الشّمال ـ الغربيّ، كانت خاضعة لروما.

ويبدو أنّ المسيحيّة دخلت إلى هاتين الدّولتين في القرن الرّابع، وفي القرن السّادس يلوح أنّها صارت ديانة البلاط في الحيرة؛ وفي غسّان، فإنّ أسقفاً مكرّساً من روما، وضع نهاية للوثنيّة.

وبالضّبط قبل نشوء الإسْلام، فإنّ هاتين المملكتين أصبحتا متفسّختين، وقد خبا مجدهما! لقد صارت قوّتاهما وتأثيراهما في الجزيرة العربيّة من الماضي. وعلى هذا، ففي الشّمال فإنّ طموح النّبيّ المقاتل لأن يكون حاكم الجزيرة العربيّة صار أسهل منالاً.

في الجنوب، كانت مملكة اليمن ـ مهد الجنس العربيّ ـ التي منها نشأت كلّ من الحيرة وغسّان بوساطة هجرة بعض قبائلها في القرن الثّاني.

---

(1) إنّ نهب مدينة القدس من جانب نبوخذ نصّر؛ والخراب الذي أحدثه خلفاء الإسكندر العظيم؛ وهجوم بومبي سنة 64 ق.م.، وحكم تيتوس بعد ذلك بسبعين سنة؛ والعقوبة الوحشيّة لهدريانسو المنزلة في يهودا سنة 139 ميلاديّة، هي بعض الكوارث التي قادت كثيراً من اليهود إلى الجزيرة العربيّة.

إنّ هذه الدّولة، بعد أن مرّت بتقلّبات كبيرة، تعرّضت للغزو والاستعباد من قِبل نجاشيّ الحبشة سنة 525 م بسبب قيام حاكم اليمن ذي نوّاس الذي صار يهوديّاً للتوّ باضطهاد المسيحيّين في الإقليم المجاور لنجران بشكل وحشيّ. لكنّ حكم النّجاشي أصبح كريهاً للعرب، وفي النّهاية أُخرج الأحباش من اليمن، وأصبحت الدّولة تابعة لفارس.

إذاً، بين وثنيّة الجزيرة العربيّة، كان ثمّة قبائل يهوديّة ومسيحيّة متفرّقة[1] والتي منها انتشرت معرفة اليهوديّة والمسيحيّة بين العرب، فاعتنق العديد منهم اليهوديّة، وآخرون، وليسوا قلّة، دانوا بالمسيحيّة أيضاً.

زيادة على ذلك، وإذ كانت شبه الجزيرة تتاخم فارس، فإنّ معرفة بالعقيدة الزّرادشتيّة، وأساطير وفلكلور فارس كانت متداولة بين العرب، وكما سنرى في بعد، فإنّ مُحَمَّداً أخذ جزءاً لا بأس به من تعاليمه من هذا المصدر. ومرّة تلو الأخرى، إنّ أبناء بلده اتّهموه بأنّه يعيد عليهم في القرآن فحسب: ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.[2]

هنا يجب لحظ أنّ اليهوديّة والمسيحيّة الّلتين وجدتا موطناً في الجزيرة العربيّة لم تكونا عقائد العهد القديم والجديد الخالصة التي نعرفها. في ذلك العصر الفاسد، فقدتا كثيراً من بساطتهما ونقائهما وغدتا مزخرفتين بالقصص الأسطوريّة والمذاهب المزيّفة، كلا المنظومتين الدّينيّتين أصبحتا فاسدتين وعقيمتين.[3] وإنّ القصص والأساطير التي نشأت مع نظرات محرّفة لتاريخ

---

(1) يقول زومر (*Arabia*, p. 163): «إنّ اليهود والمسيحيّين... أقاموا في جوار مكّة لمئتيْ سنة قبل الهجرة». انظر كذلك: (J. M. Arnold's *Islam*, pp. 33, 34).

(2) ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾. سورة الفرقان: 5/25.

(3) يقول كريسوستوم: «إنّ العالم قد دخل الكنيسة».

الكتاب المقدّس، إضافة لـ «المأثورات المسيحيّة المنحرفة للجزيرة العربيّة وجنوب سوريّا» سوف تجد وسيلة وصول سهلة لعقل مُحَمَّد؛ وإذا لم يكن ثمّة من دليل يبرهن على أنّ الكتب المقدّسة قد تُرجمت إلى العربيّة قبل زمن مُحَمَّد،[1] أو أنّه كان لديه إطّلاع على المصادر الأصليّة لهذه الكتب،[2] أو لو كان ذلك ﴿النَّبِيِّ الأُمِّيِّ﴾[3] قد تمكّن من إفادة نفسه من محتوياتها، فإنّنا

---

(1) أقدم نسخة معروفة لترجمة العهد القديم هي لـ ر. ساديس كوان 900 م؛ وأقدم ترجمة عربيّة للعهد القديم دوّنها أسقف قبطيّ سنة 1171، من نسخة تعود لعهد غير محدّد. ويرى بعض الكتّاب أنّه كان ثمّة ترجمة عربيّة للكتب المقدّسة قبل عصر مُحَمَّد، والتي أتلفها من أجل ألّا يتعرّض اتهامه لـ ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ للتّفنيد. بيد أنّه من الصّعب تصوّر كيف أنّ مُحَمَّداً أو أتباعه أمكنهم إتلاف كلّ نسخ تلك التّرجمة العربيّة، لو كانت موجودة. وقد قال تيودورِتوس (450 م) عن حقّ: إنّ العهد القديم قد تُرجم إلى كلّ لغة حيّة في عصره، بيد أنّ مِن بين تلك التي ذكرها، لا توجد إشارة إلى ترجمة عربيّة.

'Hebraici libri non modo in Graecum idioma conversi sunt, sed in Romanam quoque linguam, Ægypticam, Persicam, Indicam, Armanicam, et Scythicam, at queadeo Sauromaticam, Semelque ut dicam in linguas omnes, quibus ad hanc diem nationes utuntur' (Theodoretus, Bk. v. de Curan Graecor. tom ii. p. 521).

إنّ التّرجمات الإثيوبيّة، والكلدانيّة والسّريانيّة قد أغفلت أيضاً من تلك القائمة، وعلى هذا فإنّه ليس بوسعنا بناء قرار قاطع على هذه الشّهادة.

(2) ربّما كانت شذرات من هذه الكتب المقدّسة وصلت مُحَمَّداً عبر زوجته خديجة، أو ابن عمّها ورقة الذي قيل: إنّ لديه علماً بالكتب اليهوديّة والمسيحيّة المقدّسة، وقيل: إنّ ورقة قد تحوّل إلى المسيحيّة.

(3) سورة الأعراف (156/7). قارن سورة العنكبوت (48/29). إنّ المفردة العربيّة التي تُرجم غير «المتعلّم» تعني بالواقع «غير يهوديّ». أيْ «النّبيّ من الأمميّين» كما يتميّز

نستطيع بسهولة فهم كيف أنّ الحقّ والباطل قد امتزجا وأصبحا متمثّلين في ذهن مُحَمَّد غير المدرّب لكن الحاذق.

إذاً، هذه هي معالم جذور مُحَمَّد التّاريخيّة فيما يتّصل بالأحوال الدّينيّة والسّياسيّة للجزيرة العربيّة في مستهلّ القرن السّابع.

إنّ الأسئلة التي يجب أن توضع قيد البحث الآن، هي إلى أيّ مدى كان مُحَمَّد متأثّراً بهذه الجذور؟ وماذا أخذ من العقائد والنّظم الدّينيّة المختلفة التي كانت شائعة في الجزيرة العربيّة آنذاك، ودمجها في المنظومة التي أسّسها والتي دعاها باسم الإِسْلام؟[1] وإلى أيّ مدى يمكننا اقتفاء مصادر هذه «الآيات» المنقولة التي يحتويها القرآن، والتي أعلن مؤكّداً أنّها من اللّه؟

إنّ بحثنا الأوّل سيبدأ منطقيّاً بطبيعة دعاوى القرآن.

عن نبيّ من اليهود والمسيحيّين، ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ وهي تشير إلى جهل مُحَمَّد بكتب الأنبياء السّابقين المقدّسة، قبل أن يتمّ إعلان الإِسْلام.

(1) سورة البقرة: 112/2، 138؛ سورة آل عمران: 19/3 ـ 20، 80؛ سورة الأحزاب: 35/33؛ سورة الحجرات: 14/49.

إنّ مفردة إِسْلام تنحدر من جذر سلَم، ومنها سلام، وتسليم. وهذه هي مدلولات جذر سلَم؛ والمصدر الذي جاءت منه مفردة الإِسْلام يعني أيضاً حالة الأمن أو السّلامة بسبب التّسليم لإرادة اللّه. يقول عبد الحقّ: إنّ الإِسْلام يعني: «الخضوع لإرادة اللّهِ». هذا على الأقلّ نظريّاً، لكن من النّاحية العمليّة فإنّ الإِسْلام دين «الأَعْمَال»، والتّسليم الذي يشير إليه هو الخوف أو الضّعف.

الفصلُ الثّاني

القرآن

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]

تعني مفردة القرآن «القراءة» أو «التّلاوة» وهي التّسمية التي أطلقها مُحَمَّدٌ على «الآيات» التي ادّعى أنَّ اللّه أنزلها.[2]

وهو يؤكّد أنّ هذه «الآيات» كانت مكتوبة منذ الأزل ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظ[3]﴾

---

(1) سورة الشّعراء: 192/26؛ قارن سورة الأحقاف: 2/46.

(2) سورة النّساء: 82/4؛ سورة الأحقاف: 4/46، 8؛ سورة النّجم: 4/53.

(3) يُقال: إنَّ أصل هذه «الآيات» كان محفوظاً تحت عرش اللّه السّرمديّ، ولهذا يدعى ﴿لَوْحٍ مَّحْفُوظ﴾ [سورة البروج: 22/85. ـ م.]. ويمكن هنا لحظ أنَّ نظريّة «الإملاء» المقدّسة ترد في التّلمود. في رسالة ماگيلا الورقة 7أ، يقول: إنّ «صَمُوئِيل أكّد أنّ سِفر إستر كان أملاه الرّوح المقدّس. أي مملى بالإلقاء الشّفاهيّ». وفي البابا باثرا، الورقة 15أ، فيما يتعلّق بالآيات الثّمانية الأخيرة من سِفْر التَّثْنِيَة (موت موسى)، قيل: «حتّى هذه الآية فإنّ الواحد المقدّس، تبارك هو، أملى، وموسى ردّدها ودوّنها؛ ومن هذه الآية وفيما بعد فإنّه أملى وموسى والدّموع في عينه كتبها؛ وعلى هذه تقرأ (إرْمِيَا: 18/36): فَقَالَ لَهُمْ بَارُوخُ: بِفَمِهِ كَانَ يَقْرَأُ لِي كُلَّ هَذَا الْكَلاَمِ وَأَنَا كُنْتُ أَكْتُبُ فِي السِّفْرِ بِالْحِبْرِ.

في السّماء، وأنّها أُرسلت من السّماء العليا إلى الدّنيا، وقد أنزلها إليه كبيرُ الْمَلاَئِكَة جبريل على دفعات.

لقد قيل: إنَّ طبيعة وحي مُحَمَّد غير ذاتيّة، ذلك أنَّ «الآيات» كانت تُنقل إليه بكلمات اللّه ذاتها من خلال وسيط خارجيّ ومعروف إليه. وهو يختلف عن الوحي الشّخصيّ لكتّاب العهديْن القديم والجديد الدّينيّين «الذين تكلّموا كما كانوا يتحرّكون من قِبل الرّوح القدس» على طول خطّ قضيّتهم.

إنّ الادّعاء الذي أعلنه مُحَمَّد حول الأصل الإلهيّ للقرآن، والمقبول من قِبل علماء الدّين المسلمين والعالم المُحَمَّديّ في العموم؛ بُسط في سور عديدة وصُودق عليه بالتّقاليد الإِسْلاَمِيّة.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ[1]﴾؛ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ[2]﴾؛

(1) سورة البروج: 21/85 ـ 22. من الممتع لحظ أنّ أصل فكرة «اللّوْحِ المَّحْفُوظ». أنّ مُحَمَّداً اقتبس الفكرة من الرّواية اليهوديّة عن لوحيْن من الحجّارة والتي دوّن الرّبّ عليهما التَّوْرَاة (التَّثْنِيَة: 1/10 ـ 5). إنّ مفردة اللّوح هي ذاتها في العبريّة والعربيّة؛ وإذ كان اللّوحان الحجريّان محفوظين في التّابوت الذي حُفظ في الخَيْمة ـ رمز حضور الرّبّ ـ فإنّ الفكرة عنت بأنّهما حُفظا في السّماء. وفيما بعد، فإنّ الإيمان نشأ بين اليهود بأنّ كامل العهد القديم والتّلمود كانا مكتوبين على هذيْن اللّوحيْن. وإذ ما انتهى مُحَمَّد إلى معرفة ذلك، فإنّه ادّعى بشكل طبيعيّ أنّ القُرْآن ذاته كان مكتوباً على أحد هذه الألواح، وبخلاف ذلك لن يكون له ذات سلطان العهد القديم السّماويّ. وفوق ذلك، فإنّ الصّيغة العربيّة هي بدون أل التّعريف (لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) التي تضمر وجود لوحين كانا محفوظين في تابوت العهد. في رسالة أبوث الورقة 12ب، العمود 1، يُروى أنّه لدى خلق العالم، «خُلقت عشرة أشياء عشيّة السّبت لدى الشّفق»؛ ومن بين هذه الأشياء العشرة كان «الكتابة والألواح الحجّرية».

(2) سورة القدر: 1/97؛ قارن سورة الإسراء: 105/17؛ سورة الأنعام: 114/6.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا القرآن أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ[1]﴾، ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ[2]﴾، ﴿فَإِنَّهُ (جِبْرِيلَ) نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ[3]﴾، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً[4]﴾، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ[5]﴾؛ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ[6]﴾؛ ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ[7]﴾.

يتمسّك علماء الإِسْلام بتأكيدهم على الأصل الإلهيّ للقرآن.

إنّ النّسفيّ الذي عاش في القرن السّادس الهجريّ يقول: إنّ القرآن كلمة اللّه غير المخلوقة. ويقول الغزاليّ: إنّ القرآن... محايث للّه. ويكتب ابن خلدون أنّ اللّسان العربيّ هو لسان الملّة وبه نزل القرآن... وإنّ آياته نزلت نجوماً لشرح وحدانيّة اللّه والواجبات الدّينيّة بحسب الأحوال.[8] ويقول هذا الكاتب العربيّ: إنَّ القرآن قد أوحي إلى النّبيّ كما تلاه هو حرفيّاً، في حين إنّ التّوْرَاة والإنجيل قد أُوحي بهما إلى الأنبياء بالمعنى، وأنّهم هم الذين

---

(1) سورة يونس: 37/10.

(2) سورة الرّعد: 39/13. أيْ إنَّ أصل القُرْآن الموجود إمّا في ذهن اللّه، أو مكتوب في ﴿لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾. وثمّة تقليد يهوديّ ينصُّ على أنّ التَّوْرَاة وُجدت قبل الخلق (*Midr.* *Yalkut*, 7.).

(3) سورة البقرة: 97/2.

(4) سورة الإسراء: 106/17. وكذلك سورة الفرقان: 32/25. ويقول اليهود أيضاً: إنّ التَّوْرَاة أُعطيت لموسى على أجزاء.

(5) سورة المائدة: 48/5.

(6) سورة النّحل: 89/16؛ قارن سورة الأنعام: 38/6.

(7) سورة الحديد: 17:57.

(8) *Arabic Text*, vol. ii. p. 391.

شرحوهما بلغة القوم.[1]

ينظر العالم المُحَمَّديّ إلى القرآن في العموم أنّه معجزة الإِسْلام الأعظم. وعلينا أن نقرّ بأنّه في بعض الآيات، وبالتّحديد تلك التي تصف عظمة وصفات اللّه لغةٌ رفيعةٌ يمكن مقارنتها فحسب مع تلك المستعملة من قِبل أنبياء العهد القديم. إنّ مُحَمَّداً عندما تُحدي من جانب خصومه باجتراح معجزة، أحالهم إلى القرآن، وتحدّاهم بأن يأتوا ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ[2]﴾.

لقد ادَّعى مُحَمَّدٌ وأتباعه أنّ القرآن كلمة اللّه المقدّسة، ووفقاً لذلك، فإنَّ المصدر الوحيد للإسْلام هو اللّه نفسه. لكن هل هذه الدّعوى صحيحة؟ وهل يمكن أنْ يُقام الدّليلَ عليها؟

إنَّ هذين هما السّؤالان المطروحان علينا، وإنَّ بحثاً في محتويات القرآن سيمكّننا من الوصول إلى استنتاج دقيق تماماً.[3]

في البدء، علينا أنْ نشير إلى أنّ فرقة من المفكّرين الأحرار المسلمين، تُدعى المعتزلة، ازدهرت في القرنين الثّاني والثّالث للهجرة، رفضت الطّبيعة الأزليّة للقرآن، ورأت أنّه قد خُلق، وأكّدت على الطّبيعة الشّخصيّة لـ «آياته».[4]

---

(1) *Idem*, vol. i, pp. 171, 172.

(2) سورة البقرة: 23/2؛ سورة يونس: 38/10؛ قارن سورة هود: 13/11؛ سورة الإسراء: 88/17.

(3) يمكن أن نلحظ الاتّهامات المساقة ضدّ مُحَمَّد من قبل قريش، أهل بلده، بأنّه كان مفترياً، وإنّ شخصاً معيّناً كان يعلّمه. [سورة النّحل: 103/16، 105]؛ وسمّوا قرآنه مجرّد ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ سورة الأنفال: 31/8.

(4) يتبنّى عديدٌ من كتّاب العرب مثل هذه النّظرة. إذ دافع إسماعيل بن عليّ عن الطّبيعة البشريّة للقرآن، وأنّه بالوسع مضاهاة نظمه. الكنديّ في رسالته (المكتوبة نحواً من سنة 215 هـ أي 830 م)، يقول: «من اطّلاعي الوثيق على الكتاب، ولكوني عربيّاً، أعلم أنّه

وقد انقرضت هذه الفرقة، وعلى الرّغم من أنّ المدرسة المعاصرة، مكوّنة من أشخاص مثل السّيّد القاضي سيّد عليّ، قد نشأت ولها ذات النّظرات المتحرّرة متأثّرةً بالثّقافة الغربية،[1] إلاّ أنّ رجال الدّين التّقليديّين المسلمين، كما الرّأي العامّ، يرفضون تعاليمهم بوصفها هرطقة ومؤذية.

من الواجب الأخذ بعين الاعتبار لدى البحث في محتويات القرآن، أنّ «الآيات» المختلفة، كما جُمعت ورُتّبت بعد وفاة مُحَمَّد تفتقد كلّ ترتيب تاريخيّ أو موضوعيّ. إنّ السّور المبكرة والمتأخّرة، والسّور التي تعالج أكثر الموضوعات اختلافاً، جُمعت سويّاً في فوضى مفرطة، وبعض سوره تحتوي «آيات» تُليت في مكّة والمدينة،[2] وإنّ الآيات المتأخّرة كثيراً ما تسبق الآيات المبكرة. ولذلك فإنّ قراءة القرآن المطبوع لا تعطي أيّ فكرة عن التّطوّر التّاريخيّ التّدريجيّ له.

على أيّ حال، جرت محاولات وبالتّحديد من قِبل ڤايل ونُلدكه، واتُّبعت من جانب سِل،[3] ورودويل،[4] والسّير ويليام موير من أجل منح السّور نوعاً

يحتوي على تشوّهات، ويعوزه التّرتيب، والأسلوب، والنّظام، أو دقّة النّظم والبيان».

(1) *Vide* Mirza Ghulam Ahmad's *Teachings of Islam*.

(2) يقول الإمام أبو قاسم حسن بن مُحَمَّد في مقدّمة مخطوط الخميس: «إنّ أيّ امرئ سيطرح رأيه بشأن كتاب اللّه يجب أن يعلم كيف نزلت الآيات على التّعاقب في مكّة كما في المدينة... ويجب أن يكون قادراً على اكتشاف أيّ الآيات المكّيّة قد اختلطت في السّور المدنيّة، وأيّ الآيات المدنيّة امتزجت بالسّور المكّيّة».

(3) *The Historical Development of the Qur'an,* by Canon E. Sell, D.D. (S.P.C.K. and C.L.S., Madras).

انظر ترجمتنا لكتاب «تطوّر القُرْآن التّاريخيّ». ـ م.

(4) في كتاب رودويل «*Koran*» إنّ السّور قد رُتّبت تاريخيّاً، بقدر ما أمكن من التّحقيق.

من التّسلسل المنطقيّ التّاريخيّ، كما يمكن أن تكون قد تُليت من قبل مُحَمَّد، وذلك اعتماداً على البناء الدّاخليّ للنّصّ، وعلى سيرة مُحَمَّد، والمأثورات الإسْلاَميّة والحيثيّات التّاريخيّة لزمن مُحَمَّدٍ.

زيادة على ذلك، فإنّ «الكتاب» لا يحتوي على تعاليم منظومة بشأن الدّين أو الأخلاق، إنّ وصاياه الدّوغمائيّة أو الأخلاقيّة ترد على طوال السّور بشكل مختلط.(1)

إذا ما أخذنا هذه التّفاصيل في دراستنا للقرآن، فإنّنا نجد أنّ سوره المبكرة تتألّف من مقاطع شعريّة مفرطة في حماسيّتها، مشوبة بالكآبة أحياناً، وأحياناً مليئة بالتّحذير والتّعنيف، وفي أوقات أخرى، تعبّر عن الحيرة ووهج عقل يتحسّس دربه وراء الحقيقة، ولاحقاً عندما أعلن مُحَمَّد النّبوّة، فإنّ السّور دوّت بإدانات متّقدة لوثنيّة أبناء قومه الذين أسهب أمامهم في ذكر أهوال يوم الحساب وآلام النّار؛ وبينا رسم متع الجنّة الحسّيّة جزاء للمؤمنين الذين

---

(1) إنَّ كارليل الذي دبّج مديحاً رفيعاً بحقّ مُحَمَّد، كتب في ذات الوقت أحد أشدّ الانتقادات قسوة: «كلما بدأت في تلاوته (القُرْآن) وجدته عصيّاً على القراءة. مملاً، اختلاط مشوّش، فجّ، لا يُفهم، تكرارات لا نهاية لها، إطالات معقّدة؛ الأكثر فجاجة، والأعقد فهماً ـ قصارى القول حماقة... مع قراءة كلّ جزء، يصعب على المرء أن يؤمن بأنّ (القُرْآن) كتابٌ مكتوبٌ في السّماء، وإنّه ملائمٌ تماماً للأرض، أو ككتاب منظوم جيّداً، أو بالفعل ككتاب على الإطلاق، وليس مقطعاً حماسيّاً مرتبكاً؛ مكتوباً على عجل، بشكل سيّء أكثر من أيّ كتاب كان قطّ». (Heroes and Hero-Worship, pp. 59, 60). وبصدد مُحَمَّد يكتب كارليل أيضاً: «كان الرّجل جلفاً، ابن نصف همجيّ للطّبيعة، وأغلبيّة البدو متعلّقين بذكراه» (ص61). «فيه وحشيّة محضة» (ص 66)؛ «ابن الطّبيعة المتوحّشة» (ص 68). ومع ذلك فإنّ مُحَمَّداً نبيٌّ بطلٌ بالنّسبة لكارليل!

يؤمنون باللّه الواحد الذي ﴿لاَ شَرِيكَ لَهُ﴾[1] في صورٍ مثيرة.

كانت علاقة مُحَمَّد باليهود في البدء ذات طبيعة وديّة، وهذا ما شجّعه على الاعتقاد بأنّهم سيقرّون به بوصفه نبيّهم الموعود، فصارت «آياته» تتضمّن إشارات متزايدة إلى كتبهم المقدّسة التي أقرَّ في ذلك الوقت بأنّ مرجعيّتها الإلهيّة متساوية مع التي في القرآن الذي قال عنه ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ[2]﴾.

وفي السّنين اللاّحقة، وعندما تبلور الإسْلام في منظومةٍ، فإنّ «وحي» اللّه الأخير، اعتُبر ناسخاً لكلّ الرّسالات السّابقة، وعلى الرّغم من أنّه في حجّه الأخير منع مُحَمَّدٌ كلاًّ من اليهود والمسيحيّين من الاقتراب من مكّة وكذلك من المشاركة في طقوسها، فإنّه لم يتبرّأ من الكتب المقدّسة، ولم يرفض مرجعيّتها، بل كان يقدّرها دائماً، ويتحدّث عنها بتوقير.

في العهد المكّيّ المبكر، زعم مُحَمَّدٌ أنّه ﴿نَذِيرٌ﴾[3] فحسب، وسعى من خلال الإقناع، أو التّهديد بالعقاب في اليوم الآخر لجعل أبناء بلده يرجعون عن الوثنية إلى دين إبراهيم الأصليّ.[4] لكن، عندما بدأ في المدينة يشعر بأنّ

(1) أو «الشّرك»؛ إنَّ هذه المصطلحات تُستعمل في القُرْآن لتشير إلى الأوثان. سورة الزّمر: 65/39. [ووردت عبارة ﴿لاَ شَرِيكَ لَهُ﴾ في سورة الأنعام: 163/6 ـ م.].

(2) سورة المائدة: 48/5؛ قارن: سورة آل عمران: 3/3؛ سورة يونس: 37/10.

(3) سورة الأعراف: 188/7؛ سورة الفرقان: 1/25؛ سورة الأحزاب: 45/33؛ سورة فصّلت: 19/41؛ سورة الشّورى: 7/42؛ سورة النّازعات: 45/79؛ سورة العنكبوت: 50/29. وآيات أخرى.

(4) سورة النّحل: 120/16، 123؛ سورة الحجّ: 78/22؛ إن مُحَمَّداً لم يزعم أنّه يبشّر بديانة جديدة؛ انظر: (Snouck Hurgronje's *Mohammedanism*, p. 40.). وإنّ حجّة كوئن ضدّها بأنّ مُحَمَّداً قد تبنّى ذلك في السّور المتأخّرة فحسب ليست مقنعة.

موقعه وسلطته صارا أكثر أمناً، وعندما وجد أنّ عظاته كانت محلّ سخرية أبناء قومه، وأنّ دعاويه كونه نبيّ اللّه رُفضت من جانب اليهود والمسيحيّين؛ فإنّه أسقط دور «النّذير» الأكثر تواضعاً، واتّخذ موقع النّبيّ - المحارب، ولم يتردّد باستعمال أيّ وسيلة أو سلاح من أجل إزاحة المعارضة لسلطته، ولبلوغ هدفه، والذي كان جعل كامل الجزيرة العربيّة تحت حكم الإسْلام، وإخضاعها له على أنّه النّبيّ المكلّف إلهيّاً.

في سُور مدّة المدينة وضمن هذا المنحى، فإنّ مُحَمَّداً علّم الإيمان والخضوع له كما إلى اللّه ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهي عبارة غدت محلّ استعمال منه.[1]

وسوف نكمل البحث الآن في عناصر عقيدة الإسْلام الأساسيّة، وما المصادر التي يمكن إرجاعها إليها.

إنَّ إيمان الإسْلام مكوّن من ستّة بنود؛[2] وهي الآن مغروسة في أجزاء كثيرة للقرآن. وخمسة من هذه البنود مذكورة في سورة النّساء (4/136):

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ؛ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾.

إنَّ العقيدة السّادسة هي القضاء، أو قدر اللّه وهي مبسوطة في آيات قرآنيّة

(1) سورة الأحزاب: 71/33؛ سورة مُحَمَّد: 33/47؛ سورة الفتح: 9/48، 13، 17؛ سورة الحجرات: 14/49، 15؛ سورة الحديد: 57: 7، 28؛ سورة المجادلة: 5/58؛ سورة التّغابن: 8/64، 12؛ الخ.

(2) تتمسّك جميع فئات المسلمين في وقتنا الحاليّ ببنود الإيمان أعلاه، كما تحقّق الكاتب مراراً من تواصله مع مسلمي المجتمع الذي يعمل فيه.

كثيرة، مثل: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ[1]﴾، و ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾.[2]

إذاً، إنّ البنود السّتّة التي تشكّل دين الإِسْلام، والتي تتميّز عن أركانه، هي:

1. الإيمان بوحدانيّة اللّه.
2. الإيمان بالْمَلاَئِكَة.
3. الإيمان بالكتب السّماويّة.
4. الإيمان بالأنبياء.
5. الإيمان بيوم الحساب، بما في ذلك الجنّة والنّار.
6. الإيمان بالقضاء والقدر.

وسوف ندرس بنود الإيمان هذه بشكل منفصل، ونتقصّى في ذات الوقت مصادرها.

(1) سورة البقرة: 213/2.

(2). سورة إبراهيم: 4/14؛ انظر كذلك سورة الأعراف: 178/7، 179؛ سورة الأنفال: 24/8؛ سورة النّحل: 36/16، 37؛ سورة الحجّ: 16/22، 18؛ سورة القصص: 56/28، 68؛ سورة الشّورى: 8/42؛ وآيات أخرى عديدة.

الفصلُ الثَّالث

وحدانيّة الإله

﴿هُوَ اللهُ أَحَدٌ، اللهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ.﴾[1]

إنّ مذهب وحدانيّة الإله، هو المبدأ الأساسيّ في الإِسْلام، إنّه الكلمة المفسّرة لكامل المنظومة، والأساس الذي ترتكز عليه بنيته الفوقيّة. إنّ «لا إله إلاّ اللّه» الجزء الرّئيس في العقيدة الإِسْلاَمِيّة،[2] هذه العبارة التي يصدح بها المؤذّن،[3] والتي يمكن سماعها من المسجد أو المئذنة لدى دعوته المؤمنين للصّلاة. وتردد ذكر هذه العقيدة في القرآن، وإنّ تواتر تلاوتها المقترن بإدانات لاهبة التي أنزلها مُحَمَّد على أولئك الذين يجعلون للّه ﴿شُرَكَاء﴾ تكشف شدّة

(1) سورة الإخلاص (112).

يشار إلى أنّ المؤلّف حذف هنا من بداية السّورة فعل الأمر (قل) وهذا ما يوهم القارئ ما يعتقده المؤلّف من أنّ القرآن تأليف محمّد وليس منزلاً عليه من الله. حيث غاب الفاعل ـ الآمر ـ بغياب الفعل. (المقوّم اللّغويّ).

(2) إنَّ الجزء الثّاني من الكلمة، أو الرّكن الإِسْلاَمِيّ هو، محمّد رسول اللّه. وكثيراً ما سمع الكاتبَ المسلمين يردّدون الشّهادة أثناء حواراته معهم.

(3) المنادي المسلم الذي يعلن الأذان، أو الدّعوة للصّلاة.

إيمانه في هذا المبدأ، لقد سيطرت العقيدة عليه وغدت الحجر الأساس في منظومته.

من أين حاز مُحَمَّد على فكرته عن وحدانية اللّه؟ وكيف نشأت في ذهنه؟ وهل هو أوّل من قدّمها بين العرب؟

بالنّسبة للسّؤال الأخير بوسعنا تقديم إجابة نافية لا جدال فيها؛ إذ لم تكن الفكرة التّوحيديّة جديدة بالنّسبة للعرب،[1] إذْ كانت متوافقة مع إيمانهم التّقليديّ في أصلهم السّاميّ.

وليس ثمّة من شكّ في أنّ العبادة الأصليّة للسّاميّين كانت عبادة الإله الواحد الحقّ؛[2] وعلى الرّغم من أنّ الأهالي في عهد مُحَمَّد قد هجروا دينهم الفطريّ، وسقطوا في الشّرك والوثنيّة،[3] إلاّ أنّ ثمّة دليلاً يشير إلى أنّ إيمانهم الأصليّ بوحدانيّة اللّه لم يتلاشَ كلّيّاً من عقولهم.

لقد رأينا في الفصل الأوّل، أنّ العرب عبدوا أيضاً إلى جانب آلهتهم الصّغرى «اللّه تعالى»، وأنّ فكرتهم عنه أصبحت مجسّدة مادّيّاً كما تكشفها

---

(1) انظر .Palmer's *Qur'an*, pp. xlix, lxvi. ويؤكّد الشّهرستانيّ الكاتب العربيّ هذه النّظرة؛ ويدلي السّير سيّد أحمد بشهادة مشابهة في (*Essay on the Religions of the pre-Islamic Arabs*, pp. 5, 14.). ويقول ژ. م. أرنولد: «إنّ العرب تقدّموا من توحيد أكثر أو أقلّ نقاء إلى... الوثنيّة الفعليّة» (*Islam*, p. 21).

(2) يقول الدّكتور دودس في كتابه (*Muhammad, Buddha and Christ*)، ص 10، إنّ فكرة مُحَمَّد عن اللّه كانت ساميّة؛ انظر ذلك كتاب تيسدال (*Sources*)، ص 31؛ ويؤيّد رأينا هذه النّظرة (*Hist. gen. et sys. com. des Lan. Sem.*, liv. i. ch. 1).

(3) يصرّح ابن إسحاق وابن هشام بأنّ الوثنيّة دخلت بين العرب في زمن قصير نسبيّاً قبل نشوء الإسْلام.

قرابينهم المقدّمة إليه مثلما كانوا يقدّمون لآلهتهم القبليّة، لقد كان بالنّسبة إليهم الرّبّ الرّئيس الأعلى في مجمع آلهتهم. وقد اعتُبرت الآلهات الأخرى أدنى، وتخضع للإله الأعلى هذا، وعُبدت بوصفها شفعاء لديه فحسب.

وزيادة على ذلك، كان العرب يقسمون بالله عندما كانت تحضر مناسبة تتطلّب قسماً لتأكيد الاتّفاق.

واشتقاقيّاً، فإنّ مفردة «اللّه» التي تتألّف من أداة التّعريف «أل»، و«إله» تعني الكائن الأعلى، وهي المرادف الدّقيق لمفردة ὁ θεός في الإغريقيّة. وفي الواقع، يبدو أنّ المفردة ترجمة في العربيّة للمفردة العبريّة، אֵל (إل) أي اللّه. ويرادف هذه المفردة في الأوردو والفارسيّة खुदा (خودا) الواحد الموجود بذاته، والمشتقّة من الفارسيّة खुद (خود) التي تعني النّفس.

وبدون شكّ، إنّ إشارة هِرودوتس كانت إلى ذلك الكائن الأعلى باسم Ὀροτάλ في معرض حديثه عن إلهين رئيسيْن كانا محلّ عبادة العرب، والذي يبدو أنّه تحريف من «اللّه تعالى».[1]

كذلك، فإنّ مفردة «اللّه» وردت كثيراً في الشّعر العربيّ[2] الذي جاءنا من

---

(1) Herodotus, Book III, Chap. 8: „Σέβονται δ ὲ Ἀράβιοι πίστις ἀνθρώπων ὁμοῖα ταῖσι μάλιστα.... Διόνυσον δὲ θεὸν μοῦνον καὶ τ ὴν Οὐρανίην ἡγεῦνται εἶναι... ὀνομάζουσι δὲ τὸν μὲν Διόνυσον Ὀροτάλ, τὴν δὲ Οὐρανίην Ἀλιλάτ.“

ويعتقد البروفيسور د. س. مرگوليوث أنّ مطابقة Ὀροτάλ هذه مع «اللّه تعالى» غير محتملة. بيد أنّ باحثين آخرين (على سبيل المثال، پوكوك، تيسدال، موير، أرنولد وآخرون) يوافقون على هذه النّظرة المشار إليها في النّصّ.

(2) كثيراً ما ترد مفردة «اللّه» في المعلّقات.

عهود قبل الإسْلام.

كان المصطلح رائجاً بين العرب قبل ـ وفي ـ زمن مُحَمَّد في أسماء الأعلام والأماكن، وهذا ما يبرهن على سيادة فكرة وحدانيّة اللّه. فاسم أبي مُحَمَّد كان «عبد اللّه»، ومنذ سحيق الزّمن، كانت الكعبة تُدعى «بيت اللّه»، وهو ما يرادف العبريّة בֵּית־אֵל (بِت إل)، أو بيت الرّبّ.[1]

ويروي ابن إسحاق أنّ قريشاً قبيلة مُحَمَّد الخاصّة، كانت لدى قيامها بطقس الإهلال تقول هذه الكلمات: «لبّيك اللّهم لبّيك، لبّيك لا شريك لكَ لبّيك».[2] ويؤكّد هذا الكاتب العربيّ المبكر أنّ هذه الطّريقة في مخاطبة اللّه تتضمّن الإيمان في وحدانيّته.

وأخير لدينا شاهد من اندفاع قريش للسّجود حينما انزلق محمّد مؤقتاً[3] وابتعد عن صرامة ونقاء إيمانه، ووافق على الاعتراف بآلهتهم الدّنيا كشفعاء للّه، وهذا يشير بشكل إضافيّ إلى أنّ فكرة الإله الواحد الأعلى كانت مألوفة بالنّسبة للعرب.

---

(1) لا توجد أداة تعريف في مفردة الإله في العبارة العبريّة، نظير التّعبير العربيّ؛ انظر سيّد أحمد (*Essay on History of Mecca*)، ص 6. وبقدر ما هو معروف فإنّه أُشير إلى الكعبة من قبل ديودوروس سيكولوس (60 ق.م.) في كتابه الثّالث، بوصفها المقام الأشدّ توقيراً من قبل العرب.

(2) يوردها ابن هشام في كتابه السّيرة النّبويّة، طبعة مصر، الجزء الأوّل، ص 27، 28.

إضافة المقوّم اللّغويّ: تؤكّد الرّوايات الصّحيحة أنّهم كانوا يُتبِعون هذا الكلام بالاستثناء التّالي: إلّا شريكاً هو لك تملكه وما ملك.

(3) رغم أنّ الزّلّة لم تُذكر في القُرْآن، كما وصل إلينا، وبعض المصادر ترفض القصّة أو تتجاهلها (مثل الغزاليّ)، إلّا أنّ لدينا روايات الواقديّ والطّبريّ، وهما من مؤرّخي سيرة مُحَمَّد الأشدّ ثقةً، ممّا يعني أنّ القصّة حدثت فعلاً.

وبينما كانت القبائل العربيّة المختلفة لديها آلهتها القبليّة المتنوّعة ـ كانت الكعبة تحوز على ثلاث مئة وستّين صنماً ـ فإنّها كانت تعدّ «الله» وتعبده بوصفه الكائن الأعلى، وكانت تنظر إلى آلهتها الأخرى أنّها أدنى وتابعة له، وعبدتها بوصفها شفعاء لديه.

إذاً، إنّ مصدر العقيدة الإسْلاميّة بشأن اللّه الواحد هو الفكرة السّاميّة عن وحدانيّة الإله، والتي كانت إيماناً قديماً تقليديّاً للعرب، وعلى الرّغم من أنّها كانت متوارية إلى حدّ كبير، إلّا أنّها لم تغب عنهم، وكان بعضٌ من أكثر المفكّرين وذوي النّزوع الدّينيّ يؤمنون بها.

والأبرز من بين هؤلاء كانت عصبة[1] من أربعة «باحثين» قرشيّين، يُدعون الأحناف،[2] الذين رفضوا الوثنيّة، وأكّدوا أنّهم أتباع دين إبراهيم. واثنان منهم عثمان بن الحويرث وورقة بن أسد، كانا ابني عمّ خديجة ـ زوجة محمّد ـ وقيل: إنّهما اعتنقا المسيحيّة، وكانا على اطّلاع على الكتب اليهوديّة والمسيحيّة المقدّسة، والثّالث كان عبد اللّه بن جحش الذي أصبح مسيحيّاً في مهجره في الحبشة بعد أن كان اعتنق الإسْلام. والرّابع كان الشّيخ زيد بن عمرو، الذي

(1) يورد ابن هشام ما قاله ابن إسحاق الذي وصلت إلينا أعماله بشكل رئيس من خلال استشهادات الأوّل، فيقدّم رواية حول هذه العصبة في كتابه السّيرة النّبويّة، المجلّد الأوّل، ص 76، 77.

(2) إنّ مفردة «أحناف» التي أتت في العربيّة لتعني «الانحراف» بسبب ترك عبادة الأوثان، كانت قد استُعملت لأوّل مرة مصطلح خزي نحو الإصلاحيّين. وبحسب ابن هشام، إنّ مفردة الحنيفيّة، أصبحت في اللّفظ مختلطة مع مفردة تدلّ على «النّقاء»؛ ومن المحتمل لهذا السّبب أنّ هؤلاء الإصلاحيّين أو «الأحناف» تبنّوها، من أجل التّعبير عن رفضهم للوثنيّة وعودتهم إلى «نقاء دين إبراهيم». كونين يفنّد في كتابه (**Hibbert** *Lectures*, **1882, pp. 19–22, and App. n. 2**) فكرة أنّ مصطلح «حنيف» لها في الأصل دلالة سلبيّة.

كان يوبّخ المكّيّين على وثنيتهم، وأكّد أنّه يتّبع «دين إبراهيم». وفي النّهاية عاد ليعتزل في كهف على جبل حرّاء، حيث عاش عمراً مديداً وتوفّي، كما رُوي سنة 612 م.، لسنين قليلة فحسب قبل أن يعلن مُحَمَّد النّبوّة.

في أثناء فترات اعتزال مُحَمَّد في جبل حرّاء للتّأمّل، كما كان ديدنه كلّ عام،[1] كان كثيراً ما يلتقي زيداً المسنّ، ومن خلال الاتّصال معه، كما مع «المصلحين» الآخرين الذين كانوا أقرباءه؛ توافرت له فرصة الإلمام بتعاليمهم. وبالفعل، لا يمكننا التّقليل من تأثير الحنيفيّة في مُحَمَّد خلال زمن نشأة الإسْلام؛ إضافة لمبدئهم الأعظم حول وحدانيّة الإله، ورفضهم الوثنيّة، والتي كانت في توافق مع إيمان مُحَمَّد الخاصّ، وممّا يقوّي ويعزّز صحّة هذا التّأثّر أنّ كلّ المسائل الرّئيسة في تعاليم هؤلاء «المصلحين» موجودة في القرآن أيضاً.[2] يقول شپرنگر: «اعترف مُحَمَّدٌ بزيد بشكل صريح بوصفه سلفه وكلّ كلمة قالها زيد نجدها في القرآن فيما بعد».[3]

زيادة على ذلك، يُشار إلى إبراهيم في القرآن بأنّه حنيف،[4] وهو الوصف الذي أطلقه «المصلحون» على أنفسهم، وفي آيات عدّة من القرآن يُحضّ

(1) يقول ابن إسحاق: إنّ قريشاً كانت في «الجاهليّة» معتادة على الاعتزال في جبل حرّاء كلّ عام خلال شهر رمضان، للتّكفير؛ السّيرة النّبويّة، المجلّد الأوّل، ص 80، 81. وبدون شكّ، فإنّ مُحَمَّداً حدّد شهر رمضان وقتَ الصّيام لأتباعه جرّاء هذه العادة.

(2) على سبيل المثال، تحريم الوأد، ونعيم المؤمنين في ﴿جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾؛ وعقوبة الأشرار في النّار؛ والأسماء المخصّصة للإله.

(3) على سبيل المثال، في سورة آل عمران (20/3): ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾. وهذه الكلمات بحسب ابن إسحاق كان أوّل مَنْ استعملها زيد في خطبه أمام النّاس.

(4) سورة آل عمران: 95/3؛ سورة النّساء: 125/4؛ سورة الأنعام: 161/6؛ سورة النّحل: 120/16.

النّاس على أن يصبحوا حنفاء باتّباعهم ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾.[1] ونزل الوحي إلى مُحَمَّد ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[2]﴾.

وبالفعل تبنّى مُحَمَّدٌ في البدء اسم «الحنيفيّة» لديانته، والذي غيّره لاحقاً إلى الإسْلام.

إنّ السّيّد سيّد أحمد في عمله حول العرب قبل الإسْلام، يشير إلى الأحناف بأنّهم إحدى «أربع ملل موحّدة وُجدت في الجزيرة العربيّة قبل الإسْلام...، وهم، الصّابئة، والأحناف، واليهود، والمسيحيّون». ويتحدّث عن «فئتيْن من العرب الموحّدين في أزمنة الجاهليّة».[3] ومن ثمّ، نتيجةً لهذه الحقائق بشأن علاقات مُحَمَّد مع الأحناف، وإذا أبقينا في الذّهن أنّ المسائل الرّئيسة في تعاليمهم قد أدمجها محمدٌ في القرآن؛ فإنّه يتأتّى علينا النّظر إلى الحنيفيّة، أو عقائد هؤلاء «المصلحين» العرب أنّها إحدى مصادر الإسْلام.

لقد رأينا أعلاه أنّ مصدر مذهب الإسْلام بخصوص اللّه الواحد يوجد في الفكرة السّاميّة عن وحدانيّة الإله. وإنّ هذا الاستنتاج يستمدّ دعماً من شهادة عدّة كتّاب عرب (ابن إسحاق، ابن هشام، وآخرين) الذين يؤكّدون أنّ أصل عبادة العرب، لا سيّما أولئك الذين يدّعون النّسب الإسماعيليّ، كان الإله الواحد الحقّ.

على أيّ حال، من الواجب الاعتراف بأنّ فكرة اللّه، الكائن الأعلى، المتعالي على الآلهة الدّنيا؛ لم يكن لها دلالة دينيّة وأخلاقيّة مهمّة بالنّسبة للعرب الذين كانت حياتهم غير منظّمة وفقاً لصفاته الجوهريّة المرتبطة بالحقّ

(1) سورة البقرة: 135/2؛ سورة الحجّ: 31/22، 78؛ سورة الرّوم: 30/30.

(2) سورة النّحل: 123/16.

(3) *Maroam al-Arab qabl al-Islam*, pp. 222, 228.

والنّقاء. إلّا أنّه لا يمكن نكران أنّ هذه الفكرة التّوحيديّة لم تكن مفهوم مُحَمَّد الخاصّ، ذلك أنّ العرب كانوا يحوزونها لوقت طويل قبل نشأة الإسْلام، وكلّ ما قام به مُحَمَّد كان أن أعادها إلى أذهان قومه بشكل حيّ، وفي النّهاية فرضها عليهم بالسّيف.

وثمّة عامل آخر، عزّز بدون شكّ إيمان مُحَمَّد في هذه العقيدة النّبيلة، ألا وهو تواصله مع اليهود والمسيحيّين، والمعرفة التي حصل عليها عن منظومتهما الدّينيّة على الرّغم من أنّها لم تكن دقيقة وكانت محرّفة، وقد رأينا أنّ ثمة قبائل يهوديّة ومسيحيّة عديدة في الجزيرة العربيّة.(1) وكانت صفيّة، إحدى زوجات مُحَمَّد يهوديّة، وكانت جاريته ريحانة يهوديّة أيضاً، وكان ثمّة جارية أخرى مسيحيّة، هي مارية القبطيّة. ووُجد بعض الأرقّاء المسيحيّين في مكة.

إنّ التّواصل مع جميع هؤلاء النّاس كان يفضي إلى تعميق إيمان مُحَمَّد في وحدانيّة الإله.

إنّ معرفة مُحَمَّد بالتّلمود،(2) أو التّقاليد اليهوديّة المؤسَّسة عليه، ساعدته

---

(1) انظر أعلاه، الفصل الأوّل.

(2) التّلمود (حرفيّاً التّعليم): الاسم المُعطى لمجموعة أعمال أحبار اليهود، نُقلت بالتّقاليد، وتتضمّن «الشّفاهيّ» أو «القانون غير المكتوب» بالتّمايز عن التَّوْرَاة أو «القانون المكتوب» لموسى.

وهو مؤلّف من جزأين، هما: المِشنا وجِمارا. المِشنا (מִשְׁנָה = تعليم) هو جمع الحبر يهودا (حوالي سنة 200 ق. م.) للقواعد، والنّظم، والشّروحات، والمأثورات، التي نشأت بين اليهود حول كتب العهد القديم، منذ موت موسى. وجِمارا (גְּמָרָא = ملحق) وهو تعليق على المِشنا، وثمّة تلمودان، وهما التّلمود الفلسطينيّ أو الأورشليميّ، الذي أُنجز حوالي نهاية القرن الرّابع، والتّلمود البابليّ، الذي أُنجز في بابل بعد ذلك بقرن. إنّ تعاليم التّلمود كانت معروفة في الجزيرة العربيّة عبر اليهود المقيمين هناك، قبل

على تثبيت إيمانه بوحدانيّة الإله، وإنّ روايته في سورة البقرة (133/2)، والتي تقصّ أنّه عندما استدعى يعقوب، لدى حضور أجله، أبناءه، أكّدوا له إيمانهم بـ «إلهِ واحدٍ»، «إله إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ»،[1] وهي مأخوذة كما هو واضح من الرّواية الحبريّة لهذا الحدث، والتي جاء فيها أنّهم قالوا: «إنّ الرّب إلهنا، وهو الواحد».[2] إنّ رسالة البراخوت (التّلمود البابليّ، الورقة 12ب، العمود 2)، في شرحها لصيغة جمع אֱלֹהִים (إلوهيم) للإله، تشدّد على وحدانيّة الإله.

إنّ الـ שְׁמַע (شِماع)، أو الصّيغة الرّئيسة لليترجيا اليهوديّة التي تُتلى صباحاً ومساءً من جانب اليهود، تبتدأ بإعلان وحدانيّة الإله: «اسمعْ يا إسرائيل، إنّ الإله ربنا هو الإله الواحد». ويفتتح التّلمود[3] بمناقشة حول هذه الصّيغة أو الإعلان الشّهير، ويعالجها كامل الفصّل الأوّل. والجزء الأوّل من شهادة المسلمين، المكرورة في سورة البقرة (163/2): ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ؛ لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ﴾، شبيه للغاية بهذا الجهر الشّهير لليهود.

نحواً من سنة 590 م، وعندما كان مُحَمَّدٌ شابّاً، زار السّوق السّنويّة في عكاظ

نشأة الإِسْلام.

(1) الآية: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ، إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ـ م.

(2) مدراش ربّاه على التّكوين، المقطع 98، والتّثنية، المقطع 2. إن مصطلح مدراش (من דָּרַשׁ حرفياً شرح) يعني شرحاً أو تأويلاً حرّاً للكتاب المقدّس، وهو ينطبق على مجموعة أعمال حبريّة مبكرة ذات طبيعة تأويليّة وخلقيّة دينيّة. وإنّ هذه الشّروحات الحبريّة ذات نوعين، وهما: هالاخا التي تعالج الجانب القانونيّ من الكتب المقدّسة، وهاگّادا التي تشير إلى التّعاليم المفسّرة والوعظيّة.

إنّ كلاً من الهالاخا والهاگّادا يشكّلان المدراش.

(3) براخوت، الأوراق 2أ ـ 13أ.

التي تبعد ثلاثة أيّام عن مكّة، وهناك وقع تحت سحر خطابة قسّ، الأسقف المسيحيّ من نجران الذي تركت ـ بدون شكّ ـ دعوته المتّقدة للإله الواحد الحقّ تأثيراً عميقاً ومديداً في ذهن مُحَمَّد المتديّن.

وُجدت قنوات أو وسائط عديدة حاز مُحَمَّد عبرها على معرفته باليهوديّة والمسيحيّة، والتي كانت تؤدّي إلى تعميق مفهومه عن وحدانيّة الإله. ولكن ما تمّ ذكره إلى الآن كافٍ لإظهار أنّ الأساس وحجر الزّاوية في الإسْلام ـ العقيدة السّاميّة عن اللّه الواحد ـ لم تكن مستحدثة بالنّسبة للعرب، ولم يكن مُحَمَّدٌ هو الذي قدّمها إليهم، بل كانت موجودة بينهم منذ أزمنة سحيقة، وكانت المصدر الرّئيس لهذه العقيدة الإسْلاَمِيّة.

في الختام، بالوسع الاستشهاد بالقرآن من أجل دعم هذا الاستنتاج الذي توصّلنا إليه. ففي آيات كثيرة إنّ مُحَمَّداً يتنصّل من أيّ نيّة بتبشير، أو بتأسيس دين جديد، مؤكّداً أنّ مهمّته هي أنّ «ينذر»[1] يوم الحساب، وأن يدعو[2] النّاس إلى العودة إلى نقاء إيمانهم القديم لسلفهم إبراهيم، والذي قيل: إنّه كان إيمان آدم وحواء، أو موسى ويَسُوع،[3] إيمان «الأحناف»، الذي يكمن في عبادة الواحد الإله الحقّ فحسب. ويؤكّد مُحَمَّد أنّ «آياته القرآنيّة» تصدّق الكتب المقدّسة السّابقة التي تحتوي على هذا الإيمان،[4] وهذه الآيات تؤمن ضمناً بالطّبيعة المنزّلة لهذه «الكتب»، وهو ادّعى أنّ مفهومه للإله كان مثل مفهوم الذي أُوحي إليهم: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ؛... اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ

(1) انظر الفصل الثّاني.

(2) سورة الشّورى: 13/42، 15.

(3) سورة الشّورى: 13/42.

(4) سورة يونس: 37/10.

لَنَا... لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ[1]﴾.

يمكننا من ثمّ، أن نستنتج من هذه الآيات القرآنيّة، وهي تأكيدات مُحَمَّد الخاصّة، أنّ مذهب وحدانيّة الإله له مصدر لا في عقل مُحَمَّد الخاصّ، بل في العقائد الشّائعة في الجزيرة العربيّة آنذاك.

من جهة أخرى، من تحليل التّصوّر القرآنيّ للإله، نجد أنّه يفتقر إلى بعض الصّفات الأساسيّة للألوهيّة كما جاءت في كتب العهديْن القديم والجديد المقدّسة. إنّ مُحَمَّداً قد تصوّر ـ عن حقّ ـ الإلهَ حاكماً متعالياً بشكل مطلق، عليماً، جبّاراً، مقدّساً، عادلاً، رحيماً، وغفوراً، كما تصوّره أيضاً متعالياً، وبعيداً عن البشر ـ الإله الذي بينه وبين عباده هوّة لا يمكن عبورها. بيد أنّ الحقيقة العظيمة عن الأبوة المقدّسة للإله، وهي حبّه اللّامتناه في جسر الهوّة، وقدومه أقرب صوب عبيده من أجل أن يمنحهم قوّته الإلهيّة الخاصّة، كي يمكنهم أن يصيروا مقدّسين مثله في القلب والحياة؛ هذه الحقائق العظيمة للرّبّ كانت مجهولة بالنّسبة لمُحَمَّد، وكانت غائبة عن تعاليم القرآن. فزيادة على جهل مُحَمَّد بخصوص أقنوم الرّوح القدس، وتصوّره الخاطئ لعقيدة الثّالوث الذي اعتقدها عن ضلال، أو دُفع لذلك، بأنّها تتألّف من الرّبّ، ومريم، ويَسُوع،[2] لم يفهم قطّ مغزى التّجسّد، وظهر بأنّه كان جاهلاً كلّيّاً بمذهب الفداء المهمّ من خلال موت المسيح. ويمكن أن نرى في هذه الوقائع دليلاً على أنّ المصدر الرّئيس لفكرة مُحَمَّد بشأن وحدانيّة الإله لا توجد في المسيحيّة أو اليهوديّة، بل

(1) سورة الشّورى: 15/42.

(2) سورة النّساء: 171/4؛ سورة المائدة: 72/5، 116. ويشير ابن إسحاق، وهذه الإحالات تتضمّن ذلك، إلى أنّ مُحَمَّداً كان يحوز على فكرته الخاطئة بشأن الثّالوث من تعاليم المسيحيّين المحرّفة في زمنه؛ انظر:

Koelle's *Mohammed and Mohammedanism*, p. 136; J. M. Arnold's *Islam*, p. 34

كما بيّنّا أعلاه في الاعتقادات الدّينيّة القديمة لأبناء جنسه.

وإذا عالجنا هنا فكرة مُحَمَّد حول الإله، فإنّه لن يكون خارج موضعه أن نضمّن هذا الفصل الملحوظة بشأن التّشابه المذهل الذي يوجد بين بعض أسماء الإله في القرآن، وتلك الموجودة في الآفِستا بخصوص الكائن الأعلى (أهورا مازدا). فثمّة في القرآن تسع وتسعون اسماً للإله، خمس وسبعون منها[1] تنطبق على أهورا مازدا في الآفِستا، وعندما مقارنتهما،[2] لا نستطيع إلاّ أن

---

(1) ثمّة خمسة وسبعون اسماً لأهورا مازدا موجودة في أورمازد ياست؛ ويقول بليك، في ترجمته للآفِستا، المجلّد الثّالث، ص 23، الملاحظة **، كان يجب أن تكون اثنين وسبعين فقط، وهو رقم مقدّس لدى الپارْسيّين. إنّ الپارْسيّين المتعلّمين، الذين استشرتهم، أكّدوا هذا. إنّ कस्ती كاستي، أو الحبل المقدّس، الذي يلبسه الپارْسيّون بعد عمر السّبع سنين، يتألّف من اثنين وسبعين خيطاً مع أسماء كائنهم الأعلى ـ أورمازد.

(2)

اسم الإله في القُرْآن	اسم الإله في الآفِستا
خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (سورة الأنعام: 6/102).	الخالق (أورمازد ياست، 8، 13).
الرّبّ (سورة فصّلت: 41/30، 46).	أهورا (الرّب، أورمازد ياست، 8).
العَلِيمُ (سورة الحجْر: 15/25؛ سورة الذاريات: 41/30).	مازداو (عليم بكل شيء، أورمازد ياست، 12).
بَصِيرٌ (سورة الحجّ: 22/61، 75).	الواحد بصير بالكل (أورمازد ياست، 8، 12).
قوي (سورة الحجّ: 22/40).	الواحد القوي (أورمازد ياست، 7).
الْعَزِيز (سورة سبأ: 34/6).	العزيز (أورمازد ياست، 12).
الْقَهَّارُ (سورة الرّعد: 13/16).	الواحد الذي لا يقهر (أورمازد ياست،8).
حَكِيم (سورة المائدة: 5/38).	الواحد الحكيم (أورمازد ياست، 15).
سَرِيعُ الْحِسَابِ (سورة المائدة: 5/4).	الذي يجري حساباً قويماً (أورمازد ياست، 8).
الْكَبِيرُ (سورة لقمان: 31/30).	الواحد الكبير (أورمازد ياست، 15).

نستنتج أنّ مُحَمَّداً نقل بعضاً من تسمياته للإله من الآفِستا. وسنرى في الفصول التّالية أنّ مُحَمَّداً كان يدين، وليس بالقليل من تعاليمه القرآنيّة للزّرادشتيّة، وإذْ كانت أسماء الكائن الأعلى الأفِستيّة منتشرة في الجزيرة العربيّة، فإنّه لا يوجد شكّ في أنّها كانت معروفة لمُحَمَّد، وأنّه ضمّن بعضها في القرآن، بينما حاز الأخرى بالاتّصال مع اليهوديّة والمسيحيّة.

في الختام، يمكننا لحظ أنّ صيغة «بسم اللّه الرّحمٰن الرّحيم»،(1) التي تبتدئ بها كلّ سورة، ما عدا السّورة التّاسعة [التّوبة، م.]، ربّما أُخذت من الزّرادشتيّة. ففي عمل زرادشتيّ قديم، يُسمَّى دساتير إي أسماني المؤلّف من خمس عشرة رسالةً، ترد في الآية الثّانية من كل رسالة هذه الصّيغة: «بسم الإله، المعطي، الغفور، الرّحيم، العادل». وفي البونداهيشنيه ثمّة عبارة مشابهة: «بسم أورمازد، الخالق». وبشكل مماثل، يستعمل اليهود صيغة: «بسم الرّبّ»، أو «باسم الإله العظيم»؛ ويرى رودويل أنّ الصّيغة القرآنيّة هي من أصل يهوديّ.(2) بيد أنّها على الأغلب من أصل فارسيّ، وسِل وپالمر يعتقدان في أنّ مُحَمَّداً أخذها من المجوس الفرس الذين اعتادوا على بدء كتبهم بالكلمات: «بسم أرحم الرّاحمين، الإله العادل».(3)

(1) يسمّيها المسلمون البسملة.

(2) The *Koran*, p. 19, n. 2.

(3) Sale's *Koran*, Prel. Disc., p. 45: Palmer's *Qur'an*, p. lxviii.

إنّ استفسارات شخصيّة من أصدقاء پارْسيّين في الهند أكّدت النّظرة المبسوطة في النّصّ.

الفصلُ الرّابع

المَلائكة

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ؛ لاَ يَفْتُرُونَ[1]﴾

إنّ الإيمان بوجود الْمَلاَئِكَة هو الرّكن الثّاني في عقيدة مُحَمَّد.[2] وجاء أنهم خُلقوا من نار،[3] وأنّهم ذوو أجسام طاهرة لطيفة، لا يجوعون ولا يعطشون، ليس لهم جنس.[4] وهم أيضاً بدون خطيئة.[5] ومنوط بهم التّسبيح بحمد اللّه وإطاعة أوامره؛[6] وهم يشفعون للبشر[7] ويتصرّفون بوصفهم ملائكتهم الحامية

(1) سورة الأنبياء: 20/21. قارن الرّؤْيَا: 8/4.

(2) تُذكر العقيدة الإسْلاَمِيّة عموماً في صيغة قصيرة. «لا إله إلاّ الله، مُحَمَّد رسول اللّه». إنّ مفردة «العقيدة» ترد هنا في معنى كلّ الإيمان، وهي تشير هنا إلى جميع أركان الإيمان في الإسْلام.

(3) سورة الأعراف: 12/7؛ سورة ص: 76/38.

(4) انظر مُحَمَّد البرقاويّ.

(5) سورة البقرة: 30/2.

(6) سورة البقرة: 30/2؛ سورة الرّعد: 13/13؛ سورة الشّورى: 5/42.

(7) سورة الأحزاب: 43/33؛ سورة غافر: 7/40؛ سورة مريم: 87/19.

على الأرض.[1]

ويتحدّث القرآن في مناسبات عدّة أنَّ حشداً من الْمَلاَئِكَة ساعد مُحَمَّداً وأتباعه في ميادين المعارك على الانتصار على أعدائهم.[2]

ورُوي أنّ ثمانية ملائكة يَحْمِلُونَ عَرْشَ اللّه.[3] وثمّة «كَاتِبان كريمان» لدى كلّ فرد، أحدهم ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾، والآخر ﴿عَنِ الشِّمَالِ﴾،[4] وإضافة إلى قيامهم بدور الحفظة فهم يقومون بتدوين كلّ أقواله وأفعاله.

وهناك «مستجوِبان» يُدعيان منكراً ونكيراً، ملاكان أسودان، يزوران كلّ من توفّي حديثاً، ويستجوبانه بصدد إيمانه بالإِسْلام.[5] فإذا كان جوابه مرضياً،

---

(1) سورة الأنعام: 61/6؛ سورة الرّعد: 11/13؛ سورة الانفطار: 10/82.

(2) لم يكن مع مُحَمَّدٍ في معركة بدرٍ (2 هـ) إلّا 319 تابعاً واستطاع بهم هزيمة ألف مكّيّ؛ سورة آل عمران: 13/2؛ سورة الأنفال: 9/8.

(3) سورة الحاقّة: 17/69؛ سورة غافر: 7/40. يبدو أنّ فكرة «الإحاطة» بعرش اللّه استُعيرت من إِشَعْيَاء (1/6)، وحِزْقِيَال (1/10) وكذلك من سِفْر الرّؤْيَا (6/4). لقد رآهم إِشَعْيَاء أعلى، وحِزْقِيَال أسفل عرش الرّبّ؛ ويُوحَنَّا رآهم «يحيطون حول» العرش.

(4) سورة الانفطار: 11/82ـ12؛ سورة الزّخرف: 80/43؛ سورة ق: 17/50، 18.

(5) يبسط المأثور الإسلاميّ اختبار القبر الذي يقوم به هذان الملكان بجلاءٍ، وبشكل غير مباشر أيضاً في الْقُرْآن. سورة غافر: (11/41) ﴿قَالُوا: رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ، وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ سورة مُحَمَّد (47/27)، حيث يُروى أنّ الآية تشير إلى زيارة هذين الملكين، اللّذين يعيدان الحياة للجثمان من أجل أن يجيب على الاستجواب في القبر. ويناقش الغزاليّ الموضوع في «إحياء علوم الدّين» (المجلّد الثّاني، ص 17 ـ 42) ويقول: «وهما شخصان مهيبان هائلان، يقعدان العبد في قبره سويّاً ذا روحٍ وجسدٍ فيسألانه عن التّوحيد والرّسالة، ويقولان له: مَنْ ربُّكَ ومَا دُينك ومن نبيّك؟»؛

يُسمح له بالرّقود بسلام؛ لكن إنْ لم يكن يؤمن برسول الله، فإنّ هذين الملكين سيضربانه بأداة معدنيّة، فيصرخ آلماً، ورُوي أنّ صوته سيسمعه الرّاقدون بالأضرحة المجاورة، ما عدا النّاس والجنّ.[1] ورُوي أيضاً أنّ ملكين يحضران لدى كلّ روح يوم الحساب، أوّلهما من أجل أن يسوقه، والثّاني للشّهادة ضدّه.[2]

والملاك الحارس للجنّة يُسمّى رضوان، ومالك هو رئيس التّسعة عشر ملاكاً الموكلين بأمر النّار.[3]

وثمّة أربعة رؤساء ملائكة، هم: جبريل،[4] ويُسمّى في القرآن روح

انظر (MacDonald's *Muslim Theology*, p. 305). إنّ هذه العقيدة شائعة لدى المسلمين حتّى يومنا، الذين يتركون مساحة كافية في قبورهم كي تنهض الأجسام لدى الاستجواب.

(1) البخاريّ، الذي تُعتبر مجموعة أحاديثه دقيقة تاريخيّاً، يروي لنا القصّة التّالية، بأنّه ذات مرّة قال محمدٌ إنّه سمع صراخ الكافرين في قبورهم، عندما كان يعبر المقبرة، وأنّ بعيره أصيب بالذّعر جرّاء عويلهم.

(2) سورة ق: 21/50.

(3) سورة الزّخرف: 77/43؛ سورة المدّثّر: 30/74.

(4) لقد ذُكر الملاك جبريل بالاسم في آيتين فحسب في القُرآن؛ سورة البقرة (97/2، 98)؛ وسورة التّحريم (4/66). لكن يُشار إليه في سورة البقرة (87/2، 253)؛ وفي سورة المائدة (110/5)؛ وفي سورة النّحل (102/16) باسم ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾، إنّ مُحَمَّداً يخلط ـ إمّا عن جهل أو عمداً جبريل مع روح القدس، لأنّ الاسمين يردان بشكل مترادف في القُرْآن. ويُشار إلى جبريل أيضاً في القُرْآن باسم ﴿الرّوحُ الأَمِينُ﴾ في سورة الشّعراء (193/26)؛ وباسم ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (سورة النّجم: 5/53)؛ و ﴿رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ (سورة التكوير: 91/81)؛ قارن سورة مريم (17/19)؛ سورة آل عمران (42/3). إنّ الفكرة القُرْآنيّة عن أنّ جبريل الرّوح القدس لم تكن غريبةً بالنّسبة

القدس، وربّما خلط معه؛ مِيكَالَ،[1] حامي اليهود؛ عزرائيل، ملك الموت؛[2] وإسرافيل،[3] الذي سينفخ في البوق في يوم الحساب.

ويوجد أيضاً، إِبْلِيس، الذي كان واحداً من ملائكة السّماء، بيد أنّه سقط بسبب رفضه لأمر اللّه أن يسجد لآدم، وفق حجّة أنّه خُلق من نار، وأنّه أرفع من آدم المخلوق من طين.[4]

ويذكر القرآن أيضاً اسمي هَارُوتَ وَمَارُوت، اللّذين كانا يعلّمان النّاس السّحر في بابل.[5] وبحسب المأثور الإِسْلاَمِيّ[6] سمح اللّه لهما بالنّزول إلى الأرض، ووُهبا ذات الرّغبات البشريّة من أجل اختبار إخلاصهما للّه، وقد

للأحبار اليهود، الذي فسّروا רוח פִסְקָנִית الرّوح المتحدّث بطلاقة، على أنّه جبريل (السّنهدرين، 44)؛ انظر (Geiger, *Was hat Mohammad aus dem Judenthume aufgenommen*, p. 82.).

(1) سورة البقرة: 98/2.

(2) سورة السّجدة: 11/32؛ سورة الأنعام: 61/6؛ سورة مُحَمَّد: 27/47.

(3) برقاويّ؛ انظر (Sell's *Faith of Islam*, pp. 226–27.). ثمّة حديث رواه أبو هريرة عن أنّ محمّداً قال: إنّه بعد أن خلق اللّه السّموات والأرض، خلق الصُّوَر أيضاً وأعطاه لإسرافيل، الذي ينتظر الأمر بالنّفخ فيه. سورة الزّمر (68/39)؛ سورة النّازعات (79/6 ـ 7).

(4) سورة الأعراف (11/7 ـ 12)؛ سورة الحجر (33/15)؛ سورة البقرة (34/2)؛ سورة الإسراء (61/17)؛ سورة الكهف (50/18)؛ سورة طه (116/20).

(5) سورة البقرة: 102/2.

(6) إنّ الأسطورة واردة في عرائس المجالس شرحاً على سورة البقرة (102/2). وتشهد مصنّفات الحديث الكثيرة على صحّتها، ويقبل المسلمون صحّة صدورها عن مُحَمَّد؛ انظر (*Sources of the Qur'an*, pp. 93–96.).

سقطا فعوُقبا بتعليقهما ورأساهما للأسفل على حائط في بابل.

وثمّة طبقة أخرى من الكائنات تُدعى الجنّ،[1] ورُوي أنّهم مخلوقون من نار مثل الْمَلاَئِكَة، لكنّهم يختلفون عنهم بكونهم يتناسلون، وأنّهم عرضةٌ للجوع والعطش، وللموت كذلك. وقد أُرسل مُحَمَّد «نذيراً» للجنّ مثلما بُعث للبشر، وقد أقرَّ بعضٌ منهم برسالته وأذعن لدين الإِسْلام.[2] ومن المعتقد أنّهم خُلقوا قبل زمن طويل من خلق آدم، وفي النّهاية أصبحوا خاضعين لسليمان.[3] ولمّا مُنعوا من الاقتراب من السّماء، اقتصروا على السّماء الدّنيا، حيث سعى إِبْلِيس، والْمَلاَئِكَة السّاقطون الآخرون إلى «اسْتَرَاقَ السَّمْع»[4] للاستماع إلى أوامر اللّه الموجّهة إلى الملائكة، وقد جاء أنّهم كانوا يُقذفون بالشّهب كي يبتعدوا.[5]

إنّ الجنّ الكافرين الذين شمل مُحَمَّد فيهم إِبْلِيس[6] وأتباعه سوف يُعاقبون في النّار خالدين فيها؛ في حين يُعتقد أنّ مؤمني الجنّ سيتحوّلون إلى غبار مثل خاتمة الحيوانات؛ وعلى أيّ حال، بعضهم يقول إنّهم سيتمتعون بجزء معيّن من السّعادة قرب الجنّة، ولكن ليس فيها.

---

(1) سورة الحجر: 27/15؛ سورة الرّحمن: 15/55. وبحسب المأثورات ثمّة خمسة أصناف متمايزة من الجنّ، هم: الجانّ، الجنّ، الشّيطان، العفريت، المارد.

(2) سورة الأحقاف: 29/46 ـ 30؛ سورة الجنّ: 1/72 ـ 2، 13 ـ 14، 19.

(3) سورة ص: 37/38.

(4) سورة الحجر: 18/15؛ سورة الصّافّات: 8/37، 10؛ سورة الملك: 5/67؛ سورة الجنّ: 9/72؛ انظر كامل السّورة (72)، المسمّاة سورة الجنّ.

(5) انظر إحالات الهامش السّابق.

(6) سورة الكهف: 50/18.

هذا هو الرّسم العامّ لمفهوم الْمَلاَئِكَة والشّياطين كما هو مبسوط في القرآن والتّقاليد الإِسْلاَمِيَة.

وفيما يخصّ مصادر هذه الاعتقادات، يمكننا القول بالعموم: إنّها اقتُبست بشكل مباشر من اليهود، وأضفيت عليها العقائد والخرافات المحلّيّة بدرجة ما، وبشكل غير مباشر من الزّرادشتيّين.

إنّ الإيمان بوجود الْمَلاَئِكَة كان عنصراً في العبادة العربيّة القديمة،[1] الذي أخذه العرب عن الفرس، ولا شكّ في أنّ مُحَمَّداً كان يؤمن مثلهم بهذه العقيدة. ويقول پولمِر: إنّه يمكن اقتفاء أثرها إلى كلدانيا.[2]

وقد آمن العرب بوجود الجنّ، وبالوسع أيضاً الرّجوع بهذه العقيدة إلى فارس.[3] إنّ المفردة (جنّيّ في صيغة المفرد) المستعملة في العربيّة هي فارسيّة أيضاً، جاءت من أڤِستية جِنّي، التي تعني روح (مؤنثة) شرّيرة.

بيد أنّ معالجةً أكثر تحديداً لمذهب الْمَلاَئِكَة القرآنيّ يبيّن أنّه كان مقتبساً في المقام الأوّل من اليهود الذي حصلوا عليه من الزّرادشتيّين.

---

(1) *Vide* Palmer's *Qur'an*, vol. i, Introduction, p. lxix.

(2) *idem*, p. xi.

(3) يُشار إليهم في الآڤِستا باسم نصف آلهة وآلاهات، ودايڤوييات (ويشير استعمال مفردة دايڤوييات التي جاءت من الكلمة الهنديّة देव دِڤا، وتشترك بالاستعمال مع الإله، إلى أصل آري). ياسنا: 19/1؛ 10/1؛ 34/5؛ الخ. ويقول رودويل إنَّ مُحَمَّداً استقى عقيدته بخصوص الجنّ من الميثولوجيّا الفارسيّة والهنديّة، انظر (*Koran*, p. 185, n. 2.)

انظر لاحقاً حول استعمال الهندوس والپارْسيين لمفردة (دِڤا) دايڤا.

لقد آمن اليهود بأنّ المَلاَئِكَةَ مخلوقة من نار[1] (الفكرة التي ربّما حصلوا عليها من المزمور 114)،[2] وكان لها وظائف أخرى، هي، الشّفاعة للبشر والوجود بقربهم بوصفهم أرواحاً تحمي الأرض.[3] وقد رأينا أنّ محمّداً قد أدمج كلاً من هذين الاعتقادين في القرآن.

إنّ الفكرة الأخيرة موجودة في الفصل الأوّل من الرّسالة إلى العِبْرَانيِّين: «أَلَيْسَ جَمِيعُهُمْ أَرْوَاحاً خَادِمَةً مُرْسَلَةً لِلْخِدْمَةِ لأَجْلِ الْعَتِيدِينَ أَنْ يَرِثُوا الْخَلاَصَ!».[4]

إنَّ نظريّة التّوسّط الملائكيّ كانت واحدة من عقائد الشّيع الغنوصيّة الهرطوقيّة في القرن الأوّل من الميلاد. ويوجد لدى اليهود أيضاً «أمير النّار» المشابه لـ «مالك» المُحَمَّديّ.[5] ويبدو أنّه اسم مقتبسٌ من الصّنم العموني، مولِخ أو مولوخ، إله النّار، الذي كان يُقدّم إليه الأضحيات البشريّة بالحرق. ويُذكر هذا الصّنم مراراً في كتب العهد القديم المقدّسة، وهو كان معروفاً جيّداً بالنّسبة لليهود؛ وإنّ الكلمة في العربيّة والعبريّة تعني «حاكم» أو «ملك».

إنَّ «امتحان القبر» بعد الموت فكرة يهوديّة أيضاً، وقد كان اليهود يؤمنون بأنّ ملاك الموت يختبر أرواح الموتى في القبور، ما عدا أولئك الذي يُتوفّون

---

(1) هَغيغا، الورقة 14أ («في كلّ يوم تُخلق ملائكة خادمة من بخار متّقدٍ»).

(2) اَلْمَزَامِير 4/114؛ قارن العِبْرَانيِّين: 7/1.

(3) هَغيغا، الورقة 14ب («الْمَلاَئِكَةَ الخادمة ترافقنا»)؛ انظر أيضاً بِراخوت (التّلمود البابليّ)، الورقة 14أ، العمود 2: («الْمَلاَئِكَةَ التي ترافقنا»).

(4) العِبْرَانيِّين: 14/1.

(5) يسمّيه الأحبار שר של גהינם (*Othioth*, Rabbi ʿAqiba, viii, i)؛ ومالك في التّقاليد المُحَمَّديّة (مشكاة، باب صفات النّار والأهلّة، القسم الثّاني).

مساء السّبت، أو الذين عاشوا في أرض إسرائيل.(1)

وذُكر في التّلمود كذلك ملاك حارس للجنّة، يتطابق مع رضوان المسلمين، وفي الأفِستا ثمّة بوّاب للجنّة يُسمّى ڤوهو ـ مانو.(2)

إنّ أسماء كبار الْمَلاَئِكَة الأربعة ومهمّاتهم مأخوذة من اليهود، وقد ورد اثنان من هذين الاسمين في كتب العهد القديم المقدّسة: جبريل، ملاك الوحي؛(3) ومِيكَال، حامي اليهود.(4) وقد سمّى المسلمون ملاك الموت عزرائيل، الذي أطلق اليهود عليه اسم صَمُوئِيل. وإذْ لم يرد أيّ من هذين الاسمين في الكتاب المقدّس،(5) فإن الرّوايتين اليهوديّة والإِسْلاَمِيّة بخصوص هذا الملاك الّلتين تتشابهان بشكل جليّ، هما على الأغلب استُمدّتا من فارس.

وثمّة في الأفِستا ملاك يدُعى أستو ـ ڤيدهوتوس(6) أو ڤيدهاتوس أو «مقطّع

(1) R. Elias, in *Tishbi.*

(2) *Vendidad, Farg.*, xix. 31 (102).

(3) دَانِيال: 16/8؛ 21/9؛ قارن لُوقَا: 1:19، 26. وعلى الأرجح لأنّ جبريل أُشير إليه في «الكتب» فإنّ مُحَمَّداً قال: إنّه الملاك الذي أرسله اللّه لينقل وحي الْقُرْآن.

(4) دَانِيال: 1/12.

(5) ورد اسم عزرائيل (עֲזְרָאֵל) في مدراش يالكوت (الفصل 44) على أنّه أحد الملكين في القصّة المماثلة لقصّة هاروت وماروت، الّلذين أُرسلا من السّماء لاختبار إخلاصهما حين الإقامة بين البشر. انظر لاحقاً.

(6) *Vendidad, Farg.*, v. 8 (25), 9 (31). ويقول دارمستتر إنّ «التّصاوير الميثولوجيّة» عن أستو ـ ڤيدهوتوس «ربّما تكون قد أكملت من جانب الحكايا الحبريّة وحكايا الجزيرة العربيّة حول انتهاك القبر والملكين منكر ونكير.» (*The Zend-Avesta*, vol. i. Intro. p. lxviii. n. 2). وفي الإشارة آنفاً (*Farg.*, v. 8, 9)، فإنّ أهورا مازدا يعلّم أنّه لا النّار ولا الماء يقتل الإنسان، لأنّ هذيْن العنصريْن يأتيان من الإله وينتميان إلى

العظام» الذي يفصل الرّوح عن الجسد، عندما ينتزعها ڤايا[1] المؤذي؛ وهي الفكرة الوثيقة الصّلة بأستو ـ ڤيدهوتوس، العفريت ڤيزا ـ رِشا، الذي ينزع روح الأشرار مصفّدين في القيود.[2] ومن ثمّ، فإنّ التّصوّر الإِسْلاَمِيّ لملاك الموت، كان على الأرجح قد جاء من المصادر المجوسيّة من خلال وسيط اليهود.[3]

يحتوي إنجيل برنابا المنحول على وصف لوظائف كبار الْمَلاَئِكَة مشابه لما يحتويه القرآن، بيد كون هذا العمل تزييفاً واضحاً، وكُتب بعد سنين من عهد مُحَمَّد، من قِبل مسيحيّ تحول إلى الإِسْلام، فإنّه لا يمكن اعتباره أحد مصادر العقيدة الإِسْلاَمِيّة.[4]

الجزء المقدّس من العالم. «قال أورمازد لا شيء ممّا خلقته، يضرّ الإنسان؛ إنّه ڤِي الشّرّير (انظر الملحوظة التّالية) هو الذي يقتل الإنسان».

(1) *Vend., idem*. «ڤايا» اسم الجو في الميثولوجيا الهندو ـ إيرانيّة، وكذلك يشير إلى الإله الذي يحارب ويسيطر في ذلك المكان.

في الميثولوجيا الأڤستيّة، إنّ «ڤايو»، هو المكان الذي يتقابل فيه الإلهان المتعارضان أو مبدآ الخير والشّرّ، أي أورمازد وأهريمان: ومن ثمّ، نشأت هناك فكرة ڤِي (المكان الفارغ) بينهما، حيث يجري لقاؤهما. وفيما بعد، جاءت فكرة ڤِيْن، صالح وطالح؛ وفي الختام يتأتّى القدر عن حركة «ڤايو» ومن خلال علاقاته بالسّموات، فأصبح في النّهاية القدر الطّيّب والقدر السّيّء. إنّ مفردة «ڤايو» (वायु) تُستعمل في اللّهجات الهنديّة المعاصرة لتعني: (1) الهواء أو الجوّ، الذي يشير إلى الصّلة التي وُجدت مرّة بين العرق الآريّ والسّاميّ؛ و (2) للرّيح المشخّصة كإله.

(2) *Vendidad*, xix. 29 (94).

(3) يشير التّلمود كثيراً إلى ملاك الموت؛ انظر (*Kethuboth*, fol. 77, col. 2; *Baba Metzia*, fol. 86, col. 1; *Baba Kama*, fol. 50, col. 2; *Baba Bathra*, fol. 17*a*.)

(4) يحتوي هذا الإنجيل على سيرة يَسُوع المسيح الكاملة، بيد أنّ كثيراً من الأحداث

في سِفر أخنوخ المنحول[1] أُعطيت أسماء ستّة ملائكة رؤساء، هم جبريل، ورافائيل، وأورئيل، وراجول، وميكال، وساراكييل.

يقول هورِگس، في مدوّناته (ص 80): «إنّ ذلك برهان إضافيّ على أنّ مُحَمَّداً عندما أفاد من المأثورات اليهوديّة، فإنّه استشهد بها أو تبنّاها بذات عدم الدّقّة عندما احتكم إلى كلمة الرّبّ المقدّسة».

إنّ قصّة القرآن بشأن سقوط إبْلِيس أو الشّيطان، تحمل علامات الأصل المسيحيّ. ومن الواضح أنّ مُحَمَّداً جاء بفكرته الخاطئة عن سقوط إبْلِيس من فهمه الخاطئ لما ورد في العِبرَانيِّين[2] عن الْمَلاَئِكَة التي تصلّي للمولود الأوّل، فاعتقد بأنّها تنطبق على آدم عوضاً عن المسيح.

إنَّ كلَّ السّور[3] التي فيها إشارات إلى إبْلِيس، (ما عدا واحدة: السّابعة، وهي على الأرجح مكّيّة متأخّرة) تعود إلى العهد المكّيّ المتوسّط، السّنة الخامسة والسّادسة للدّعوة، عندما كان مُحَمَّد على اتّصال طيّب مع المسيحيّين. وزيادة على ذلك، فإنّ اسم إبْلِيس (Διάβολος)، الذي يُستعمل في القرآن، هو الاسم المستعمل من جانب المسيحيّين، وليس الاسم العبريّ العامّ: الشّيطان

كُتبت لصالح الإسْلام. وقد أُخبر عن مُحَمَّد بالاسم بوصفه النّبيّ الآتي الذي سيتمّم شريعة يَسُوع. وقد لُقب مُحَمَّد أيضاً بالمسيح، وهو الاسم الذي أطلقه مُحَمَّد في القُرْآن على يَسُوع فحسب. ليس ثمّة أدنى شكّ بأنّ هذا العمل مزوّر.

(1) سِفْر أخنوخ، ترجمة لورنس رئيس الأساقفة، الفصل العشرون.

(2) العِبرَانيِّين: 6/1.

(3) سورة الحجر: 28/15 ـ 44؛ سورة الإسراء: 61/17 ـ 63؛ سورة الكهف: 50/18؛ سورة طه: 116/20 ـ 117؛ سورة ص: 71/38 ـ 86؛ سورة الأعراف: 11/7 ـ 19. إنّ هذه الأسطورة ترجع إلى ما في المدراش للحبر موسى.

(שָׂטָן).[1]

كذلك يتحدّث التّلمود (انظر أعلاه) عن الْمَلاَئِكَة وهي تؤدّي واجب التّقدير لآدم: «كان آدم جالساً في الجنّة، والْمَلاَئِكَة تحضّر له اللّحم والخمر البارد».[2]

إنّ فكرة «السّائق» و «الشّاهد» اللّذين يلازمان كلّ روح في يوم الحساب مأخوذة من عمل منحول أيضاً، يُدعى عهد إبراهيم[3] والذي قيل فيه: إنّ إبراهيم يرى ملاكيْن عنيفيْن يجرّان الأرواح أمام القاضي للمحاكمة. والتّلمود يشير أيضاً إلى ملكيْن يشهدان ضدّ رجل في يوم الحساب: «إنّ ملكيْ الخدمة، اللّذيْن يقودانه، يشهدان ضدّه» (هيغيغا، الورقة 16أ). من عهد إبراهيم أتت فكرة الملاكين الكاتبيْن[4] المذكورين في القرآن اللّذين يلازمان كلّ إنسان، الأوّل عن يمينه، والثّاني عن شماله من أجل تدوين كلّ كلمة يقولها وفعل يقوم به.[5] إنّ هذا العمل (عهد إبراهيم) لهو قديم جدّاً، وسوف يُشار إليه بتفصيل أوسع في الفصل السّادس.

فيما يتّصل بالجنّ أو العفاريت، فإنّ التّلمود يحتوي على إشارات كثيرة إليها في التّرجوم الثّاني (أو النّسخة الكلدانيّة من العهد القديم) على أَسْتِيرَ

---

(1) يقول رودويل (Koran, p. 341, n. 3): «من المحتمل أنّ المفردة العربيّة "بلس"، وتعني الشّخص الشّرّير، قد لعبت دوراً في التّأثير على مُحَمَّد في صوغ مفردة إِبْلِيس"».

(2) تلمود أبوث، الفصل الأوّل (الجمارا)؛ قارن السّنهدرين، الورقة 29.

(3) *The Testament of Abraham*, p.90.

(4) *Vide ante*, p. 34.

(5) *The Testament of Abraham*, p. 91.

الأوّل والثّاني، حيث ذُكرت الأصناف الأربعة من العفاريت الذين خضعوا لسلطة الملك سليمان.(1)

ورُوي أنّهم «يسمعون من وراء ستارٍ» لكي يحصلوا على معرفة بالأحداث المستقبليّة.(2)

وجاء أنّهم يشبهون الْمَلاَئِكَة في ثلاثة أشياء، ويشبهون البشر في ثلاثة أشياء. «مثل الْمَلاَئِكَة لديهم أجنحة؛ يطيرون مثل الْمَلاَئِكَة،... ويعرفون المستقبل مثلما تعرفه الْمَلاَئِكَة، ويختلفون، إنّهم يتعلّمون بالاستماع من خلف الحجاب إلى ما أوحي للملائكة في الدّاخل. وهم في ثلاث نواحٍ يشبهون البشر. فهم يأكلون ويشربون مثل البشر، وهم يتوالدون ويتكاثرون مثل البشر ومثل البشر يموتون».(3)

في المأثورات اليهوديّة، ثمّة نظير لأسطورة هاروت وماروت كما رُويت في القرآن والأحاديث، ومن الواضح أنّ مُحَمَّداً أخذها عن اليهود،(4) على الرّغم من أنّ للقصّة أصلاً مركّباً كما سنرى.

إنَّ مصدرَ مذهبي الْمَلاَئِكَة والعفاريت في القرآن لهو أكثر نأياً، فنحن نجد الزّرادشتيّين القدامى كانوا يؤمنون بواجبات الْمَلاَئِكَة، وكتابهم المقدّس،

---

(1) يفسّر التّلمود البابليّ الكلمات السّبعة الأخيرة في الْجَامِعَة: 8/2 (مُغَنِّينَ وَمُغَنِّيَاتٍ وَتَنَعُّمَاتِ بَنِي الْبَشَرِ سَيِّدَةً وَسَيِّدَاتٍ) بأنّها تشير إلى «العفاريت المذكّرة والعفاريت المؤنّثة».

(2) هغيغا، الورقة 16أ. القُرْآن، سورة الحجر: 18/15؛ سورة الصّافّات: 8/37؛ سورة الملك: 5/67.

(3) هغيغا، الورقة 16أ.

(4) واردة في مدراش يالكوت، الفصل 44.

الأڤِستا، حافل بالإشارات إليهم[1] ـ إمّا إلى ملائكة السّماء (المعروفة باسم أميشا ـ سپنتاس)، أو الماء،[2] أو الهواء.[3] وقد ورد ذكرهم بأسماء مختلفة، ولكن بوظائف متماثلة لتلك التي ذكرها اليهود، وأشار إليها القرآن أو التّقاليد الإسْلاَمِيّة: وقد أعطوا أسماءهم إلى أيّام الشّهر.[4]

في الڤِنديداه [Farg. xxii. 7 (22)]، ناريو ـ سانگها،[5] وهو صيغة أدهار (أتار)، ملاك النّار الذي يطابق مالكاً الإسْلاَمِيّ، هو رسول أو سفير إله الخير، أهورا مازدا، والذي يوازي جبريل، ملاك الوحي. بيد أنّ الميثولوجيا الپارْسية المتأخّرة، نسبت وظيفة الرّسالة إلى «سراوشا، المقدّس، شاهق البنية، العفريت المؤذي، المتكاثر الدّنيويّ»،[6] «أفضل حامٍ للفقراء»،[7] ملاك الطّاعة.

لقد لحظنا أنّ فكرة عزرائيل ملاك الموت، تمّ الحصول عليها بشكل مباشر

(1) يحتوي الياست، الثّاني، على ابتهالات وقرابين لها.

(2) *Sirozah* ii. 10; *Ormazd Yast*, 21; the whole of the *Aban Yast* (v) is devoted to ʿArdvi Sura Anahita, the great goddess of the waters.

(3) *Sirozah* ii. 22, 27.

(4) في الأڤِستا، تعني مفردة «سيروزاه» «ثلاثون يوماً» وهي اسم الصّلاة المؤلّفة من ثلاثين ابتهالاً موجّهة إلى إزدات مختلفة التي ترأس على ثلاثين يوماً للشّهر. ويقول دارمِستِتِر: «إنّ الفكرة الفعليّة لـ سيروزاه، وهي عزو كلّ من الثّلاثين يوماً إلى آلهات محدّدة، يبدو أنّها اقتُبست من السّاميّين؛ إنّ ألواحاً وُجدت في مكتبة أسوربنبال تحتوي على سيروزاه أشوريّة، وهي قائمة كاملة بأسماء الآلهة التي تشرف على الثّلاثين يوماً للشّهر». انظر: الأڤِستا، المجلّد الثّاني، ص 3.

(5) *Yasna* xvii. 11 (68, 69); *Sirozah* i. 9; ii. 9.

(6) *Sirozah* i. 17; ii. 17; *Yast* ii. 5; *Srosh Yast* (xi).

(7) *Srosh Yast* ii. 3.

من اليهود، بيد أنّ في أصلها الأبعد هي على الأرجح زرادشتيّة، ذلك أنّها تتطابق مع «مقسّم العظام» الأفِسْتيّة، الأستو ـ ڤيدهوتوسية، الذي يفصل الرّوح عن الجسد لدى الموت.

علينا أن نلحظ بهذا الصّدد من گاثاس أنّ التّجريدات أو الصّفات السّتّة[1] للكائن الأعلى (أهورا مازدا) في مذهب زارادشت حول الإله الذي بلورته الميثولوجيا البارْسيّة المتأخّرة أو شخصنتها في رؤساء الْمَلاَئِكَة تحت أسماء طبقة أمِيشا ـ سپنتاس (أمِشاسپَندس في البهلويّة)، أو «الذّوات الخالدة المقدّسة».[2] إنّ الإله أهورا مازدا، يُحصر في بعض الأحيان باسم أمِيشا ـ سپنتاس، وفي هاپتان ياست (الثّاني)، أو ياست أمِشاسپَندس السّبعة تُقدّم الابتهالات والأضاحي إليه بالاسم.[3]

(1) أي التّفكير الطّيّب (الأمثل)، الحقّ، السّيطرة، التّقوى، الرّفاه، الخلود (;Yasna xxxiv. 11 xlv. 10; xlvii. 1). انظر (Moulton's translation in *The Treasure of the Magi*). ويشير مولتون (ص 23 ـ 24) إلى «التّفكير الطّيّب يمكن أن يُستبدل بتفكيرك» (Ys. xlvi. 7)، إنّ صفة «التّفكير الطّيّب» لا يمكن فصلها عن الألوهيّة، ومن ثمّ، فإنّ هذه والتّجريدات الأخرى «ليست رؤساء الْمَلاَئِكَة إطلاقاً، بل صفات إلهيّة في أقنوم الإله». ويستدّل من ذلك بأنّ زرادشت «فهم الحقيقة العليا لوحدانيّة الرّبّ، بيد أنّه أدرك ـ الجهل الذي أفسد توحيد الإسْلام ـ أنّه يجب أن يوجد تعدّد داخل الطّبيعة الإلهيّة إذا ما كان للوحدانيّة أن تكون مذهباً مثمراً» (ص 24). إنّ هذا لهو صواب بشأن تصوّر زرادشت للرّبّ كما هو مبسوط في گاثاس الذي هو المصدر الموثوق الوحيد لمعرفة حياته وتعاليمه. بيد أنّ الكتابات الأفِسْتيّة المتأخّرة، كما أشار إلى ذلك مولتون نفسه، أضاعت المذهب الأصيل بشأن صفات الرّبّ الرّئيسة، واعتبرتها ببساطة رؤساء ملائكة؛ وهذا هو إيمان البارْسيّين الذي وجده الكاتب اليوم.

(2) *Vide* Moulton's *Treasure of the Magi*, p. 21; also p. 28 for the origin of the word *Spenta* (Holy or Beneficent).

(3) في الميثولوجيا الفارسيّة المتأخّرة إنّ أهورا مازدا لا يُدرج في أمِيشا ـ سپنتاس،

لقد ذُكر أعلاه أنّه فيما يتّصل بقصّة سقوط إبليس، فإن مُحَمَّداً كان أخذها من مصدر مسيحيّ؛ وثمّة أيضاً عنصر إغريقيّ في أسطورة سقوط إبليس من خلال رفضه لعبادة آدم لأنّه خُلق من نار وآدم من صلصال.

في كتاب الفيزياء لأرسطو اعتُبرت النّار أكثر العناصر شرفاً في الأرض، وتُوضع النّار في قمّة هرم العناصر، والأرض أدناه.[1] وقبل نشوء الإِسْلام، فإنّ فكر الإغريق كانت معروفة بدرجة أو بأخرى للعرب، ذلك أنّ الأَعْمَال الإغريقيّة الفلسفية تُرجمت إلى كلا اللّغتيْن: السّريانيّة والفارسيّة، وكان العرب على اتّصال بهما.

فيما يتّصل بأصل إبليس وخروجه من النّار كما تروي التّقاليد الإِسْلاَمِيّة،[2] فإنّ القصّة في سماتها العامّة زرادشتيّة (مزيج من ثنويّة الپارْسيّين وتوحيد المسلمين). وهي موجودة في عمل بهلويّ يُدعى بوندهانيشنيه[3] أو الخلق، الذي يعطي اسم أهريمان إلى الرّوح الشّرّير. إنّ الرّواية الواردة حول الرّوح الشّرّير في هذا العمل، والرّواية الموجودة في قصص الأنبياء للمسلمين، كلتاهما تتّفقان بجعله يقطن أوّل أمره في الظّلمة، ثمّ خرج إلى النّور بعد المعصية بألف سنة، حيث بدأ يعمل لتدمير مخلوقات الرّبّ.

إنّ الآفِستا غنيّة أيضاً بمذهب العفاريت،[4] ولا بدّ من أنّها مارست تأثيراً

وعوضاً عن ذلك يُعدّ شاروشا فيهم. انظر (Bleeck's *Avesta*, vol. ii. p. 29, n. 1.).

(1) *Vide The Early Development of Mohammedanism*, p. 206, by D. S. Margoliouth.

(2) قصص الأنبياء، ص 9.

(3) الفصلان الأوّل والثّاني، أهريمان، الرّوح الشّرّير، مشتقّ من أنرو مِنوس («العقل المهلك»)، وهو الاسم المعروف به في الآفِستا.

(4) *Vend. Farg.* xix. 43-47 (140-47)، نجد أنّ دايفوييات الشّرّيرة، أو العفاريت،

مهمّاً على اليهوديّة خلال وبعد النّفي إلى بابل، حيث كان اليهود على تماسّ مع المجوس.[1] ولا شك في أنّ يهوديّة ما بعد المنفى مختلفة بشكل حاسم عمّا قبل المنفى فيما يخصّ الإيمان بالشّرّير. ومن ثمّ، كان مُحَمَّد مديناً في النّهاية للفرس في مذهبه بصدد الجنّ، أو العفاريت، على الرّغم من أنّه قد نقل

تجتمع لدى بوّابة الجحيم من أجل أنْ تتدارس ميلاد زرادشت. وفي (*Farg*. iii. 32 (105); viii. 31, 32 (98, 102)): هنا فإنّ أرواح الأشرار القلقة التي اسْتُثنيت من الجنّة، هي العفاريت. اعتقدت نحلة المهابديّين الفارسيّة في أنّ روح شخص لم يقم ولم ينطق بأمر صالحٍ يصبح أهريماناً أو جنّاً (*Farg*. xix. 5 (16).).

Yast, ix. 4; x. 26, 128–132; xi. 4, 13; xii. 23; xiii. 33, 57, 89, 90 (في الإشارة الأخيرة إنّ كلمة أو قانون أهورا تدمر دايڤويات؛ xiv. 54–56; xv. 56; xix. 26–33.

تحفل الگاثاس أيضاً بالإشارات إلى دايڤويات؛ *Yasna*, xix 4; xxx. 6 (هنا «فإنّهم اختاروا التّفكير الأسوأ»). *Yasna*, xxxii. 3–5; xxxiv. 5; etc.

إنّ مفردة دايڤويات (سنسكريتيّ، *deva*، الآڤستا *Daeva*، في الّلاتينيّة *deus*، والتي ظهرت في مفردتنا *Tuesday* [الثلاثاء]) أشارت إلى الإلهة، أو «الذّوات السّماويّة» التي عُبدت من قبل الآريّين الذين كانت ديانتهم عبادة الطّبيعة، والموجودة في ريگ ڤِدا، أو كتاب الهندوس المقدّس. إنّ زورواستِر، وهو الّلفظ الإغريقيّ-الرّوماني لزرادشت، يبشّر بالتّوحيد الرّوحيّ الذي كان في مركز عبادة الكائن الأعلى الذي يُدعى أهورا مازدا، «الرّبّ الحكيم»، فجاء مصلحاً لأناس كانوا يعبدون هذه الآلهة التي تُدعى «دايڤايات». إنّ عُبّاد تلك الـ «دايڤايات»، وبعد تقديم قرابين لها، ينطلقون في غارة وحشيّة على رعاته المسالمين، وقد اعتبرت هذه الآلهة شياطين أو عفاريت اختارت «التّفكير الأسوأ» والتي تحرّض عابديها على «القيام بأسوأ الأشياء»؛ «إنّ الذين دفعت بهم (الدّايڤايات) للقيام بأسوأ الأشياء سوف يُدعون "محبّي دايڤايات"» (*Yasna* 4 .xxxii). ومن ثمّ، فإنّ زرادشت يفترض أنّ هذه الدّايڤايات آلهة، ومن هنا ففي منظومته، إنّ مفردة «دايڤا» تصبح مصطلحاً للعفريت أو الشّيطان.

(1) *Vide* Moulton, *The Treasure of the Magi*, p. 69.

أراءهم بصورة مباشرة من اليهود، كما رأينا، مصبوغة بدرجة ما بإيمان العرب في وجودها، هذا الإيمان الذي يمكن الرّجوع به إلى فارس أيضاً.(1)

إنّ أسطورة الملكيْن السّاقطيْن، هاروت وماروت التي رواها القرآن، وفصّلتها المأثورات الإسْلاَمِيّة، لهي مثيرة للاهتمام كونها من أصل مركّب! لقد ذكرنا للتّوّ، أنّ القصّة رُويت في المدراش وكانت أدمجت بشكل جليّ في القرآن والتّقاليد الإسْلاَمِيّة من مصادر يهوديّة، على الرّغم من أنّ الملكين الآثمين كانا يحملان اسمين آخرين.(2)

لقد ورد الاسمان في الأسطورة الأَرْمَنِيّة باسم هاروت وموروت، وهما ينطبقان على إلهيْن كان الأرمن يعبدونهما قبل أن يصبحوا مسيحيّين في القرن الثّالث أو الرّابع الميلاديّ، وكان يُعتقد في أنّهما يدعمان «إنتاجيّة وعائديّة الأرض».

في الآفِستا يظهر هاروت وماروت بوصفهما هاورڤاتات وأمِرتات، الصّفتان الخامسة والسّادسة لأهورا مازدا، اللّتان تشخّصهما «الآفِستا المتأخرة» بأنّهما رئيسا الرّسل أو رئيسا الْمَلاَئِكَة، الأمِشاس ـ باندات، أو «الخالدون الكرماء». ودائماً يرد ذكر هاورڤاتات وأمِرتات معاً في الآفِستا، كما هاروت وموروت في الأسطورة الأَرْمَنِيّة، وهما يمثّلان على التّوالي «الوفرة» أو «ازدهار الفصول» و «الخلود».(3)

---

(1) انظر أعلاه.

(2) يطلق المدراش يالكوت على الملكيْن الضّاليْن اسمي شِمازاي وعزائيل. وبحسب الأسطورة الإسْلاَمِيّة فإنّ عزرائيل (الذي يعتبرونه الآن ملك الموت) رافق هاروت وماروت إلى الأرض، وعاد إلى السّماء بدون أن يرتكب خطيئة.

(3) الآفِستا ياست، الثّاني، 3، 8؛ سيروزاه، الثّاني، 6، 7. في الفارسيّة المتأخّرة إنّ هاورڤاتات وأمِرتات يُحرّفان إلى خُرداد ومُرداد؛ سيروزاه، الثّاني، 6، 7.

إنّ المفردتيْن بالواقع آريّتيْن من ناحية الأصل (وهذا دليل آخر على أنّ الفرس والآريّين ينتمون إلى ذات الأسرة)،[1] ووردتا في السّنسكريتيّة باسم سارڤاتا[2] وأمريتا.

في الأسطورة الآريّة كانا نصفي إلهين يُصوّران بأنّهما يمنحان الخصب إلى الأرض. لقد كانا كائنين مقدّسين جاءا الأرض بناءً على أمر الإله، تماماً كما في الأسطورة المُحَمَّديّة؛ بيد أنّ مهمّتهما لم تقترن بالخطيئة.

إنّ مُحَمَّداً، أو مخبريه، خلطوا هذين الكائنين مع ملاكين ضالّين في التّقاليد اليهوديّة، جاءت أسماؤهما من الأسطورتين الأَرْمَنِيّة والفارسيّة، والتي كانت واضحة تماماً في الأصل، ومستقلّة عن اليهوديّة، على الرّغم من أنّ الأساطير تماثلت مع بعضها، وهذا ما دفع محمّداً لتصوّر أنّها واحدة وذاتها.

وزيادة على ذلك، ثمّة أسطورة مشابهة إلى حدّ ما في الميثولوجيا البابليّة، التي استقى اليهود منها بعض معالم القصّة.[3] إنّ اليهود في الواقع، كانوا مدينين إلى حدّ كبير للميثولوجيا البابليّة بمذهبهم المفصّل بشأن الْمَلاَئِكَة. ويقول د. مولتون «وينصّ التّلمود على أنّ اليهود أتوا بأسماء الْمَلاَئِكَة من بابل»، ويدوّن التّباين الواضح بين الملائكيّة قبل المنفى وتلك المفصّلة وذات التّراتبيّة الهرميّة في اليهوديّة المتأخّرة. إنّ هذا المذهب المحكم للملائكة والأرواح كان شيئاً جديداً بشكل بيّن، كما ظهر برفض الصّدوقيّين المحافظين له. ولست أرى سبباً مسبّقاً لرفض إمكانيّة أنّ التّأثير الفارسيّ (أي المجوسيّ)

---

(1) *Vide ante* p.39, n. 5, *et seq*. pp. 49, 94.

(2) ترد سارڤاتا باسم سارڤاتاتي في ريگ ڤيدا، وهو أقدم كتاب مقدّس لدى الهندوس.

(3) ثمّة كذلك قصّة مماثلة تُروى في المهابهاراتا، الملحمة الشّعريّة العظيمة للأدب السّنسكريتيّ.

قد شجّع نشوء مذهب الْمَلاَئِكَة شبه الإحيائيّة.[1]

في النّهاية وجدت أسطورة هاروت وماروت طريقها إلى المدراش، وأمدّت الأسطورة البابليّة بعض التّفاصيل، وقد أصبح مُحَمَّد مطّلعاً عليها من خلال مخبريه اليهود، فأقرّها في القرآن. وفيما بعد، فإنّ القصّة توسّعت في التّقاليد الإِسْلاَمِيّة. يقول تيسدال[2]: «من هنا، لدينا ظاهرة غريبة لظهور جنّيين آريّين بوصفهما لاعبين رئيسين على مسرح مقتبس من التّلمود في خطوطه الأساسيّة».

قصارى القول: إنّ أسطورة هاروت وماروت كما ترد في القرآن والرّوايات الإِسْلاَمِيّة، جاءت من المدراش، ونُقل الاسمان من الميثولوجيا الأَرْمَنِيّة والفارسيّة، وبعض معالم القصّة من البابليّين.

ولكوننا نعالج هنا التّأثير الزّرادشتيّ على الإِسْلام، فمن المناسب الإشارة إلى العذارى السّماويّات المسمّيات الحُور،[3] اللّواتي قال عنهنّ مُحَمَّد: إنّهنّ خُلقن من أجل المؤمنين كإحدى مكافآت الجنّة، وكذلك الغلمان،[4] أو الوِلْدَانُ المُخَلَّدُونَ، الذين يخدمون المؤمنين في الجنّة، وهذه لها مصدر زرادشتيّ، بيد إنّه يمكن تتبّعها إلى الميثولوجيا الهندوسيّة. وسوف يتمّ تناول هذه المسائل في فصل لاحق (السّابع)، والآن يكفي أن نشير إلى أنّ الحوريّات يتطابقن مع

---

(1) *Early Zoroastrianism*, J. H. Moulton, D.Litt., p. 323. خلال النّفي في بابل كان اليهود على اتّصال مع المجوس؛ انظر من قبل.

(2) *The Sources of the Qur'an*, p. 101.

(3) سورة الرّحمن: 56/55، 70، 72، 74؛ سورة الواقعة: 22/56، 23، 35-37؛ سورة النّبأ: 33/78.

(4) سورة الواقعة: 17/56، 18.

پريكات[1] في الآفِستا ـ تلك الحوريّات ذوات الجمال الفتّان اللّواتي يرفرفن بين السّماء والأرض.

إنّ الاسم العربيّ لتلك الكائنات ذو مصدر فارسيّ، وهو مشتقّ من البهلويّة هور، وهڤاره الأفِستيّة، وتعني «نور» أو «إشراق».[2]

لدى الهندوس إيمان ميثولوجيّ مشابه في أپساراسايات،[3] أو الحوريّات

---

(1) *Vend. Farg.*, i. 10; viii. 80 (246); xi. 12 (34); xix. 5 (18); xxi. 10 (25). *Fast* i. 10; iii. 5; iv. 4; v. 13, 26, 50; vi. 4; viii. 8, 12, 39, 44; x. 34, etc. *Yasna* xvi. 8.

إنّ الپريكات في الفارسيّة المعاصرة الپاريپات، أو الجنّيّات التي يؤمن بها الپارْسيون إلى اليوم. ويشير بليك إلى الجنّيّات «پاريكاني القدامى» اللّواتي يُعبدن إلى اليوم من قبل القوم القاطنين في وادي پيشين إلى الشّرق من سجستان (*Avesta* (Bleeck), vol. i. p. 10 n. **).

(2) بعضهم يشتقّ الكلمة من العربيّة التي تعني «العيون السّود» بيد أنّ من الرّاجح أنّ العرب لمّا أخذوا فكرة تلك العذارى المضيئات من الپارْسيّين؛ اتّخذوا كذلك مفردتهم التي تصفهم على نحو أفضل.

من الممتع لحظ أنّ الكاتب المُحَمَّديّ سيّد أمير عليّ في كتابه روح الإسْلام، ص 387، 394، يتحدّث عن «الإيمان الانتقائيّ لمُحَمَّد»، و «الأصل الزّرادشتيّ للحوريّات» و«صور النّار التّلموديّة».

(3) لقد ذُكرت أپساراسايات في المهابهاراتا والرّامايانا وفي كتب أدبيّة سنسكريتيّة أخرى. ثمّة عقيدة هنديّة فريدة مذكورة في ملحمة مانو في دهارماشاسترا (الكتاب السّابع، القسم 1. 89)، بأنّ المحاربين، الكشاترياتيين الذين يقتلون في ساحة المعركة «لا يحوّلون وجوههم»، بل يستقبلون كلّ جراحهم في الصّدر، يُنقلون إلى سماء إندرا من قبل الحوريّات السّماويّة، الأپساراسايات. وهذا مشابهة للعقيدة الإسْلاَمِيّة التي تقول: إنّ أولئك الذين يُقتلون في ساحة المعركة، لرفعة شأن الدّين، فإنّ لهم الجنّة، ويُستقبلون

السّماويّة، اللّواتي يُعتقد في أنّهنّ يسكنّ السّماء، أو स्वर्ग (سوارگا) سماء الإله إندرا. إنّ تلك العذارى السّماويّة للهندوس هي پريكات في الآڤستا وحوريّات القرآن. ومن ثمّ، بينما كان مُحَمَّد مديناً بشكل مباشر للپارْسيّين في فكرة «الحوريات العين»، فإنّ بالوسع تتبّع مصدرها إلى الميثولوجيا الهندوسيّة أيضاً، التي تشير أيضاً إلى الأصل المشترك لهذين العرقين.

لدى الغلمان، أو الوِلْدَان المُخَلَّدُونَ في الجنّة مصدر مماثل، فهم متماثلون مع گاندهارڤاس أو الموسيقيّين السّماويّين لسماء إندرا.

في الختام، ولأجل إجمال هذا القسم من بحثنا، فإنّه يتبيّن ممّا ورد أنّ الإيمان بالْمَلاَئِكَة والشّياطين في القرآن لم تكن من ابتكارات مُحَمَّد الخاصّة، بل نُقلت، جزئيّاً من العقائد والخرافات المحلّيّة؛ كما يمكن إرجاع بعض أجزاء تعاليمه إلى الميثولوجيا الأَرْمَنِيّة والبابليّة، وآخر إلى المصادر المسيحيّة، وبجزء واحد إلى الفكر الفلسفيّ الإغريقيّ، إلّا أنَّ العناصر الرّئيسة في مذهبه، كانت منقولة بشكل مباشر من المصادر اليهوديّة، ومن الزَّرادشتيّة في النّهاية.

هناك من جانب حوريّات الجنة. وتماماً مثل مقاتل راجپوت الذي هجر كلّ رجاء في الحياة، وذهب لحتفه بشجاعة، متلقّياً كلّ جروحه في الصّدر من أجل أن يحصل على جنّة إندرا، فإنّ مؤمنين مسلمين كثر، يستقبلون الموت بفرح في المعركة، لأنّهم يؤمنون بأنّ ذلك سبيلهم إلى الدّخول الفوريّ إلى الجنّة، وأنّ حوريّات الجنّة تنتظرهم بترحاب.

الفصلُ الخّامس

الكتب والأنبياء

﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.(1)﴾

يشكّل الإيمان بالكتب، أو الكتاب المقدّس، ركناً آخر من العقيدة الإِسْلاَمِيّة، ولكونه مرتبطاً بالأنبياء فسوف ندرسهما سويّاً في هذا الفصل.

تقول نظريّة الوحي القرآنيّ: إنّ اللّه في أوقات مختلفة من تاريخ العالم، أوحى بأمره في كتبه المنزلة إلى أنبياء مختلفين عبر جبريل رئيس الْمَلاَئِكَة، وإنّ كل وحي هو تصديق لما قبله. وثمّة إشارات مختلفة في القرآن إلى هذا الوحي أو الكتب، بيد أنّ الأبرز ذكراً التَّوْرَاة،(2) أو الكتب الخمسة، التي أُوحيت

(1) سورة البقرة: 136/2.

(2) سورة المائدة: 44/5؛ من الجليّ أنّ التَّوْرَاةَ تعني هنا كتب العهد القديم المقدّسة؛ وفي بعض الأحيان تشير إلى الكتب الخمسة فحسب. ويترجمها موير هنا بـ *Law*؛ (*Life of Mahomet*, ch. vii. p. 155, and n. 1). قارن سورة الأنبياء: 48/21؛ 105؛ في الآية الأخيرة تعني «الزّبور» الكتب الخمسة.

إلى موسى؛ والزّبور، أو اَلْمَزَامِير،[1] التي أُنزلت على داود؛ والإنجيل،[2] الذي أنزل على يَسُوع، الذي هو تصديق[3] التَّوْرَاة.

لقد قيل: إنّ القرآن أُنزل إلى مُحَمَّد، وإنّه نزل ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ[4]﴾. ولُقِّب في العربيّة بالْفُرْقَانَ،[5] وهي المفردة التي ترد مراراً في التّلمود، والتي اقتبسها مُحَمَّد من اليهود. وبها سُمّيت السّورة الخامسة والعشرون «الْفُرْقَانَ»، وجاءت في القرآن أيضاً وصفاً للكتب الخمسة.[6] ورُوي أنّه أُغلق باب الوحي بالقرآن، وأنّ مُحَمَّداً آخر المرسلين، ومن ثمّ ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّين[7]﴾، وهو بالنّسبة للمسلمين أعظمهم جميعاً.

إضافة إلى تلك الكتب، فإنّ المسلمين يؤمنون بأنّ ثمّة مئة سِفْرٍ مقدّس آخر أُنزلت على أنبياء آخرين مختلفين: عشرة إلى آدم، وخمسون إلى شيث،

---

(1) سورة الإسراء: 55/17؛ سورة الأنبياء: 105/21.

(2) سورة المائدة: 46/5؛ سورة الحديد: 27/57.

(3) سورة المائدة: 46/5. إنّ مفردة الإنجِيل التي يوردها مُحَمَّد في القُرْآن تعني العهد الجديد، أو شريعة الكتب المقدّسة، كانت قيد التّداول بين مسيحيّي زمنه.

(4) سورة المائدة: 48/5؛ سورة البقرة: 89/2؛ 91.

(5) سورة آل عمران: 4/3؛ سورة الفرقان: 1/25. (السّابقة «ال» هي أداة تعريف). وتنقسم المصادر بشأن معنى مفردة «فُرْقَان»، فيقول رودويل (The Koran, p. 154, n. 2) إنّها تعني النّجاة، التّحرّر، مثلما ورد سورة الأنفال: 29/8، 41؛ ومن ثمّ الإنارة. والتّفسير الشّائع هو الفصل (بين الخير والشّر). ويقول سِل (The Koran, Prel. Discourse, sect. iii. pp. 43, 44)، إنّ المفردة تُستعمل للإشارة إلى قسم أو جزء من الكتب المقدّسة، تماماً كما يستعمل اليهود مفردة بِرِك أو بيركا، وهي من ذات الجذر.

(6) سورة الأنبياء: 48/21.

(7) سورة الأحزاب: 40/33.

وثلاثون إلى إلياس، وعشرة إلى إبراهيم.(1) وتلك الكتب تُدعى صُحف بالتّمييز عن تلك الأربعة المذكورة من قبل والمُسمّاة كُتب، وقيل: إنّها ضاعت. ولا يُعدّ الضّياع أمراً خطيراً إذ من المفترض أنّ القرآن يحتوي على كلّ ما يجب معرفته حولها، كما إنّه يُعتقد في أنّه يحتوي جوهر التّوْرَاة والزّبور والإنجيل.

لقد كان مُحَمَّدٌ ينظر ويذكر الكتب اليهوديّة والمسيحيّة بتوقير، وكثيراً ما احتكم إليها، لا سيّما في مستهلّ ـ أو العهد الباكر من ـ دعوته، من أجل تصديق الآيات القرآنيّة. وبالفعل على مدى طويل، كان يأمل بنيل اعتراف اليهود بوصفه نبيّ اللّه، فشهد بأنّ قرآنه يحتوي ببساطة على تحقيق ما في الكتب اليهوديّة والمسيحيّة، وأنّ عليهم أن يجدوا فيه ﴿النّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ الموصوف.(2) وحتّى ذلك الوقت، لم يدَّع مُحَمَّدٌ قطّ أنّه صاحب دين جديد،(3) ولم يغرس في الذّهن الإكراه في اتّباع أيّ صيغة دينيّة.(4) بيد أنّه لمّا باءت توقّعاته بالفشل برفض اليهود لدعاويه، وعندما وجد أنّه يمكن تدبّر أمره بدون عونهم، رغم أنّه في البدء قد قدّموا له يد المساعدة، فإنّه تحوّل ضدّهم بضراوة، فأعلن أنّهم «حرّفوا الكتب»(5) بقراءة ما ليس فيها، وإخفاء تلك التي تتضمّن إشارة إليه والتي تدعم دعاويه؛(6) وزيادة على ذلك، لمّا وجد أنّه لا الوعود ولا التّهديدات

(1) ينظر القُرْآن إلى بعض من ندعوهم آباء أنّهم أنبياء.

(2) سورة الأعراف: 157/7؛ قارن: سورة الصّف: 6/61.

(3) انظر الفصل الثّاني.

(4) سورة البقرة: 256/2.

(5) سورة آل عمران: 78/3. لم يتّهم مُحَمَّدٌ اليهود والمسيحيّين بالتّحريف، أو تغيير نصّ كتبهم المقدّسة، بل بإساءة تفسيرها، وكتمان أو إخفاء تلك الآيات التي تشير إليه؛ انظر أيضاً سورة المائدة: 13/5، 15.

(6) سورة المائدة: 15/5.

يمكن أن تبدّل موقفهم منه، فإنّه أظهر في نهاية المطاف تعصّب عقيدته عبر سحقهم مرسلاً بعضهم إلى المنفى ومعملاً السّيف في آخرين.

فيما يتّصل الآن بالمصدر الذي اكتسب منه مُحَمَّد فكرته عن الكتب، يمكننا أن نلحظ، أوّلاً، أنّ الصّابئة الذين اعترف مُحَمَّد بأنّهم مساوون لليهود والمسيحيّين،[1] كانوا يحوزون على عدّة كتب تُعزى إلى أنبياء ما قبل الطّوفان. وأحد كُتبهم كان يُسمّى سِفْر شيث، وهو عمل منسوب إلى شيث الذي قيل: إنّه كان مع إلياس مؤسّس دينهما.

إنّ الفكر الدّينيّة لهذه الملّة ومحتويات سِفْر شيث كانت معروفة لعرب عهد مُحَمَّد، كما إنّ عدّة شعائر دينيّة إسلاميّة متماثلة مع شعائر الصّابئة،[2] ولهذا لا يسعنا إلّا أن نستنتج أنّ مُحَمَّداً كان مديناً إلى هذه الملّة شبه المسيحيّة على بعض من طقوس منظومته الدّينيّة. ويُشار إلى سِفْر آدم في التّلمود (بابا مِتزيا،

(1) سورة البقرة: 62/2؛ سورة المائدة: 69/5. انظر مسبّقاً. بوسعنا أيضاً لحظ أنّ معرفتنا بهذه الملّة محدودة بدرجة ما وغامضة. وذُكرت سبا وشَبَا عدّة مرّات في الكتب المقدّسة. التّكْوين: 10/7، 28؛ 25/3. وذكرت سبا مع إثيوبيا ومصر، في إشعيا: 43/3؛ وفي إشعيا: 45/14. إنّ السّبئيّين ذُكروا مجدّداً مع إثيوبيا، والتي تمنح دعماً لرأي جيزنوس بأنّ شَبَا كانت «إقليماً في إثيوبيا». ويعتقد كيل ودِليتش في أنّه يجب البحث عن سلالات راماه، وشبا، ودِدن «في جوار الخليج الفارسيّ». إنّ مملكة شبا ذُكرت في الملوك الأوّل: 10/1؛ أيّوب: 6/19؛ اَلْمَزَامِير: 72/10، (15)؛ إشعيا: 9/6؛ إِرْمِيَا:6/20؛ حِزْقِيَال: 27/22، 23؛ 38/13. ويبدو أنّ الجزيرة العربيّة كانت مستقرّ هذه المملكة (قارن إِرْمِيَا: 25/24). ثمّة مملكة في الجزيرة العربيّة ذُكرت بهذا الاسم في الكتابات الكلاسيكيّة والشّرقيّة، ويبدو أنّها تتطابق مع اليمن.

(2) على سبيل المثال أوقات الصّلاة الخمسة التي تتطابق مع صلاة المسلمين. وكذلك فهم يصومون ثلاثين يوماً كما يفعل المسلمون خلال رمضان [سورة البقرة: 185/2]. وهم يجلّون الكعبة أيضاً. أبو الفضل، المختصر في أخبار البشر، ص 148. انظر مسبّقاً.

الورقة 85ب): «قال صَمُوئيل... رأيته مكتوباً في سِفْر آدم». ويقال: إنّ سِفْر آدم هذا تُرِكَ إلى شيث، وصار إحدى موروثات اليهود النّفيسة، وإنّه لم يعد موجوداً الآن. قارن عباده زاراه، الورقة 5أ؛ السّهندرين، الورقة، 38ب؛ التّكْوين: 1/5.

بدون أدنى شكّ، كان مُحَمَّد ملمّاً بكتب الصّابئة، ومن الواضح حتّى من الدّراسة الظّاهريّة للقرآن أنّه أخذ هذا الرّكن المميّز لعقيدته بشكل رئيس من المصادر اليهوديّة والمسيحيّة. وكما سنرى بعد قليل؛ فإنّه حصل من ذات المصدر على تصوّره للأنبياء.

لقد ذكر مُحَمَّد مراراً في القرآن ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ[1]﴾، وهذا ﴿الْكِتَاب﴾. ومن الكتابات المقدّسة التي كان يؤمن بها بشكل مطلق، وقَبِلَها على أنّها وحي من الإله والتي أشار إليها في القرآن، هي التَّوْرَاة، والزّبور، والإنجيل، وهذه كتب اليهود والمسيحيّين المقدّسة، ولا يمكن أن يكون موضع شكّ أنّ فكرته، وادّعائه بإلهيّة القرآن؛ نشأت عن الاتّصال مع اليهود والمسيحيّين، ومعرفته بأنّهم يؤمنون بإلهيّة كتبهم.

في سورة الأعلى (18/87ـ 19)، يشير مُحَمَّد إلى سِفْر إبراهيم: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ وهو في هذا يتّبع الأحبار الذين يعزون سِفْرِ يَاشَرَ إلى إبراهيم.[2] «هُوَذَا ذَلِكَ مَكْتُوبٌ فِي سِفرِ يَاشَرَ» (صَمُوئِيل الثاني، 1. 18).

ما سِفْرُ يَاشَرَ؟

إنّ الحبر تشيا بار أبا، المعروف باسم الحبر يوحنان، يقول: إنّه سِفْر

---

(1) سورة آل عمران: 64/3، 65، 69 ـ 72، 75.

(2) Fabr. *Cod. Apoc.* V. T., p. 349.

إبراهيم.... وإنّه لحقّ أنّ مُحَمَّداً مدين بالكثير لليهود بقسم عظيم من تعاليمه بشأن هذا الموضوع وموضوعات أخرى، بحيث إنّ القرآن وُصف بأنّه خلاصة لليهوديّة التّلموديّة.

وصلنا الآن إلى نقطة النّظر إلى «الأنبياء» والذي يُطلق على السّورة الحادية والعشرين في القرآن (سورة الأنبياء).

لقد ذكر القرآن خمساً وعشرين اسماً، وهو، على كلّ حال، لا يميّز[1] بين الأنبياء والآباء، وفي بعض الأمثلة، فإنّه يغير أسماءهم الكتابيّة؛ فمثلاً اسم إدْرِيسَ[2] بدلًا من إلياس، وهُود[3] بدلًا من حَابِرَ، وشُعَيْبٌ[4] بدلًا من يثرو، وذو النّون[5] بدلًا من يُوحَنَّا، وذو الْكِفْلِ[6] بدلًا من نبيّ آخر من العهد القديم. ويقرّ القرآن أسماء أنبياء آخرين لم يرد ذكرهم في الكتب اليهوديّة والمسيحيّة، على سبيل المثال لُقْمَانَ الحكيم،[7] والذي سُمّيت به السّورة الحادية والثّلاثين، والذي يُعتقد في أنّه أيسوب؛ وذو الْقَرْنَيْنِ،[8] الذي يمثّل الإسكندر الأكبر؛

(1) إنّ هذا عُرف يهوديّ أيضاً، لقد أُعتبر حَابِرَ نبيّاً من قبل اليهود (*Seder Olam*., p. 2). انظر أيضاً: (Josephus, *Ant.* L. I., ch. 2).

(2) سورة مريم: 56/19؛ سورة الأنبياء: 85/21.

(3) سورة الأعراف: 65/7؛ سورة هود: 50/11؛ سورة الشّعراء: 124/26. انظر: (Geiger's *Was hat Mohammed aus dean Judentume aufgenommen*, pp. 113–20).

(4) سورة الشّعراء: 177/26.

(5) أي صاحب السّمكة. سورة الأنبياء: 87/21.

(6) سورة الأنبياء: 85/21.

(7) سورة لقمان: 12/31.

(8) سورة الكهف: 83/18. (قارن دَانيال: 8).

وصالح،[1] الذي أُرسل إلى أهل ثَمُودَ، والذي يبدو أنّه كان نبيّاً من بنات خيال مُحَمَّد الخاصّ.

إنّ التّراث الإِسْلاَمِيّ يضاعف بشكل كبير عدد الأنبياء الذين ظهروا في العالم في مختلف الأزمنة؛ وإحدى الرّوايات تعطي رقم 124.000 وأخرى تقول: 224.000.

ويرد في القرآن ذكر أسماء ستّة أنبياء بألقاب خاصّة لهم، وهذا ما يجعلهم متفوّقين على الأنبياء الآخرين. لقد كانوا رؤساء شرائعهم الخاصّة، وسنّوا قوانين ومؤسّسات جديدة للأقوام التي أرسلوا إليها. وهؤلاء الأنبياء السّتّة هم: آدم، «صفيّ اللّه»؛[2] ونوح «نبيّ اللّه»؛[3] وإبراهيم «خليل اللّه»؛[4] وموسى «كليم اللّه»؛[5] ويَسُوع «روح اللّه»؛[6] ومُحَمَّد «رسول اللّه».[7] وقد رُوي أنّ آدم كان أوّل الأنبياء، وأنّ مُحَمَّداً آخرهم، ومن هنا، فإنّ القرآن يطلق عليه صفة

---

(1) سورة هود: 61/11.

(2) سورة طه: 120/20. [وردت عبارة الاصطفاء: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ سورة آل عمران: 33/3) ـ م.]

(3) سورة نوح: 1/71، 2، 5.

(4) سورة النّساء: 125/4؛ «واتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً»، ولهذا يقول المسلمون «إبراهيم خليل اللّه»، مثل ما جاء في كتب العهد القديم (إِشَعْيَاء: 8/41).

(5) سورة مريم: 52/19؛ سورة طه: 11/20 ـ 48.

(6) سورة النّساء: 171/4؛ سورة آل عمران: 45/3. في هذه الآيات يُسمَّى يَسُوع كلمة اللّه (بالتّعريف، وليس بالتّنكير) ـ ﴿الْمَسِيحُ﴾، زيادة على ذلك فإنّ مُحَمَّداً يرفض في هذه الآية (سورة النّساء:171/4) ألوهيّته.

(7) سورة الأحزاب: 45/33.

﴿خَاتَمَ النَّبِيِّين[1]﴾. وتعزو المأثورات حديثاً لمُحَمَّد يقول: «لا نبيّ بعدي».

لدى البحث عن مصادر تعاليم مُحَمَّد بخصوص الأنبياء من الواضح كما ذُكر أعلاه، أنّه حاز على أسماء الأنبياء الرّئيسين من اليهود والمسيحيّين، تماماً مثلما كوّن فكرته عن الكتب المقدّسة من ذات المصدر، وإنّ الألقاب الخاصّة الممنوحة لهؤلاء الأنبياء تشير بوضوح إلى ذلك، فعلى سبيل المثال، إبراهيم «خليل اللّه»، ونوح «نذير (أو نبيّ) اللّه»؛ وموسى «كليم اللّه»، ويَسُوع «كلمة اللّه»؛ «وَرُوحٌ من اللّه».[2]

إنّ ميلاد يَسُوع البتوليّ عقيدة قرآنيّة أيضاً،[3] وألوهيّته،[4] لكونه كلمة اللّه، أو الكلمة المنبثقة من اللّه، أمر متضمّن في القرآن على الرّغم من أنّه مرفوض باللّفظ. ولا يمكن أن يكون مُحَمَّدٌ قد ألمَّ بهذه الحقائق العظيمة إلّا من الكتب

---

(1) سورة الأحزاب: 40/33. ويقول الفضليّ: «إنّ اللّه خصَّ نبيّنا بأنّه خاتم النّبيّين».

(2) يرد مصطلح «روح اللّه» مراراً في كتب العهد القديم، وإذ لم يستوعب مُحَمَّد قطّ معنى الطّرف الثّالث في التّثليث، فإنّه كان من الطّبيعيّ أن يطبّق هذا المصطلح على أقنوم يَسُوع.

ومن الواجب لحظ أنّ مُحَمَّداً وفقاً لمنهجه في الانتحال الذي لا يعيد قطّ ذات العبارة الخاصّة لأيّ شيء سمعه، فإنّه بدّل التّعابير الكتابيّة بعض الشّيء من أجل أن يسبغ عليها مظهر الأصالة.

[وردت الإشارة إلى يَسُوع روح من اللّه في سورة النّساء: 171/4؛ سورة التّحريم: 12/66 ـ م.].

(3) سورة مريم: 20/19 ـ 22؛ سورة الأنبياء: 91/21؛ سورة التّحريم: 12/66؛ قارن: سورة آل عمران: 59/3، حيث جاء: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى... كَمَثَلِ آدَمَ﴾ أي إنّ كليهما ليس له أب بشريّ، مثل ما شرحها عبّاس والجلالين.

(4) سورة آل عمران: 45/3، 47؛ سورة النّساء: 171/4؛ سورة الأعراف: 190/7.

المسيحيّة المقدّسة فحسب، أو من أشخاص مطّلعين على الكتب.

زيادة على ذلك، فعلى الرّغم من أنّه يُفترض أنّ كلّ الأنبياء كانوا غير خاطئين ـ الاعتقاد الذي وجدته سائداً اليوم بين المسلمين ـ فإنّ الذّنوب أو الخطايا التي ارتكبوها الواردة في القرآن،[1] لا يمكن أن يطّلع عليها مُحَمَّد إلّا من خلال رواته اليهود أو المسيحيّين.

في سور قرآنيّة مختلفة يُعزى إلى مُحَمَّد الخطيئة أيضاً. ويُشار إلى «خطاياه الباكرة والمتأخّرة» في سورة الفتح (2/48)؛ وفي سورة غافر (55/40)؛ وفي سورة مُحَمَّد (19/47) أمر ﴿اسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾.[2]

على أيّ حال، من الجدير لحظ حقيقة أنّ القرآن يتحدّث عن المعصوميّة والضّعف الأخلاقيّ للأنبياء، في حين يُعدّ يَسُوع الوحيد الذي بلا خطيئة.[3] فليس في القرآن من آية تنسب إلى يَسُوع خطيئة، وليس ثمّة من ظلّ إيحاء بأنّه كان يجب، مثل مُحَمَّد، أن يسأل الغفران لنفسه. وإنّ فكرة الحمل الطّاهر لربّنا

---

(1) وردت خطيئة آدم في سورة البقرة: 36/2؛ وسورة الأعراف: 19/7 ـ 22؛ وسورة هود:47/11؛ وسورة نوح: 28/71؛ وسورة إبراهيم، وسورة الشّعراء: 82/26؛ وموسى في سورة القصص: 15/28 ـ 16.

(2) ثمّة تفاسير مختلفة لهذه الآيات أوردها الكتّاب المسلمون الذين سعوا إلى تفسيرها باتّجاه آخر، وإلى التّأكيد بأنّ مُحَمَّداً لم يرتكب خطيئة.

(3) إنّ يَسُوع هو النّبيّ الوحيد الذي يُدعى في القُرْآن «كلمة اللّه»، و ﴿رُوحٌ مِّنْهُ﴾، وبذلك أكّد مُحَمَّدٌ أنّ يَسُوع «تعبير الواحد لإرادة اللّه»، وأعلن في ذات الوقت طهارته المطلقة. كما كنت أسمع لدى العظات في أسواق وقُرى كوجارات وكاثياور، عبارة: «عيس النّبيّ، نبيّ الإسْلام الطاهر»، وفقط اليوم يقدّم لي مسؤولٌ مُحَمَّديٌّ رفيع اعترافاً مماثلاً حول ربّنا، والذي يقرنه طبيعيّاً مع اسم مُحَمَّد.

يؤمن المسلمين بأنّ جميع الأنبياء أقرّوا، ودرسوا ديانة الإسْلام.

لا يمكن أن تُكتسب إلّا من مصادر مسيحيّة. ومن ثمّ، إنّ الحمل الإعجازيّ وطهارة يَسُوع عقيدتان يعلمهما القرآن؛ وألوهيّته على الرّغم من أنّها مرفوضة ظاهريّاً، فإنّها على الأقلّ متضمّنة لفظيّاً، وعلى الأرجح لم يفهم مُحَمَّد دلالة مصطلح «كلمة اللّه».

لكن بينما يتضمّن القرآن لفظيّاً مذهب ألوهيّة المسيح، فإنّ هذه العقيدة لا تتوافق مع منظومة مُحَمَّد الإسْلاَمِيّة، وهو ينكرها عبر رفضه للثّالوث، الذي آمن عن جهل، أو تعمد فهمه بشكل خاطئ، أنّه يتكّون من الإله، مريم، ويَسُوع.[1] فإذا كان من خلال الجهل قد شكّلَ مُحَمَّدٌ تصوّره الخاطئ عن الثّالوث، فربّما بالإمكان تعليل ضلال محمّد الجسيم كما هو مبسوط في القرآن إلى الفكرة المحرّفة للمسيحيّة التي كانت موجودة في الجزيرة العربيّة في عصر مُحَمَّد، أو إلى النّظرة المشوّهة إلى المسيحيّة التي حاز عليها في رحلاته التّجاريّة إلى سوريّا.

كما نفى مُحَمَّدٌ البنوّة الإلهيّة ليَسُوع،[2] ورفض لقب «ابن اللّه»، وقد استعمل دائماً في القرآن ﴿ابْنَ مَرْيَمَ[3]﴾. و﴿الْمَسِيحُ، عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، رَسُولُ

(1) سورة النّساء: 171/4؛ سورة المائدة: 73/5، 75، 116؛ لم يكن مُحَمَّدٌ أوّلَ من رفض ألوهيّة يَسُوع. إنّ كورينتوس، والإبيونيّين في عهد المسيحيّة الباكرة، وفيما بعد، آريوس، وبرولوس أسقف بسطرة في الجزيرة العربيّة، كلّهم رفضوا طبيعة يَسُوع الإلهيّة. كما كانت الأريانيّة الهرطوقيّة قد نشرتها في شبه الجزيرة قبل زمن مُحَمَّدٍ.

(2) سورة النّساء: 171/4؛ سورة التّوبة: 30/9؛ سورة مريم: 35/19؛ سورة الفرقان: 2/25؛ سورة الكهف: 4/18 ـ 5.

(3) سورة النّساء: 157/4، 171؛ سورة التّوبة: 31/9؛ سورة مريم: 34/19؛ سورة الزّخرف: 57/43.

اللّهِ وَكَلِمَتُه[1]﴾ «ما يَسُوع إلاّ عَبْد[2]»؛ وقد قال يَسُوع الصّبيّ فِي الْمَهْدِ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً[3]﴾، والمسيحيّون يقولون: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ... يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ... أَنَّى يُؤْفَكُونَ![4]﴾. هذه هي العبارات التي استعملها مُحَمَّدٌ لدى الإشارة إلى يَسُوع في معرض إنكاره لبنوّته الإلهيّة.

لقد ذُكر أعلاه، أنّ الحالة الفاسدة للمسيحيّة، كما تبدّت لمُحَمَّد، مسؤولة عن رفضه لألوهيّة يَسُوع، وتصوّره الخاطئ عن مذهب الثّالوث. إنّ رفضه لبنوّة يَسُوع الإلهيّة يجب أنْ يُعزى لذات السّبب أيضاً. إنّ كاتباً إغريقيّاً في كتابه تاريخ استشهاد أثاناسيوس الفارسيّ،[5] يصوّر الانحراف الأخلاقيّ لمسيحيّي فلسطين في عهد مُحَمَّد. ويتحدّث موشيم[6] أيضاً عن الانحطاط الرّوحيّ ـ خرافة ووثنيّة مسيحيّي القرن السّابع الميلاديّ. وفي رواية ابن إسحاق عن وفد نجران المسيحيّ إلى مُحَمَّد في المدينة في سنة 632 م، يقول: «وهم من النّصرانيّة على دين المَلك مع اختلاف من أمرهم، يقولون: هو اللّه، ويقولون: هو ولد اللّهِ، ويقولون: هو ثالث ثلاثة. وكذلك قول النّصرانيّة». إنّ هذه الصّورة المشوّهة للعقيدة المسيحيّة، لا يمكن إلّا أن تكون بغيضة لعقل مُحَمَّد التّوحيديّ، ولم يكن مستغرباً أنّه رفضها، على الرّغم من أنّه ليس بوسعنا إلّا أن نأسف، لأنّه لدى «نزعه القشرة، فإنّه رمى بالنّواة أيضاً»! وفي معرض إشارة

(1) سورة النّساء: 171/4.

(2) سورة الزّخرف: 59/43؛ سورة مريم: 30/19؛ سورة النّساء: 172/4,

(3) سورة مريم: 29/19ـ30.

(4) سورة التّوبة: 30/9.

(5) *Acta Martyrii S. Athanasii Persae*, p. 2.

(6) 4 Pt. II, cap. iii. s. 1 (ed. Reid).

السّير دبليو موير إلى هذه القضيّة، كتب في مؤلّفه حياة مُحَمَّد (ص 22): «بكل تأكيد، فإنّ هذه التّجديفات المغالية دفعت مُحَمَّداً بعيداً عن المذهب الصّحيح حول يَسُوع بوصفه ـ ابن اللّه ـ وساقته لاعتباره ـ ابن مريم ـ فحسب».

من الواضح أنّ الكثير من تعاليم مُحَمَّد حول أقنوم المسيح مأخوذة من المصادر المنحولة.

يقول القرآن عن البشارة: إنّ الملاك قال لمريم: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ[1]﴾؛ وبحسب سورة مريم (30/19)، فإنّ الطّفل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ، آتَانِيَ الْكِتَابَ، وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾. وهذه هي إحدى الأقاصيص المأخوذة من إنجيل الطّفوليّة المنحول،[2] حيث يقول يَسُوع الطّفل، وهو في المهد متحدّثاً إلى أمّه: «حقّاً، أنا يَسُوع ابن اللّه، الكلمة التي أنجبتها... ولقد أرسلني أبي لخلاص العالم». وكما رفض مُحَمَّد البنوّة الإلهيّة ليَسُوع في تبنّيه القصّة، فإنّه قام بتغيير كلمات يَسُوع كي تنسجم مع تعاليمه الخاصّة بشأن أقنوم المسيح؛ وربّما كان مُحَمَّد قد تعلّم القصّة من محظيّته القبطيّة ماريّة، ذلك أنّ إنجيل الطّفوليّة كان على الأغلب مؤلّفاً باللّغة القبطيّة، ومنها تُرجم إلى العربيّة بعد عهد مُحَمَّد.

ثمّة قصّة مماثلة عن بوذا في أعمال سنسكريتيّة مختلفة، مثل بوذا ـ كاريتا، التي تتماثل بشكل مذهل مع ما يحتويه إنجيل الطّفوليّة.[3]

وترد في الآڤِستا رواية حول وحش سناڤيدهاكا يتحدّث لدى الولادة، أو في عمر يفاعته، وهو يقول: «ما زلت طفلاً، ولست ناضجاً بعد؛ وحينما أكبر،

---

(1) سورة آل عمران: 46/3؛ سورة المائدة: 110/5.

(2) إنجيل الطّفوليّة، الفصل الأوّل.

(3) الكتاب الأوّل، ص 34.

فسأجعل الأرض عجلة، وسأجعل السّموات مركّبة».[1] ويشير ذكر «العجلة» في هذا المقطع إلى الأصل البوذيّ للأسطورة.

آيات أخرى في القرآن التي يتحدّث فيها مُحَمَّد عن معجزات المسيح في شفاء وإنهاض الموتى،[2] ربّما تكون قد جاءت من الأناجيل القانونيّة، أو من الأناجيل المنحولة التي تحتوي على هذه الرّوايات. إنّ الأقصوصة عن يَسُوع الذي يصنع طيراً من الطّين ويهب له الحياة، الواردة في سورة آل عمران (49/3) وسورة المائدة (110/5)، إلى جانب الإحالات إلى معجزات شفائه وإحياء الموتى مأخوذة من إنجيل توما الإسرائيليّ المنحول.[3] وقد وردت الأسطورة أيضاً مرّتين في إنجيل الطّفوليّة العربيّ،[4] وفي الجزء الثّاني، حيث ترد القصّة مأخوذة من إنجيل توما الإسرائيليّ، ومن ثمّ، فإنّ القصّة مأخوذة من ذات المصدر.

إنّ الاختلافات اللّفظيّة البسيطة في قصص الأسطورة المرويّة في هذه الأناجيل مع الموجودة في القرآن[5] يمكن أن تُفسّر باكتساب مُحَمَّد للقصّة

(1) الأڤستا، ياست، 43/19. (بحسب پليني، والتّقاليد الپارسيّة المتأخّرة، إنّ زرادشت هو الوحيد من بين الفانيّين الذي وُلد وهو يضحك).

(2) سورة آل عمران: 48/3ـ49؛ سورة المائدة: 110/5.

(3) الفصل الثّاني.

(4) في الفصلين: 36 و46.

(5) لقد ذكر مُحَمَّدٌ طيراً واحداً فحسب، وأنَّ يَسُوع نفخ فيه لإحيائه، في حين أنّه ذُكر في «الإنجيل» اثنا عشر طيراً بُعثت الحياة فيهم بأمر يَسُوع.

إضافة المقوّم اللّغويّ: تحديد المؤلّف الطّير بواحد دليل قصور فهمه للّغة العربيّة وقلّة اطّلاعه! ذلك أنّه ورد نفخ السّيّد المسيح الرّوح في الطّير في القرآن مرّتين:

- ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ

من السّماع، وليس من الأناجيل المكتوبة؛ أو ربّما يكمن السّبب في محاولة مُحَمَّد إخفاء انتحاله.

فوق ذلك، ورغم أنّ ثمّة آيات في القرآن تعني على الأقلّ ضمناً أنّ موت يَسُوع حدث فعلاً،[1] فإنّ مُحَمَّداً نفى صلبه.

الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (49) سورة آل عمران.

- ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (110) سورة المائدة. وهذه اللّام في (الطّير) في الموضعين هي لام الجنس، وتُسمّى أل الاستغراق، وبهذا ليس في واحدة من الآيتين ما يشير إلى أنّه طير واحد؛ بل إنّ الآية الثّانية تفيد الجمع (فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا...) فهذه الهاء في - فيها - عائدة إلى جماعة الطّيور.

(1) سورة آل عمران: 55/3؛ سورة مريم: 33/19. يقول بعضُ المفسّرين المسلمين في شرحهم على هاتيْن الآيتيْن إنّ يَسُوع مات فعلاً، وبقي ميتاً لبضع ساعات، ومن ثمّ أخذه الملاك جبريل إلى السّماء. ومن المفترض أنّ ذلك حصل عندما كان مسجوناً في ليلة صلبه، وأنّ ثمّة آخر شبيه به صُلب بدلاً عنه. لكن بحسب الأحاديث الإسلاميّة والإيمان العامّ للمسلمين في وقتنا الحاضر، فإنّ يَسُوع كان قد أُخذ حيّاً إلى السّماء من جانب جبريل. وكلمات سورة النّساء (157/4)، المستشهد بها في النّصّ، تذكّرنا بما يقوله التّلمود بشأن هروب موسى من فرعون: «إنّ الملك، بعد أن ألقى القبض على موسى، أعطى أمراً بقطع رأسه... ونزل ملاكٌ من السّماء وأخذ هيئة موسى الذي هرب في حين أمسكوا الملاك.» براخوت (التّلمود الأورشليميّ)، الورقة 13أ، العمود 1.

في سورة النّساء (157/4) يقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ، وَمَا صَلَبُوهُ، وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ... بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ[1]﴾. يتبين لنا من هذا الرّفض لصلب المسيح أنّ مُحَمَّداً كان جاهلاً بأساس عقيدة كفّارة المسيح، كما بعقائد الدّيانة المسيحيّة الأخرى؛[2] ذلك أنّ رفضه لهذه العقيدة لم يكن موجّهاً ضدّ المسيحيّين، بل ضدّ أعدائه اليهود، الذين مجّدوا في الواقع أنّ أمّتهم قتلت المسيح. في الآيتيْن 155، 157 من ذات السّورة (سورة النّساء)، يقول: ﴿بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ (اليهود) فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً... وَقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾.

من أين جاء رفض الموضوعة الأساسيّة للمسيحيّة من جانب مُحَمَّد؟

يعتقد تيسدال في كتابه مصادر الإِسْلام (ص 182) «يبدو له أنّ أمراً يحطّ من قدر وكرامة المسيح أن يُصلب ويقتل من قِبل أعدائه». لكن في أجزاء أخرى من القرآن يقول مُحَمَّدٌ: إنّ اليهود قَتلوا ﴿الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ[3]﴾، ومن ثمّ، لا بدّ من وجود مصدر آخر لرفض موت المسيح على الصّليب غير فكر مُحَمَّد الخاصّة. ولا يمكن تقصّي هذا الرّفض في الأناجيل المنحولة التي ربّما كان محمّد قد عاد إليها أو مخبروه. ولكي نسلّط الضّوء على هذه المسألة علينا أن نشير إلى كتابات بعض الهراطقة الذين ازدهروا في الرّبعين الثّاني والثّالث

---

(1) سورة النّساء: 157/4 ـ 158.

(2) لا يُشار في الْقُرْآن إلى سرّ المعموديّة، وسرّ عشاء الرّبّ، وإذ أشير إليه، بأيّ حال، فهو ممزوج بالخرافة. ويبدو أنّ المسيحيّة مارست تأثيراً قليلاً على الإِسْلام، وهذا يمكن أن يُفسّر بواقع أنّ الإِسْلام قد تشكّل قبل أن يصبح مُحَمَّد مطّلعاً بشكل مناسب على مبادئها. وبالمقابل، فإنّ اليهوديّة، وكما يقول موير: «قد صبغت كامل المنظومة، وأضفت عليها الشّكل والأنموذج، إنْ لم يكن المادّة الفعليّة لطقوس عديدة».

(3) سورة النساء: 155/4.

من القرن الميلاديّ، والذين رفضوا بدورهم صلب المسيح. ونحن نعلم من إيريناوس أنّ باسيليدس الغنوصيّ الذي يعود إلى تاريخ 138 ميلاديّ، علّم أتباعه بأن يَسُوع لم يتعرّض للمعاناة، وأنّ سيمون من سيرينه... كان قد صُلب نتيجةً للجهل والخطأ، وأنّ هيئته قد تغيّرت بحيث كان يُعتقد في أنّه يَسُوع نفسه.(1)

وكما أشار السّير دبليو موير في كتابه حياة مُحَمَّد (ص 161)، من أنّ الغنوصيّة اختفت من مصر قبل القرن السّادس، وربّما لم تنل قطّ منزلة وطيدة في الجزيرة العربيّة، لكن بدون شكّ، حُفظت بعض من تعاليمها في التّقاليد السّوريّة، وكانت معروفة لمُحَمَّد، أو لمخبريه الذين يبدو أنّهم كانوا يهوداً حتّى فيما يتّصل بالموضوعات المسيحيّة.

إنّ ماني كان بدوره معلّماً أسطوريّاً صعد نجمه نحواً من 270 ميلاديّ، وقد رفض بدوره صلب المسيح، وعلمّ أتباعه القول: «إنّ أمير الظّلام كان مثبتاً إلى الصّليب، وهو الشّخص عينه الذي حمل إكليل الشّوك».(2) إنّ آراء هذه النّحلة الهرطوقيّة كانت معروفة في الجزيرة العربيّة قبل عهد مُحَمَّد، وكانت بدون أدنى شكّ معروفة لمُحَمَّد. ويستشهد پولمر في مقدّمته للقرآن (p. lii) بافتتاحيّة سورة الأنعام (6)، التي تنصّ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ»، بأنّها موجّهة «بالسّلب ضدّ، النّظريّة

---

(1) 'Neque passum eum; et Simonem quendam Cyrenæum angariatum portasse crucem eius pro eo; et hunc secundum ignorantiam et errorem crucifixum, transfiguratum ab eo, uti putaretur ipse esse Jesus.' Iren., *Adv. Haeres*, bk. i. 23.

(2) 'Princeps itaque tenebrarum cruci est affixus, idemque coronam spineam portavit.' Manes (or Mani), *Eb. Fund.*, *ap. Evodium*.

المانويّة القائلة بوجود أميرَيْن للنّور والظّلمة غير مخلوقيْن وخالديْن، وبأنّه من امتزاجهما وتناحرهما تتولّد مادّة الكون».

بصدد رفض مُحَمَّد لصلب المسيح، فإنّ الدّكتور سِل يؤكّد بشكل مطلق أنّ مُحَمَّداً أخذ الفكرة من المانويّة.(1)

إنّ الفكرة ذاتها موجودة في عمل منحول يُسمّى رحلات الرّسل، الذي يُشير إليه فوتيوس في مؤلّفه *Bibliotheca* حيث يؤكّد في الكتاب «أنّ المسيح لم يُصلب، بل آخر عوضاً عنه».(2)

كان مُحمَّدٌ يتّبع التّعاليم الهرطوقيّة في رفضه لصلب المسيح، وهي تلك التّعاليم المنتشرة بدرجات مختلفة في الجزيرة العربيّة، وربّما نُظر إلى رفضه أنّه نوع من التّسوية بين اليهوديّة والمسيحيّة، والتي ربّما أمل بها أن يكسب كلاً من اليهود والمسيحيّين لاعتناق ديانة الإسْلام. وعلى أيّ حال، يجب أن نضع نصب أعيننا أنّ مفهوم مُحَمَّد لأقنوم المسيح لم يكن يشترك بشيء مع مذهب الدّوسِتيّة(3) لهؤلاء الهراطقة الذين أقاموا عليه رفضهم لصلب المسيح.

---

(1) Sell, *The Faith of Islam*, pp. 239-40, n.1.

(2) يقول فوتيوس في كتابه *Bibliotheca*، المخطوط 114:

περίοδοι ἀποστόλων, πολλὰς.... ἀτοπίας ἀναπλλάττει, κὰι τὸν χριστὸν μὴ σταυρωθῆναι, ἀλλ᾽ ἕτερον ἀντ ἀυτοῦ.

إنّ العرض في إنجيل برنابا بأنّ يهوذا هو الذي صُلب بدلاً عن المسيح، لا يتّصل بنقاشنا الحاليّ، كون هذا العمل أُلّف بعد زمن طويل من عهد مُحَمَّد.

(3) إنّ المعتقد الأساسيّ الدّوستيّ يرى أنّ يَسُوع كان متماثلاً مع νοῦς أو ذهننا، الصّدور الأوّل للإله، وإنّه لم يكن له من جسد حقيقيّ، ومن هنا لا يمكن له أن يختبر المعاناة ـ إنّ هذا المبدأ يعارض مفهوم مُحَمَّد لأقنوم المسيح، الذي اعتبره بشريّاً بكلّ جانب. وبينما رفض مقدّمات هذه الهرطقة، فإنّه قبل نتائجها غالباً عن

وفي القرآن يُعلم، وإنْ كانت الآيات غامضة، أنّ يَسُوع سوف يموت لدى قدومه الثّاني، وأنّه سيُبعث مجدّداً للحياة.[1] وفكرة مماثلة تتعلّق بأخنوخ وإيليّا، اللّذين رُفعا؛ الواردة في عمل منحول على الرّغم من أنّه بالعربيّة، إلاّ أنّه على الأرجح من مصدر قبطيّ، ويُسمَّى رحيل أبانا المقدّس، الشّيخ يوسف النّجّار، ويُسمّى العمل بالقبطيّة تاريخ مريم النّائمة. وفي الأوّل مكتوب: «يجب على هذيْن الرّجليْن (أخنوخ وإيليّا) القدوم إلى العالم، وفي نهاية الزّمان... عليهما أن يموتا».[2] وفي العمل الثّاني وبالكلمات ذاتها تقريباً ترد لدى الإشارة لهذين النّبيّيْن: «من الضّروريّ لهما أن يختبرا الموت في ختام المطاف».[3]

من الجليّ أنّ مُحَمَّداً كان مطّلعاً على هذه الإشارات، ذلك أنّه في سورتيْن[4] من القرآن يعيد عبارة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾؛ وكما أنّه آمن بأنّ يَسُوع قد رُفع إلى السّماء بدون أن يموت الموت الطّبيعيّ، ومن ثمّ، اعتقد في أنّه مثل إخنوخ وإيليّا، يجب أن يموت بعد عودته إلى الأرض. وثمّة إذاً مدفن خالٍ محفوظ لجسده في المدينة، قرب أضرحة مُحَمَّد، وأبي بكر، وعمر.

إنَّ الإشارات في القرآن وفي الأحاديث الإِسْلاَمِيّة،[5] إلى المجيء الثّاني

جهل.

(1) سورة آل عمران: 55/3؛ سورة النّساء: 157/4؛ سورة مريم: 33/19.

(2) الفصل 31.

(3) *Coptic Apocry. Gospels*, pp. 108-9.

(4) سورة آل عمران: 185/3؛ سورة العنكبوت: 57/29.

(5) قصص الأنبياء، ص 275؛ عرائس التّيجان، ص 554.

للمسيح الذي هو علامة على يوم القيامة،[1] وهزيمته للمسيح الدّجّال،[2] والانتشار العالميّ لمملكته على الأرض، مأخوذة بشكل ظاهر من كتب العهديْن القديم والجديد المقدّسة.[3]

قبل أن ننتهي من الإشارات القرآنيّة إلى المسيح، علينا التّطرّق إلى نبوءة المسيح المفترضة عن مجيء أو ظهور مُحَمَّد. في سورة الصّفّ (6/61) نقرأ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ»﴾. إنّ اسم «أَحْمَد» في هذه الآية أحد أسماء النّبيّ، وهو يعود لذات الجذر والمعنى من اسم «مُحَمَّد» (أي محمود الصّفات). في آيات العهد الجديد التي يُشار إليها هنا، أي «الإنجيل»، يُوحَنَّا: 16/14، 26؛ 26/15؛ و7/16، فإنّ المفردة الإغريقيّة هي παράκλητος «المعزّي»، أو «روح القدس»، وقد خلط مُحَمَّد أو مخبروه هذه المفردة، أو اعتبروها شيئاً واحداً مع περικλυτός، التي يمكن أن تُترجم بـ«أحمد». ويقول السّير دبليو موير إنّ «παράκλητος ببعض

(1) سورة الزّخرف: 61/43. حسب الْقُرْآن، فإنّ المسيح لن يأتي بوصفه قاضياً، بل ليُقاضى مع الأنبياء الآخرين، سورة الأحزاب (7/33، 8). وسوف يشهد أيضاً على اليهود الذين رفضوه، سورة النّساء (159/4). ويؤمن المسلمون بأنّ يَسُوع سوف يهبط قرب مسجد دمشق؛ ويؤمّ المؤمنين في الصّلاة؛ ويتزوّج، ويعيش أربعين سنة في هذا العهد سيعمّ السّلام والرّخاء. إنّ إيمان المأثورات الإسْلاَمِيّة بأنّ يَسُوع سوف يتزوّج في مجيئه الثّاني ربّما يكون ناشئاً عن فهم خاطئ لمقطع في سِفر الرّؤْيَا الذي يقول: «لِنَفْرَحْ وَنَتَهَلَّلْ وَنُعْطِهِ الْمَجْدَ، لأَنَّ عُرْسَ الْحَمَلِ قَدْ جَاءَ، وَامْرَأَتُهُ هَيَّأَتْ نَفْسَهَا» (رؤيا: 3/19). وبشكل مشابه، سوء فهم بصدد بقاء المسيح مع حواريّيه لمدّة أربعين يوماً، بعد قيامته، كما جاء في الأَعْمَال (3/1)، وربّما يفسّر هذا الحديث بأنّه سوف يعيش أربعين سنة على الأرض بعد عودته.

(2) قصص الأنبياء، ص 275؛ عرائس التّيجان، ص 554.

(3) الأَعْمَال، الإصحاح الأوّل؛ الرّؤْيَا: 7/1؛ إِشَعْيَاء: 1/11 ـ 9؛ 1/32، 16 ـ 18. 25.

التّرجمة النّاقصة أو المشوّهة قد صارت مرادفاً لـ«περικλυτός».[1] إنّ الفكرة القرآنيّة الضّالّة لهذه الآيات سائدة في الهند إلى اليوم، وقد سنحت لي مناسبة معرفة ذلك في أحاديثي ومناقشاتي مع المسلمين وملاليهم.[2]

إنّ الإشارات القرآنيّة السّالفة الذّكر إلى أقنوم المسيح، تكشف، كما أعتقد حقيقة أنّ تعاليم مُحَمَّد بشأن المسألة في بعض الجوانب، غامضة وغير متّسقة. وفي محاولتنا لتعليل ذلك، يمكننا أن نفترض أنّ مُحَمَّداً تبنّى العبارات السّائدة آنذاك بين المسيحيّين بصدد شخصيّة المسيح، ربّما بغاية أن يجعل دينه ـ الإسْلام ـ مقبولاً بالنّسبة لهم، والحصول على اعترافهم به على أنّه نبيّ اللّه، أو ربّما، لأنّه لم يفهم معانيها تماماً.

كذلك فإنّ النّظرة القرآنيّة مأخوذة في النّهاية من كتب العهدين القديم والجديد المقدّسة التي تقول: إنّ لجميع الأنبياء قدرة القيام بالمعجزات، ويُشار بصدد ذلك، بالخصوص إلى موسى ويَسُوع.[3] لكنّ مُحَمَّداً الذي تُنسب له الرّواية الإسْلاَمِيّة، والمسلمون القويمون معجزات عدّة؛[4] أنكر بوضوح في

---

(1) حياة محمّد، ص 164، ملحوظة 2. ويجب أن يُلحظ في هذا الصّدد، أنّ المانويّين أو ماني النّبيّ الزّائف من فارس، كان قد قام، قبل مُحَمَّد، بدعوى مشابهة بأنّ نبوءة المسيح هذه بشأن مجيء الـ«پاراكليت» تنطبق عليه. وقد أعدمه باهرام الأوّل الفارسّي، نحواً من سنة 276 ميلاديّة.

بوسعنا هنا لحظ أنّ النّبوءة الأڤِستيّة (ياست: 89/19، 90) حول مجيء ساوشيانت الظّافر، ابن زرادشت، الذي سيقضي على الرّوح الشّرّيرة، أهريمان، و«يعيد بناء العالم، الذي (منذ ذلك الوقت) لن يهرم قطّ أو يموت أبداً».

(2) الملاّ: عالم اللاّهوت المسلم.

(3) سورة آل عمران: 49/3؛ سورة الأعراف: 160/7.

(4) أي، «شقّ القمر»؛ «المعراج»؛ «مثول الشّجر لديه»؛ «إرجاع الشّمس»؛ «إطعام عدد

القرآن أيّ قدرة على فعل ذلك. وعندما سألته قريش بعض الآيات المعجزة التي ستقنعهم برسوليّته من اللّه، أجابهم: ﴿هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً؟[1]﴾، وفي آيات أخرى بنى رفضه على حقيقة أنّه مجرّد ﴿مُنذِرٌ[2]﴾، وأنّ معجزات الأنبياء السّابقين ﴿كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾[3]. وهذا الرّفض ترافق مع تهديد «الذين أضلهم اللّه» لرفضهم دعاوى الأنبياء بعقوبة في الحياة الدّنيا، والنّار في الآخرة.[4]

إنَّ حجّة النّبيّ بأنّ معجزات الأنبياء ﴿كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ لا تتّفق مع الحقيقة، ورفضه القيام ببراهين حسّيّة على رسوليّته مثل المعجزات التي اجترحها الأنبياء السّابقون من قبل؛ لهو مؤشّر آخر على الاحتيال الواعي الذي لجأ إليه من أجل الحفاظ على التّفويض الذي منحه لنفسه بأنّه نبيّ اللّه، والذي يلطّفه پولمِر في مقدّمته للقرآن (p. xlvi.)، بقوله: «إنّ مهمّة النّبيّ تتضّمنها بالضّرورة»، ولكن وفق تفكيرنا لا يمكن إلّا أن تُدان بشدّة.

صحيح أنّ مُحَمَّداً أكّد أنّ القرآن معجزة الإِسْلام العظيمة،[5] وأنّه مُعدّ لكلّ العصور والأقوام، بينما معجزات ورسالات الأنبياء السّابقين كانت تخصّ أقوامهم فحسب. وزيادة على ذلك، عندما اتّهمه أعداؤه بأنّه «افترى» القرآن،

كبير بأرغفة قليلة، وزيادة كسرات كثيرة»؛ «نبع الماء من أنامله ومن مقدّم أقدامه»؛ وغيرها؛ انظرْ «مشكاة المصابيح» المجلّد الثّاني. والكتاب من تأليف الشّيخ وليّ الدّين، 737 هـ ويحتوي على أهمّ الرّوايات الإِسْلاَمِيّة.

(1) سورة الإسراء: 17/90ـ 93.

(2) سورة الرّعد: 13/7.

(3) سورة الإسراء: 17/59؛ قارن سورة الأنعام: 6/37.

(4) سورة الرّعد: 13/32ـ34؛ سورة الإسراء: 17/97.

(5) سورة الإسراء: 17/88.

تحدّاهم قائلاً: ﴿فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ[1]﴾، أو حتّى ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ[2]﴾، كما قال في آيات لاحقة. وعلى أيّ حال، وكما يخبرنا ابن هشام في سيرته، عندما قصّ خصمه النّضر بن الحارث بعض القصص من المأثورات الفارسيّة عن «رُستُم الشّديد، وعن أسفنديار، وملوك فارس»، فإنّه أضاف بعدها: «واللّه ما محمّدٌ بأحسن حديثاً منّي، وما حديثه إلّا ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين[3]﴾، اكتتبها كما اكتتبتها» فإنّه جلب لنفسه لعنات مُحَمَّد المنزّلة، مع نُذر ﴿عَذَابٌ مُّهِين[4]﴾. وفي نهاية المطاف دفع ثمن جراءته بحرمانه من حياته عندما وقع أسيراً في معركة بدْرٍ، وعلى الرّغم من أنّ محمَّداً سمح لأسرى آخرين بدفع الفدية، فإنّ هذا الامتياز حُرم منه، وقُتل. ومن الجليّ أنّ مُحَمَّداً اعتبر الإبقاء على حياته يعود عليه بخطورة شديدة.

---

(1) سورة هود: 13/11.

(2) سورة البقرة: 23/2؛ سورة يونس: 38/10.

(3) سورة الفرقان: 4/25 ـ 5؛ سورة القلم: 15/68.

(4) سورة الجاثية: 7/45 ـ 9؛ سورة القلم: 16/68.

الفصلُ السّادس

البعث ويوم الحساب

﴿وَنُفِخَ فِي الصّورِ، ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ!(1)﴾

﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُون.(2)﴾

﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا، وَوُضِعَ الْكِتَابُ، وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ، وَالشُّهَدَاء؛ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ؛ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ.(3)﴾

إنَّ مذهب البعث ويوم الآخرة، كما ذُكر في القرآن، وأسهبت فيه الأحاديث الإسْلاَمِيّة شديد التّفصيل؛ لكنّنا سنقيّد أنفسنا إلى حدّ كبير بتعاليم القرآن.

إنَّ وقت يوم الحساب، أو ﴿السّاعَة(4)﴾ كما يُسمّى أحياناً في القرآن، سرّ

(1) سورة ق: 20/50.

(2) سورة يس: 51/36.

(3) سورة الزّمر: 69/39.

(4) سورة الأنعام: 40/6؛ سورة الأنبياء: 49/21؛ سورة سبأ: 3/34؛ سورة مريم: 75/19؛ سورة النّازعات: 42/79. وهو يُدعى أيضاً ﴿يَوْمَ﴾ في سورة آل عمران: 106/3؛ وسورة الأنعام: 22/6؛ وسورة القارعة: 4/101؛ و ﴿الْيَوْمِ الآخِرِ﴾ سورة النّساء: 38/4ـ39.

لا يعلمه إلّا اللّه.[1] وهذا يتّفق مع تعاليم العهد الجديد، الذي تعلّمه مُحَمَّد من مخبريه المسيحيّين أو اليهود،[2] كما حاز على تسمية ﴿اليوم﴾ و ﴿السّاعَةُ﴾ من ذات المصدر. ويُدعى يوم الحساب في القرآن أيضاً ﴿يَوْمَ الْفَصْل[3]﴾ ـ وهي فكرة كان مُحَمَّد قد حصل عليها من الرّواية الواردة في الإنجيل حول فصل الخراف عن الماعز.[4]

ثمّة علامات محدّدة[5] مذكورة في القرآن والأحاديث ـ خمسة وعشرون بالإجمال ـ التي يُروى أنّها تسبق يوم الحساب، ومنها يُحدّد حينه. ومن بينها يمكن ذكر: فساد الدّين؛[6] وكرب عظيم في العالم؛[7] شروق الشّمس من

وهي تعابير كتابيّة. انظر إنجيل مَتَّى: 36/24.

(1) سورة النّازعات: 42/79؛ 44. قارن: مَتَّى: 24:36؛ زَكَرِيَّا: 14:7؛ أعمال: 7/1.

(2) حازَ مُحَمَّدٌ على معرفته بالمسيحيّة جزئيّاً من الأرقّاء المسيحيّين، والعرب المهتدين إلى المسيحيّة، لكن يبدو أنّ مخبريه الرّئيسيّين كانوا يهوداً. ويشير زومر، في كتابه (*Arabia: The Cradle of Islam*)، ص 163، إلى أنّ «يهوداً ومسيحيّين... عاشوا قرب مكّة لمئتيْ سنة قبل الهجرة».

(3) سورة الدّخان: 40/44؛ سورة المرسلات: 13/77، 14، 38. تعني ﴿يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ ﴿يَوْم الْحِسَاب﴾ حينما يفصل الأشرار عن الأخيار.

(4) مَتَّى: 32/25، 33.

(5) انظر مشكاة المصابيح، الكتاب 23، الفصلين الثّالث والخامس. وفي سورة مُحَمَّد (18/47)، يُشار إلى الأشراط على أنّها رسالة مُحَمَّد، وانشقاق القمر.

(6) ثمّة حديث من «شرح عقائد الجماعة» يفيد أنّ النّبيّ قال: إنّ السّاعة لن تأتي حتّى يُدعى كلّ إنسان للّه. انظر أيضاً مشكاة، الكتاب 23، الفصل 3 («من أشراط السّاعة أن يُرفع العلم ويكثر الجهل»). قارن: رِسَالَةُ تَسَالُونِيكِي الثَّانِيَةُ:3/2 («لأَنَّهُ لاَ يَأْتِي إِنْ لَمْ يَأْتِ الارْتِدَادُ أَوَّلاً، وَيُسْتَعْلَنَ إِنْسَانُ الْخَطِيَّةِ، ابْنُ الْهَلاَكِ»)؛ لُوقَا: 8/18.

(7) سورة الأنبياء: 97/21؛ سورة الدخان: 10/44 ـ 11؛ سورة المدّثّر: 9/74.

المغرب؛[1] دخان يملأ الأرض؛[2] انشقاق القمر؛[3] ظهور الوحش؛[4] مجيء المسيح الدّجّال (مشكاة المصابيح، الكتاب 23، الفصل 4)؛ نزول يَسُوع[5] (ليس كقاضٍ، بل مثل الأنبياء الآخرين كي يُقاضى)،[6] الذي سيقهر المسيح الدّجال، والذي ستنعم الأرض خلال إقامته المؤقّتة بالسّلام والرّفاهيّة، وحينها سيوجد الأسد والدّبّ مع الجمال والنّعاج، وسيلعب الطّفل مع الأفعى بدون أن يناله مكروه؛ واجتياح يَأْجُوجَ وَمَأْجُوج،[7] وهجومهم على المدينة المقدّسة، وسحق اللّه لهم؛ وقدوم الإمام المهديّ.[8]

وفيما بعد، ولدى حلول الموعد الذي حدّده اللّه، فإنّ إسرافيل سينفخ في الصّور، عندها سيموت كلّ مَنْ في السّموات والأرض، وفي النّفخة الثّانية،

(1) سورة القيامة: 9/75 (﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾)؛ «في ذهاب الضّوء أو الطّلوع من المغرب» (البيضاويّ).

(2) سورة الدّخان: 10/44 ـ 11.

(3) سورة القمر: 1/54.

(4) سورة النّمل: 82/27.

(5) سورة الزّخرف: 61/43 (أي مجيئه الثّاني).

(6) سورة الأحزاب: 7/33، 8؛ سورة الزّمر: 69/39.

(7) سورة الأنبياء: 96/21؛ سورة الكهف: 94/18، 98، 99؛ مشكاة، الكتاب 23، الفصل 4 («إنّ العلامة السّادسة هي قدوم يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ»). قارن: الرّؤيَا: 8/2؛ حِزْقِيَال: 2/38؛ (يُوحَنَّا المنحول على اللّاويِّين: 44/26). ثمّة أسطورتان يهوديّة ومسيحيّة تربط يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ بنهاية العالم.

(8) يروي ابن عبّاس حديثاً بأنّ الخليفة الثّاني عشر، والأخير سيكون المهديّ الذي سيأتي في نهاية العالم، فيملأ الأرض عدلاً، بعد أن ملئت جوراً. وسيظهر يَسُوع حينها ويتبعه. وإنّ نور اللّه سيضيء الأرض وأنّ مملكة الإمام ستمتدّ من الشّرق إلى الغرب. ويُشار إلى مجيء المهديّ مراراً في المشكاة، الكتاب 23، الفصل، 3.

سيُبعث الجميع.[1] وبعد فواصل[2] فإنَّ الكتاب سيُنشر، ويبدأ الحساب، وكلّ إنسان سيتلقّى كتابه المدّون فيه أعماله الطّيّبة والشّرّيرة؛[3] وهذه الأَعْمَال (أو كما يرى بعضهم: الكُتب) ستوضع في ﴿الْمِيزَان[4]﴾، المعلّق بين الجنة

(1) سورة الزّمر: 68/39. سورة النّازعات: 6/79، 7، 13؛ سورة النّمل: 87/27؛ يقول بعض المفسّرين: إنّ النّفخة المذكورة في سورة النّازعات (13/79) هي الثّانية، ويقول آخرون: إنّها الثّالثة. انظر أيضاً سورة المؤمنون (101/23)؛ سورة يس (51/36) سورة الصّافّات (19/37)؛ سورة ق (20/50). وإذْ لم يذكر الْقُرْآن بوضوح غير نفختيْن، فإنّ بعض المفسّرين لا يميّزون بين النّفخة الأولى والثّانية. وبحسب الحديث الذي يرويه أبو هريرة، فإنّ إسرافيل سينفخ ثلاث مرّات: في المرّة الأولى، نفخة الرّعب، للتّخويف؛ والثّانية للحساب، لأخذ الأرواح، ونفخة البعث، لكي ينهض الموتى.

(2) بحسب الحديث، فإنّ الفاصلة بين النّفختين أربعون سنة، في ذلك الوقت، فإنّ الكتاب الذي يحوي تسجيل الـ «كَاتِبِين» سيُسلّم. وإنّ كتب الأشرار محفوظة في ﴿سِجِّينٍ﴾ وهو سجن في الجحيم الذي أُخذ اسمه وصفاً للكتب المحفوظة هنا؛ [سورة المطفّفين: 7/82 ـ 9]؛ وسجّل الأخيار محفوظ في ﴿عِلِّيِّينَ﴾ مبنى عالي المقام في الجنّة، والذي منه جاء أيضاً اسم السّجلاّت المحفوظة هنا (السّورة ذاتها، 18 ـ 20).

(3) سورة الإسراء: 13/17.

(4) سورة الأعراف: 8/7، 9؛ سورة الأنبياء: 47/21؛ سورة المؤمنون: 102/23 ـ 103؛ سورة الشّورى: 17/42؛ سورة الرّحمن: 7/55؛ سورة الحديد: 25/57؛ سورة القارعة: 6/101 ـ 9؛ يقول الكتّاب المسلمون، أصحاب الحديث الصّحيح: إنّ ﴿الميزان﴾ سيُعلّق بين الجنّة والنّار. إنّ الوزن مجاز مستعمل مراراً في التّلمود، انظر ترجمة روش هاشّانه، الورقة 17أ [«الرّحيم يميّل (ميزان العدالة) إلى جانب الرّحمة»]. وسنرى فيما بعد أنّ مُحَمَّداً مدين إلى عهد إبراهيم بفكرة «الميزان». والمصدر النّهائيّ لها هو الميثولوجيا المصريّة.

والنّار، وسيبتهج منْ أُعطي الكتاب بيمينه[1] لأنّ موازينه ثقيلة، ذلك أنّ أعماله الطّيّبة رجحت على أعماله السّيّئة؛ وسيذهب إلى الجنة؛ ومن أُعطي الكتاب بشماله،[2] فيصيبه الأسى لخفّة موازينه، ذلك أنّ أعماله السّيّئة رجحت على الطّيّبة، ولهذا فله نار حميم.[3]

أمّا أعمال الكافرين (غير المسلمين) فلن توزن، وفق القاعدة: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ[4]﴾. ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ؛ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً. ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ[5]﴾.

إلى جانب عقيدة «الأَعْمَال»، توجد عقيدة «النّعمة» الواردة بشكل غامض بدرجة ما في القرآن والحديث. ويسجّل البّخاريّ حديثاً مفاده أنّ النّبيّ قال لأتباعه: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَداً عَمَلُهُ الْجَنَّةَ»، وعندما سُئل: «وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ» فإنّه أجاب: «وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ». ويبدو أنّ بعض الآيات في القرآن تعطي مصداقيّة لهذا الاعتقاد. ففي سورة الدّخان (40/44 ـ 42) نقرأ: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ... لاَ يُغْنِي مَوْلى عَن مَّوْلى شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ، إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾.[6] إنّ هذا الاعتقاد، إذا ما كان مُحَمَّد يراه، كان في

(1) سورة الحاقّة: 19/69؛ سورة الانشقاق: 7/84ـ9.

(2) سورة الحاقّة: 25/69؛ سورة الانشقاق: 10/84 ـ 11. ويرى المسلمون أنّ أيدي الخاسرين اليمنى ستُغلّ إلى أعناقهم، وأنّ أياديهم اليسرى ستُغلّ إلى ظهورهم، وقد أشار القُرْآن إلى النّقطة الثّانية: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ...﴾.

(3) سورة الأعراف: 9/7؛ سورة المؤمنون: 103/23؛ سورة الحاقّة: 30/69 ـ 31؛ سورة الانشقاق: 10/84 ـ 12؛ سورة القارعة: 8/101 ـ 11.

(4) سورة الرّحمن: 41/55.

(5) سورة الكهف: 105/18 ـ 106.

(6) قارن سورة آل عمران: 107/3؛ سورة الإسراء: 54/17، 57؛ سورة مريم: 93/19 ـ 94؛

النّهاية مقتبساً من تعاليم كتب العهديْن القديم والجديد المقدّسة؛ بيد أنّ ثمّة تلميحات إلى المذهب في التّلمود، فعلى سبيل المثال، روش هاشّاناه، الورقة 17أ، «الرّحيم يميّل (ميزان العدالة) إلى الرّحمة»، بيركه أبوث، الفصل الثّالث، 24، «إنّ العالم محكوم بالنّعمة». إنّ هذه الإشارات وغيرها ستوحي بالفكرة إلى مُحَمَّد.

ويعلِمُ القرآن أنّ على كلّ امرئ ـ وحتّى المؤمنين ـ العبور من النّار،[1] لكن لن يبقى مسلم في النّار أبداً.[2] إنّ العذاب الأبديّ للكافرين فحسب الذين يرفضون إيمان الإسْلام.[3] ويؤيّد البيضاويّ، والغزاليّ، والأشعريّ النّظرة بأنّ المؤمنين لن يُتركوا في النّار للأبد. ويقول البيضاويّ: إنّ الآية: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ[4]﴾ تعني: «وفيه دليل على أنّ العبادة لا تُحبط؛ وأنّ المؤمن لا يخلد في النّار لأنّ توفية إيمانه وعمله لا تكون في النّار ولا قبل دخولها فإذن هي بعد الخلاص منها».[5] ويقول الغزاليّ: «لا يخلد في النّار مؤمن... ومن بقي من المؤمنين... أُخرج بفضل اللّهِ؛ فلا يخلد في النّار مؤمن»[6] ويقول الأشعريّ: «وصاحب الكبيرة إذا خرج من الدّنيا من غير توبة يكون حكمه إلى اللّه تعالى، إمّا أنْ يغفرَ له برحمته، وإمّا أنْ يشفع فيه النّبيُّ إذْ قال: شفاعتي لأهل

سورة الحجرات: 49/7ـ8.

(1) سورة مريم: 19/71.

(2) سورة مريم: 19/72؛ سورة الزّلزلة: 99/7؛ يُعتبر الإيمان بالإسْلام عملاً صالحاً يُثاب عليه بالجنّة في نهاية المطاف.

(3) سورة الكهف: 18/102؛ سورة البيّنة: 98/6؛ سورة ق: 50/24ـ26.

(4) سورة آل عمران: 3/25.

(5) البيضاويّ، المجلّد 1، ص 150.

(6) إحياء علوم الدّين، المجلّد 2، ص 37ـ42.

الكبائر من أمّتي... ولا يجوز أنْ يخلدَ في النّار مع الكفار... مَنْ كانَ في قلبه مثقال ذرّةٍ من الإيمان».[1]

إنَّ عقيدة الخلاص النّهائيّ للمسلمين المؤمنين تحمل على الأقلّ تشابهاً مع عقيدة العهد الجديد بصدد «مثابرة القدّيسين»، على الرّغم من اختلافها في بعض الجوانب المهمّة.

إنَّ الآية في القرآن التي تخبر بأنّ على المؤمنين أن يردوا النّار،[2] قد أحدثت قلقاً كبيراً بين المسلمين إلى اليوم. فبعض المفسّرين حاول تفسيرها مجازيّاً، أو بأنّها تشير إلى أنّ المؤمنين سيمرّون قرب النّار عندما يعبرون «الصِّرَاط»، في طريقهم إلى الجنّة.

على أيّ حال، إنّ الآية ذات تفسير ملتبس! ويعتقد تيسدال[3] في أنّ الآية تحتوي إشارة إلى المطهّر الذي ربّما سمع به مُحَمَّدٌ من مسيحيّي عصره؛ أو ربّما أساء فهم بعض الآيات من الكتب المقدّسة[4] التي تتناول هذه العقيدة.

يقول هوكِس: «إنَّ جهنّم (المفردة التي استعملها مُحَمَّد للإشارة إلى النّار المطهرة) مفردة عربيّة من الإغريقيّة γεέννα، من اللّافت أنّ المفردة كان يجب أن تُستعمل للنّار المطهّرة، وليس ᾅδης، التي تشير إلى الكيان حسب الرّومان الكاثوليك».[5]

---

(1) الملل والنّحل، الشّهرستانيّ، ص 73.

(2) [﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا، كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً﴾ (سورة مريم: 71/19)].

(3) *Sources of the Qur'an*, p. 198.

(4) مَرْقُس: 49/9؛ 1 كُورِنْثُوس: 13/3.

(5) *Notes on Muhammadanism*, p. 96, n.

† لكن يرد في التّلمود (גֵּיהִנּוֹם)، والتي توصف بالإغريقيّة بـ γεέννα. وجَهَنَّمُ العربيّة هي

على أيّ حال، على الرّغم من المساعي لتقديم معنىً آخر للنّصّ (سورة مريم: 71/19، 72) غير تلك الكلمات المنطوقة بجلاء، فإنّ الإيمان العامّ بين المسلمين المعاصرين أنّ المؤمنين سيدخلون النّار، لكن لن يمكثوا فيها مطوّلاً، ولن يعانوا كثيراً لدى عبورهم فيها. وربّما كان مُحَمَّد مديناً بالفكرة لـ عهد إبراهيم الذي يتحدّث عن تعريض عمل كلّ إنسان لامتحان النّار، وإذا ما أحرقته النّار، فإنّ الرّجل يُحمل إلى مكان العذاب من قِبل الملاك المشرف على النّار. والفكرة يجب أن تكون قد أتت من تحذير الرّسول بولس إلى كنيسة كُورِنْثُوس، في 1 كُورِنْثُوس: 13/3، 15. وسوف نرى لاحقاً أنّ معالم أخرى من تعاليم مُحَمَّد يمكن تتبّعها إلى هذا العمل المنحول (عهد إبراهيم).

وجاء في الخبر أنّ الأرضَ مكان عقد اجتماع الحساب، في ذلك «اليوم» ستصير وَأَرْضاً أخرى، وكذلك السّماء.[1] ويظهر من المقطع القرآنيّ أنّ مُحَمَّداً كان على اطّلاع على التّعبير الكتابيّ: «سَمَوَات جَدِيدَةٍ وَأَرْضٍ جَدِيدَةٍ».[2]

ومدّة يوم الحساب، بحسب إحدى آيات القرآن ألف سنة،[3] وبحسب آية أخرى خمسون ألف سنة.[4] إنّ هذه التّعابير ربّما كانت رمزيّة فحسب، مثل إشارة مُحَمَّد في سورة الحجّ (47/22): ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وهي المأخوذة بشكل جليّ من ٱلْمَزَامِير (4/90).[5]

ترجمة فعليّة للعبريّة: بِراك هوث، الورقة 15أ، 19أ؛ يوربين، الورقة 19أ.

(1) سورة إبراهيم: 48/14.

(2) إِشَعْيَاءَ: 17/65؛ 22/66؛ 2 بُطْرُس: 13/3؛ الرّؤْيَا: 1/21.

(3) سورة السّجدة: 5/32.

(4) سورة المعارج: 4/70. ربّما كانت التّعابير في هذين الشّاهديْن، المذكوريْن في النّصّ مغالية. قارن سورة القدر: 1/97 ـ 3.

(5) قارن 2 بُطْرُس: 8/3. يبدو أنّ مُحَمَّداً كان على إطّلاع بشكل لا بأس فيه على ٱلْمَزَامِير،

ينصُّ القرآن أيضاً على أنّ الأعضاء الجسديّة للكافرين ستشهد عليهم في يوم الحساب[1] وأنَّ المعبودات ستلقى العقاب مع عابديها.[2] كلتا هاتيْن الفكرتيْن، تلموديّة: والأولى موجودة في هيغيغًا، الورقة 16، وتانيث، الورقة 11 («إنَّ أعضاء الإنسان نفسها ستشهد ضدّه»). والفكرة الثّانية موجودة في ساكّه الورقة 29 («كلمّا عُوقب فرد على الشّرك، فإنَّ الأشياء التي وقرها على أنّها آلهة ستُعاقب أيضاً، ذلك إنّه مكتوب، إنّي سأنزل أحكامي على جميع الآلهة بما في ذلك المصريّة»). وفي البراخوت (التّلمود البابليّ، الورقة 12ب، العمود 1)، ورد: «في يوم الحساب... ستكون الأصنام سبباً لخزي أولئك الذين صنعوها».

بعد الحساب، على الجميع عبور ﴿الصِّرَاطِ[3]﴾ المعلّق فوق النّار، والتي تقول الرّواية عنه إنّه «أحدُّ من السّيف، وأدقّ من الشّعرة». وسيعبر المؤمنون برفقة الْمَلاَئِكَة بسلامة إلى الجنة، بيد أنّ الكافرين سينزلقون، ويسقطون رأساً في النّار.

رغم وجود استشهاد وحيد منه في الْقُرْآن، والوارد في سورة الأنبياء (105/21): ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، وهو مأخوذ من الْمَزَامِير (29/37) إلى جانب ذلك فهو الاستشهاد المباشر الوحيد من كلّ الكتاب المقدّس.

(1) سورة النّور: 24/24؛ سورة يس: 65/36.

(2) سورة الأنبياء: 21/98 ـ 100.

(3) سورة الصّافّات: 23/37؛ سورة يس: 66/36. يطلق عليه الْقُرْآن «طريق»؛ والحديث يتحدّث عن أنّه «جسر». ويقول الغزاليّ: «وهو جسر ممدود على متن جهنّم، أحدُّ من السّيف، وأدقّ من الشّعرة. تزلّ عليه أقدام الكافرين بحكم اللّٰه سبحانه، فتهوي بهم إلى النّار؛ وتثبت عليه أقدام المؤمنين، بفضل اللّٰه، فيساقون إلى دار القرار». إحياء علوم الدّين، المجلّد، 2.

ليس من الضّروريّ مناقشة قوّة إقناع حجج مُحَمَّد المتّصلة بمسألة بعث الأجساد بالنّسبة لقريش بشكل مفصّل.[1] في «أيّام الجاهليّة»، كان لدى العرب الوثنيّين تصوّرٌ مبهم بشأن البعث، كما يظهر من عادتهم ربط ناقة قرب قبر الميّت. إنّ هذه العادة العربيّة، والدّافع الإيمانيّ لها، كانا بدون شكّ معروفين لمُحَمَّد؛ بيد أنّ الصّورة الأكثر كمالاً لعقيدة البعث والتّعبير عنها كما جاء بها مُحَمَّد في القرآن، كانت بدون شكّ مأخوذة من التّعاليم اليهوديّة والمسيحيّة؛ إنّ التّلمود حافل بالإشارات إليها؛ ففي روش هاشّاناه، الورقة 17ب: «سيذهب أولئك الذين يرفضون... بعث الأموات... للنّار»؛ في كِتُوبوث، الورقة 111ب: «سينهض الأموات في الثّياب التي كانت عليهم حين موتهم»؛ وثمّة أيضاً مقاطع في كيدوشين، الورقة 39ب، إِمِك هامِّلِخ، الورقة 132ب؛ بِراخوت (التّلمود البابليّ) الورقة 13ب، العمود 2. واتّبع مُحَمَّد أيضاً خطى الأحبار اليهود في الإشارة إلى تأثير المطر على بلد قاحل كونه يصوّر قوّة اللّه في إنهاض الأموات. في سورة ق (50/9، 11): ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً... وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً﴾. وبشكل مشابه، في سورة الأعراف (7/57). قارن بِراخوت، الورقة 33 (حيث يُوَّحد المطر مع البعث)، وتانيث، الورقة1. وفي هيغيغا، الورقة 9 ب، جاء أنّ الأرابوث (السّماء السّابعة) تحتوي مع أشياء أخرى على «النّدى الذي بها الواحد المقدّس... على وشك أن يحي الموتى».

وبحسب القرآن، فإنّ البعث سيشمل كلّ المخلوقات،[2] أي الْمَلاَئِكَة، والجنّ، والحيوانات، كما البشر. وبعد أن تنال الحيوانات الجزاء على الظّلم

(1) رفضت قريش ذلك: ﴿مَن يُعِيدُنَا؟﴾، فأجاب مُحَمَّد: ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (سورة الإسراء: 17/51). انظر كذلك سورة مريم: (19/66 ـ 67)؛ سورة يس (36/78، 79)؛ سورة القيامة (75/40)؛ سورة النّازعات (79/10 ـ 14).

(2) سورة الأنعام: 6/38.

الملحق بها، سوف تصبح رماداً.

لدينا في المأثورات الإِسْلاَمِيّة تعاليم إضافيّة تتّصل بالبعث، ويوم الحساب، التي لا حاجة للإشارة إليها هنا.

الآن، فيما يتعلّق بمصادر هذه الفكر والتّعابير الخاصّة بالبعث ويوم الحساب الواردة في القرآن والتّقاليد الإِسْلاَمِيّة، فإنّ الكثير منها، أو أكثرها، اقتُبس بشكل واضح من الكتب اليهوديّة والمسيحيّة المقدّسة، وثمّة صعوبة بسيطة في تعيين مصدرها. لقد أشرنا من قبل إلى مصادر بعض أسس العقيدة التي عالجنا مسبّقاً.

لقد رأينا أنّ التّعابير التي استعملها مُحَمَّد لتسمية يوم الحساب، مثل ﴿السّاعَةُ﴾، الـ﴿يوم﴾ هي من العهد الجديد، ووردت في عدّة أناجيل قانونيّة،[1] وتصريحه بأنّ ﴿السّاعَةُ﴾ لا يعلمها إلاّ اللّه مأخوذ من العهد الجديد،[2] أو ربّما كان مأخوذاً من الإشارة في سِفْر زَكَرِيّا (7/14) إلى «يَوْم» مجيء المسيح «المَعْرُوفُ لِلرَّبِّ». وثمّة أيضاً إشارة إلى «قرب مجيء السّاعة» في سورة الشّورى (17/42)، والتي تشابه ببعض الجوانب ما في إِشَعْيَاء (19/5).[3] وفكرة الحساب المرتبطة بتسجيل أعمال البشر في كتب سيحاسبون بها، ربّما

---

(1) مَتَّى: 36/24؛ 13/25؛ مَرْقُس: 32/13؛ يُوحَنَّا: 25/5؛ الرّؤْيَا: 17/6؛ 14/16؛ قارن إِشَعْيَاء: 3/13 («يوم الرّبّ»)؛ مَالاَخِي: 1/4 (« اليوم »).

(2) مَتَّى: 36/24؛ مَرْقُس: 32/13.

(3) ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ (سورة الشّورى: 18/42). «الْقَائِلِينَ: لِيُسْرِعْ. لِيُعَجِّلْ عَمَلَهُ لِكَيْ نَرَى» (إِشَعْيَاء: 19/5).

جاءت إمّا من سِفْرِ دَانِيال،[1] أو من سِفْرِ الرّؤْيَا.[2]

زيادة علىٰ ذلك، فإنّ ظهور الوحش،[3] والدّخان الذي يملأ الأرض،[4] والإشارة إلى يَأْجُوجَ وَمَأْجُوج،[5] كلّها متضمّنة في سِفْرِ الرّؤْيَا.

إنّ الوحش مذكور في سِفْرِ دَانِيالَ (7/7، 11) أيضاً، والدّخان من جانب النّبيّ يُوئِيل (30/2). وحكم اللّٰه على يَأْجُوج وَمَأْجُوج، وهزيمتهم وحرق أسلحتهم لمدّة سبع سنين، تعود إلى الفصل التّاسع والثّلاثين من حِزْقِيَال. كما ثمّة أيضاً أسطورتان يهوديّة ومسيحيّة تربط يَأْجُوج وَمَأْجُوج بنهاية العالم.[6]

ويُشار في كتب عديدة من العهد القديم إلى فساد الإيمان،[7] والكرب الكبير[8] في العالم، ومجيء المسيح الدّجّال،[9] ونزول المسيح على الأرض.[10]

---

(1) «فَجَلَسَ الدِّينُ، وَفُتِحَتِ الأَسْفَارُ» (دَانِيال: 10/7).

(2) الرّؤْيَا: 12/20، 13.

(3) الرّؤْيَا: 1/13 ـ 8؛ قارن دَانِيال: 7/7، 11.

(4) الرّؤْيَا: 2/9؛ قارن يُوئِيل: 30/2؛ أعمال: 19/2.

(5) الرّؤْيَا: 8/20؛ قارن: حِزْقِيَال: 2/38، 3؛ 1/39.

(6) يوحنّا المزيّف على اللّاوِيِّين: 44/26؛ انظر الرّؤْيَا: 8/20. وثمّة إشارة إلى يأجوج ومأجوج في التّلمود، سنهدرين، الورقة 94أ؛ وبراخوت، الورقة 7ب؛ والورقة 13أ. إنّ حروب يأجوج ومأجوج تبرز بقوّة في الآخرويّات اليهوديّة.

(7) لُوقَا: 8/18؛ مَتَّى: 12/24؛ رِسَالَةُ تَسَالُونِيكِي الثّانِيَةُ: 3/2؛ 1 تيموتاوس: 1/4.

(8) مَتَّى: 7/24 ـ 10؛ مَرْقُس: 8/13، 19، 20؛ لُوقَا: 23/21، 25.

(9) مَتَّى: 24/24؛ رِسَالَةُ تَسَالُونِيكِي الثّانِيَةُ: 3/2 ـ 10 («رجل الخطيئة»).

(10) مَتَّى: 30/24؛ مَرْقُس: 26/13؛ رِسَالَةُ تَسَالُونِيكِي الأولى: 16/4؛ رِسَالَةُ تَسَالُونِيكِي الثّانِيَةُ: 10/1؛ الرّؤْيَا: 7/1؛ قارن أيُّوب: 25/19.

وعهد السّلام العالميّ والوفرة اللّذين يليان قدوم المسيح، منقولان بشكل واضح من وصف إِشَعْيَاء لحكم المسيح الألفيّ على الأرض.[1] والنّفخ في الصّوَرِ لدى حلول البعث[2] مذكور أيضاً في العهد الجديد، لكن يبدو أنّ مُحَمَّداً اتّبع الإيمان اليهوديّ بتعدّد نفخات الصّوَرِ.

إنّ المكافأة في يوم الحساب على أعمال المرء مذكورة في كتب عديدة من العهديْن القديم والجديد. لكن لا يجب افتراض أنّ مُحَمَّداً استعار فكره بخصوص البعث ويوم الحساب مباشرة من كتب العهديْن القديم والجديد المقدّسة. لقد رأينا[3] أنّه ليس ثمّة دليل يثبت أنّ هذه الكتب المقدّسة قد تُرجمت إلى العربيّة قبل زمن مُحَمَّد. وكما إنّ كثيراً من الإشارات إلى هذه العقائد وغيرها من الموضوعات الكتابيّة؛ تختلف شكلاً عمّا في النّصوص الأصليّة الكتابيّة، وهذا ما أدّى بنا إلى استنتاج أنّ مُحَمَّداً لم يحصل على معرفته بالعهديْن القديم والجديد من السّجلاّت المكتوبة، لكن حاز عليها بأكثرها، إنْ لم يكن كلّها من النّقلِ ممّا سبّب وجود المفارقات التّاريخيّة[4] في القرآن، والتّعارضات التي حدثت بين الأسفار المقدّسة والنّسخة القرآنيّة. وبهذا الشّأن، علينا أن نتذكّر أيضاً أنّه كان من ديدن مُحَمَّدٍ إخفاء اقتباساته،

---

(1) إِشَعْيَاء: 1/9-9.

(2) مَتّى: 31/24؛ 1 كُورنْثُوس: 52/15؛ رِسَالَةُ تَسَالُونِيكِي الأولى: 16/4؛ قارن زَكَرِيَّا: 14/9. وحسب مارتشي فإنّ فكرة النّفختيْن ربّما تكون قد اقتُبست من رِسَالَةُ تَسَالُونِيكِي الأولى (16/4) («ورئيس المَلاَئِكَة يُنادي، وبُوق اللّهِ يَضربُ»).

(3) الفصل الأوّل.

(4) لقد خُلط بين مريم العذراء ومريم أخت هارون - سورة مريم (28/19)؛ وجُعل هامان معاصراً لِفرعون - سورة القصص (6/28). ويُشار إلى السّامريّين بأنّهم موجودون في عهد موسى - سورة طه (85/20، 87).

وعدم إعادة معلوماته أبداً في ذات اللّغة التي سمعها بها.[1] ويظهر زيادة على ذلك، أنّ مخبريه، أيّاً كانوا، كانوا على معرفة بالمأثورات التّلموديّة، والكتابات المنحولة (التي تحتوي إشارات إلى البعث، ويوم الحساب) أفضل من كتب العهدين القديم والجديد القانونيّة.

وثمّة فكر وتعابير كتابيّة مكرورة في القرآن في معرض الإشارة إلى ذلك الوقت، وهي: «مرور الجبال[2]»؛ «سقوط النّجوم[3]»؛ «انتزاع السّماء[4]»؛ «لف الشّمس[5]»؛ «ارتجاف الأرض والجبال[6]»؛ كلّها تبين كم كان مُحَمَّد مديناً للمسيحية، وبدرجة أقل لليهودية بالكثير من تعاليمه الآخروية.

إنَّ حشر الحيوانات[7] في يوم الحساب، المشار إليه في القرآن مثل

---

(1) انظر الفصل الرّابع. Hastings, *Encyclopædia of Religion and Ethics*, p. 875 (contribution by D. S. Margoliouth).

(2) سورة النّمل: 88/27؛ سورة الكهف: 47/18؛ سورة القارعة: 5/101. قارن: الرّؤْيَا: 14/4؛ 20/16؛ إِرْمِيَا: 24/4؛ مَتَّى: 35/24.

(3) سورة التكوير: 2/81؛ سورة الانفطار: 2/82؛ قارن: مَتَّى: 29/24؛ مَرْقُس: 25/13؛ الرّؤْيَا؛ 13/6؛ إِشَعْيَاء: 10/13؛ 4/34؛ يوئيل: 15/3.

(4) سورة التكوير: 11/81؛ قارن: الرّؤْيَا: 14/6؛ إِشَعْيَاء: 4/34. ويقول رودويل: إنّ الفكرة في سورة التكوير (11/81) «ربّما أُخذت من التّرجمة السّبعينيّة للمزامير: 2/104».

(5) سورة التّكوير: 1/81؛ قارن: مَتَّى: 29/24؛ مَرْقُس: 24/13؛ (لوقا: 25/21)؛ إِشَعْيَاء: 10/13؛ يوئيل: 10/2؛ 3؛ 15.

(6) سورة المزمّل: 14/73؛ قارن تلك الواردة في الهامش السّابق (ما عدا الأخير)؛ يوئيل: 16/3؛ لُوقَا: 26/21.

(7) سورة التّكوير: 5/81.

النّاس أو البشر، مشابه بالوصف لما في سِفْر الأَمْثَال،[1] ومذكور في التّلمود البابليّ؛[2] وثمّة إشارة إلى حسابها في حِزْقِيَال.[3]

يرد ذكر ﴿الْمِيزَانَ﴾ في القرآن، حيث إنّ الأَعْمَال الخيّرة والسّيئة، أو سجلاّتها ستوزن في يوم الحساب، وهي فكرة يهوديّة، وترد مراراً في التّلمود؛[4] «في الموازين سيمضون»؛ «إنّ كلّيّ الرّحمة سيميّل ميزان العدل إلى جانب المغفرة». لا شكّ في أنّ التّلمود قد حصل على الفكرة من العهد القديم، حيث ترد في عدّة كتب.[5] وثمّة إشارة معروفة جيّداً في سِفْر دَانِيال[6] إلى وزن بَيْلْشَاصَّر «في الموازين»، وربّما منها نشأت الفكرة التّلموديّة؛ بيد أنّ «إطار» الصّورة في دَانِيال مختلف عنه في القرآن.

ثمّة تشابه مدهش بين وصف «الميزان» الوارد في القرآن وفي الأحاديث الإسْلاَمِيّة، وذلك (المتضمّن في عمل منحول يُدعى عهد إبراهيم، الذي أشرنا إليه من قبل). ويبدو أنّ هذا الكتاب قد كُتب في مصر في القرن الثّاني أو الثّالث الميلاديّ من جانب يهود اعتنقوا المسيحيّة، وإذ ثمّة ترجمة عربيّة منه، فإنّ محتوياته غدت معروفة في الجزيرة العربيّة. ومن ثمّ، من المرجّح أنّ مُحَمَّداً كان على إطّلاع على الكتاب، أو على الأقلّ على بعض الفكر المتضمّنة فيه. وزيادة على ذلك، من المحتمل بشدّة كون الكتاب نظّم في مصر، إنّ مُحَمَّداً

(1) سورة الأنعام: 38/6. قارن الأَمْثَال: 25/30، 26.

(2) التّلمود البابليّ، إرشين، الورقة 3 («في اليوم الآتي كلّ الوحوش ستُحشر»).

(3) حِزْقِيَال: 19/34.

(4) ترجمة روش هاشّاناه، الورقة 17أ؛ تانيث (التّلمود البابليّ).

(5) أَيُّوب: 2/6؛ 6/31؛ اَلْمَزَامِير، 9/72؛ الأَمْثَال: 11/16؛ إِشَعْيَاء: 1/11، 15؛ دَانيال: 27/5؛ هُوشَعَ: 7/12؛ كذلك الرُّؤْيَا: 5/6.

(6) دَانِيال: 27/5.

حصل على هذه الفكر، واحدة منها هي فكرة «الميزان»[1] من ماريّة محظيّته القبطيّة التي أرسل بها المقوقس ملك مصر مع هدايا.

يُروى في هذا العمل أنَّ إبراهيم سيشهد على وزن أعمال الأشرار الطّيّبة والسّيّئة بـ «ميزان» يمسك به ملاك أمام العرش في يوم الحساب.

إنّ فكرة «الميزان» الذي يوزن به أفعال البشر بعد الموت، موجودة في الميثولوجيا المازداياسينيّة. ففي عمل بهلويّ قديم،[2] إنّ رشنو ملاك العدل وأحد ثلاث حُكّام الأَعْمَال، يمسك «الميزان»، الذي توزن به أعمال البشر بعد الموت، «إنّه لا يزن بظلم... لا للمتّقين ولا للأشرار أيضاً، لا للسّادة ولا للحكّام أيضاً؛ وهو لن يغيّر بمقدار عرض شعرة، ولن يبدي محاباة». ولا شكّ في أنّ هذه الفكرة الفارسيّة كانت منتشرة بين العرب في عهد مُحَمَّد، وكانت معروفة بالتّالي بالنّسبة للنّبيّ.

---

(1) عهد إبراهيم، العنوان 12، ص 91. إلى جانب الإشارة إلى «الميزان» ثمّة قضايا عديدة مذكورة في هذا العمل الذي يبدو أنّ مُحَمَّداً وأتباعه قد أخذوها وأدمجوها في الإسْلام، على سبيل المثال، «الملاكان الكاتبان»؛ «الملاكان اللّذان يأتيان كلّ روح في يوم الحساب»؛ «المشهد الذي نظر إليه مُحَمَّد حين دخوله السّماء الدنيا، في رحلة المعراج».

(2) مينوك إخارد (روح الحكمة)، 120/2، 121 (ترجمة ويست)؛ انظر (راشنو)، ياست: 12؛ ياسنا: 33/1؛ 48/8.

إنَّ مصطلح البهلويّة ينطبق على لغة نقوش الأسرة السّاسانيّة، إنْ كانت على الصّخور أو على القطع النّقديّة. ويُطلق الاسم الآن على «فارس القديمة» بالعموم. إنّ الأَعْمَال البهلويّة من نوعيْن: التّرجمات من الأَڤِستا؛ والكتابات التي بدون أصل أڤِستيّ باقٍ. إنّ مينوك إخارد من الكلاسيكيّة المتأخّرة. انظر فصول هاوگ الممتازة عن اللّغة والأدب البهلويّيْن (*Essays on the Parsis*, pp. 78–115).

بيد أنَّ هذه الفكرة بشأن «الميزان» الذي توزن به أعمال النّاس الطّيّبة والشّرّيرة بعد الموت هي فكرة مصريّة قديمة. فهي موجودة في تصوير «مشهد الحساب» في سِفر الأمواتِ المصريّ؛ وإنّ الكتاب قديم جدّاً.

يقول الدّكتور بوج: «إنّه... لقديم مثل الحضارة المصريّة،... وتعود مصادره إلى عهود ما قبل التّاريخ، والتي لا يمكن تعيين تاريخ... وإذا ما قبلنا تقليداً، كان رائجاً في مصر بعهد مبكر 2.500 قبل الميلاد، فنحن على حقّ في أن نؤمن بأنّ أجزاء محدّدة منه هي، في صيغتها الحاليّة قديمة مثل السّلالة الأولى».[1] وكان المصريّون القدامى يعتبرون الكتاب مرشداً إلى العالم الآخر، وكان من المعتقد أنّه يحتوي على أسرار الحياة الآتية؛ عندما يموت المرء فإنّ فصولاً منه كانت تُنقش على سور الضّريح وعلى تابوته، ونسخة منه كانت تُدفن مع موميائه كي ترشد الرّوح في طريق رحلتها إلى هناك.

بوسعنا الاستنتاج من الملحوظات المذكورة مسبّقاً أنّ المصدر الأبعد لفكرة مُحَمَّد حول «الميزان» توجد في الميثولوجيا المصريّة القديمة؛ وبينا ثمّة تصوّر مشابه بعض الشّيء في الميثولوجيا الزّرادشتيّة، فإنّ من الجليّ أنّ مُحَمَّداً حاز على الفكرة من عمل منحول يُسمّى عهد إبراهيم، الذي أُلف بالأصل في مصر، والذي يروي أنّ إبراهيم رأى كلّ روح وأعمالها توزن في «الميزان» يوم الحساب.

إنَّ الأَعْرَاف، «الحاجز»، أو «السّور» أو «الحجاب» الذي قيل في القرآن،[2] إنّه يوجد بين الجنة والنّار، حيث يقيم أولئك الذين تساوت أعمالهم الطّيّبة والشّريرة، ومن ثمّ، الذين لم يدخلوا الجنّة أو النّار، تتطابق مع فكرة مشابهة

(1) *The Book of the Dead*, vol. iii. p. xlvii.

(2) سورة الأعراف: 7/46 ـ 48.

موجودة في **عهد إبراهيم**.[1] جاء في هذا العمل أنّ إبراهيم رأى، بعد أن وُزنت أعمال الأرواح في «الميزان» أنّ أولئك الذين تساوت أعمالهم الطّيّبة مع الشّريرة تماماً لم يُمنحوا لا الجنّة ولا النّار، بل حُجزوا في منتصف الطّريق بينهما.

فكرة مماثلة موجودة في التّلمود. في روش هاشّاناه، الورقة 16ب، حيث نقرأ: «في يوم البعث ثمّة ثلاث فرق للبشر: الصّالحون تماماً، والأشرار كلّيّاً؛ والفئة المتوسّطة». وفي ذات الرّسالة (ر. هاش. الورقة 16ب)، جاء: «إنّ الكتب فُتحت في مطلع السّنة الجديد؛ واحداً للأشرار تماماً، وواحداً للصّالحين كلّيّاً، ووحداً لطبقة الأشخاص الوسط». وفي المدراش على الجَامعة: 14/7، وجواباً عن سؤال: «كم من المسافة بينهما» (الجنة والنّار)، فإنّ الحبر يُوحَنَّان يقول: «سور»؛ والحبر أخاه يقول: «شبر». «ويقول الأحبار: إنّهما قرب بعضها بعضاً، ومن هنا فإنّ أشعّة النّور تعبر من هنا إلى هناك»؛ و «يمكن لشخص أن يرى من الأولى إلى الثّانية».

إنّ الفكرة التّلموديّة قد تكون مأخوذة من قصّة إنجيليّة عن إِنْسَان غَنِيّ ولِعَازَرَ، وبحسبه فإنّ ثمّة «هُوَّةً عَظِيمَةً قَدْ أُثْبِتَتْ» بين مكان العذاب ومسكن المباركين.[2]

اقتفاءً لمصدر هذه الفكرة بشأن «عالم وسط» أكثر بعداً؛ نجد أنّ زرادشت قد علمها في الآفِستا، ويبدو أنّها المصدر النّهائيّ لتصوّر المكان الوسط، أو «مأو أولئك الذين تتساوى حسناتهم وسيّئاتهم». لقد رأينا أن الزَّرادشتيّة تحتوي على فكرة «الميزان» الذي يزن أعمال الأرواح بعد الموت. إنّ وزن

(1) عهد إبراهيم، ص 114.

(2) لُوقَا: 26/16.

الأَعْمَال فكرة أساسيّة في أخرويّات زرادشت، على الرّغم من أنّه، كما أشار مولتون في كتابه كنز المجوس، ص 35: «ثمّة ذكر وحيد له في گاثاس» (ياسنا: 8/48)،[1] «والكلمة الحاسمة هنا يجب أن تترجم بالحدس». على أيّ حال، إنّ الفكرة موجودة في تعاليم أفِستيّة متأخّرة (انظر مسبّقاً). وبعد أنْ آمن بفكرة وزن الأَعْمَال، فإنّه كان من الطّبيعيّ أن يطرح النّبيّ الإيرانيّ على نفسه سؤالاً، «ما مصير أولئك الذين تتساوى حسناتهم وسيّئاتهم؟» وعلى ذلك، ففي ياسنا: 1/33، علّم: «بما أنّه حسب القوانين ينتمي إلى الحياة الحاليّة، فإنّ القاضي سيحكم وفق أكثر الأفعال عدلاً تجاه الإنسان الكاذب، والإنسان الصّائب، وذلك الذي تتعادل لديه الأشياء الرّديئة والأشياء الجيّدة».[2] والمكان «المنفصل» المخصّص لأولئك «الذين تساوت أشياؤهم الزّائفة وأشياؤهم الحسنة» يُشار إليه في ياسنا (4/48): «يا مازدا، أيّاً يكن يعمل فكره الآن بشكل أفضل، الآن بشكل أسوء، وكذلك ذاته بالعمل والكلمة، ويتبع ميوله الخاصّة، ورغباته، وخياراته؛ فإنّه وفق مشيئتك سيكون في المكان المنعزل في النّهاية».[3]

ذات الفكرة موجودة في ياسنا: 1/33: «سيقوم بالأَعْمَال الأكثر عدلاً نحو الأشرار، وكذلك نحو الأخيار، وكذلك الذين تتساوى لديهم أعمال الخداع

---

(1) إنّ ترجمة مولتون لهذا المقطع: «يا أهورا مازدا، هل حيازة إقطاعيّتك الجيّدة لهو من مصيرك المؤكّد لي؟ أو هل تجلّيك، يا أيّها الحقّ، مرحّب به بالنّسبة للأخيار، وحتّى وزن الأَعْمَال من جانب الرّوح الخيّرة؟». ترجمة ميل (*The Zend-Avesta,* Part iii. p. 157)، لا تعطي هذه الفكرة.

(2) ترجمة مولتون، *The Treasure of the Magi*, p. 36.

(3) ذاته.

والصّواب (في معيار متساوٍ)».[1]

وفي القِنديداد عقيدة مشابهة في فارگاند (122/19): «أمجّد العالم الأوسط،[2] المخلوق بذاته».

يظهر ممّا سبق أنّ الأخرويّة الأفِستيّة بهذه الخصوص تشابه بعض الشّيء ما جاء في عهد إبراهيم، وكذلك في التّلمود. ومن ثمّ، علينا أن نعتبر المزدائيّة المصدر النّهائيّ لفكرة مُحَمَّد بشأن ﴿الأَعْرَاف﴾، أو الحاجز بين الجنّة والنّار، حيث توضع أرواح أولئك الذين تتعادل أعمالهم الخيّرة والسّيّئة.

ما زال علينا مناقشة مصدر ﴿الصِّرَاط﴾، وهو «الطّريق» أو «الجسر» الذي يمتدّ فوق النّار، والذي يتوجّب على الجميع عبوره بعد الحساب. إنّ الفكرة بوضوح زارادشتيّة، وكانت مأخوذة من العقيدة المزدائيّة بشأن جر تشينڤات، أو «جسر المحتشدين»، الذي يجب على الجميع عبوره قبل أن يستطيعوا دخول الجنّة؛ إنّ أرواح المتّقين وحدها قادرة على عبور هذه الجسر، بينا يسقط الأشرار منه إلى أسفل النّار.

---

(1) يقدّم ميلّس هذه التّرجمة، متبعاً البهلويّة ورروث. وعلى أيّ حال، فإنّه يميل إلى ترجمتها بشكل مختلف. ويقول: «لكن إذا كان روث والبهلويّة على حقّ، فإنّ لدينا هنا الهوميستاگا المتأخّرة، الأرواح في مكان متوسّط بين الجنّة والنّار، الذين تتساوى أعمالهم الطّيّبة والسّيّئة» (*The Zend-Avesta,* Part iii. p.72, n. 3.).

(2) إنّ هذه ترجمة بليك التي يتبعها لحدّ كبير البروفيسور شبيگل؛ (المجلّد: 1، ص 142، 144، ملحوظة 15). وترجمة دارمستتِر: «المكان الملكيّ للخير الأبديّ» لا تعبّر عن المعنى بشكل جيّد مثل ما لدى بليك: «العالم الأوسط»؛ أو ترجمة مولتون «المكان المنعزل» في ترجمته لياسنا: 4/48 (*The Treasure of the Magi*)، ص 36. ويترجم هاوگ (*Essays on the Parsis* p. 256.) المقطع في القِنديداد، فارگ.: 122/19، بـ «المنطقة الوسطى الخالقة ذاتها (بين الجنّة والنّار)».

إنّ جسر تشينفات،[1] الذي وصفه ميلس بـ «جسر القاضي» (ياس.: 11/46)، مذكور مراراً في الآفِستا، وكذلك في الكتابات البهلويّة المتأخّرة؛ وهو بند إيمان محدّد جدّاً في أخرويّات الپارْسيّين في العصر الحاليّ.

إنّ المزدائيّين الورعين في انسجام مع تعاليم ميهير ياست (1/10)،[2]

---

(1) كذلك يلفظ «تشينڤاد»، «كينڤات»، «كينڤاد»، بحسب مختلف الكُتّاب. إنّ الصِّرَاط هي المفردة الفارسيّة تشينفات في الأحرف العربيّة وهو لدليل إضافيّ على الأصل الفارسيّ للفكرة الإِسْلاَمِيّة عن «جسر» الأموات. وإذ ليس في ألف باء العربيّة المتأخّرة ما يمثّل صوت (تش)، إنّ الحرف (ص) الحرف الأوّل في مفردة صراط مستعمل بدلاً عنه.

إنّ كلمة تشينفات تعني «المحتشد» أو «المُجمّع»، أو «امرؤ يجمع» أو «يحسب» (الجذر مساو للمفردة السّنسكريتيّة चि √). ومن ثمّ «الحاجز».

إنّ المفردة الأفِستيّة الكاملة للبرج هي تشينڤاتو - پِرتو، «برج الذي يجمع»، «الذي يحسب» أرواح الأَعْمَال الطّيّبة والسّيّئة. ومن ثمّ «برج الحاجز»، كما في ياسنا: 10/46: «أولئك الذي أسوقهم إلى عبادتك، سوف أعبر بهم برج الحاجز».

إنّ «الحاجز» هو الإله الأعلى، أهورا مازداه، كما أشير في «أمامه هو الذي سيفصل الحكيم عن الجاهل عبر الحقّ، ومستشاره الحكيم، حتّى مازداه أهورا» (ياس.: 17/46).

إنّ «الفصل» بين الصّالحين والسّيّئين يجري قبل أنْ يتمّ عبور «الجسر» رغم أنّه رُوي أنّ قضاة الأموات الثّلاث، راشنو، ميثرا، وسراوشا سيقابلون الرّوح بعد عبورها «الجسر»، وتقاضى وفق حساب أعمالها الحسنة والسّيّئة. في حين إنّ الأشرار لن يعبروا قطّ، ذلك أنّهم سيسقطون أسفل النّار - وهو الاعتقاد الذي أخذه الإِسْلام من الزَّارادشتيّة.

إنّ البونداهيشنيّه (ص 22، ويست)، مؤلّف بهلويّ، يذكر جبل «تشاكاد إيدِتيه في وسط العالم بارتفاع قامة مئة إنسان، حيث يُنصب جسر تشينڤاد، وتُحاسب الرّوح في المكان».

(2) قارن فارنگ.: 6/18(14)، حيث جاء أنّ دراسة القانون ستجعل الإنسان «مبتهجاً لدى

يستحضرون ملاكاً يُدعى ميثرا، أو «صديق» (ميهير في الفارسيّة)، وهو «سيّد المراعي الواسعة»، وهو واحد من القُضَاة الثّلاثة في «الجسر»، لـ «ضمير نظيف» بحيث إنّ أرواحهم يمكن أن تعبر «الجسر» بأمان، وتدخل للأبد «بيت الغناء» فيدخل الصّالح الذي يحفظ الحقيقة، و «لا يكذب على ميثرا» ويُقدّم له أحصنة سريعة (لكي تأخذ مسارها المقدّس نحو الجنة)، «فيكسب بتلك الوسيلة (في نهاية المطاف) الجسور[1] حيث عبادتك (فتتمّ القوانين)». «كما ترغب، أيّها (الواحد) المقدّس؛ فتكون أنت، أيّها المقدّس ستكون سبباً لروح (ک) لكي تعبر على جسر كينڤات؛ أيّها المقدّس ستأتي إلى الجنّة» (ياس.: 16/71). بيد أنّ روح المرء الشّرّير ستثور بشراسة على جسر كينڤات المفتوح، حيث يكافح بلسانه (يشتم) لبلوغ (وتدنيس) دروب أشا (حيث تأتي أرواح المؤمنين) (ياس.: 13/51). مثل هذا المرء «يقتل روحه الخاصّة... ولن يجد طريقاً فوق جسر كينڤاد» (فارغ.: 3/13(6)). «وعندما يقتربون... من الجسر (فإنّ هؤلاء سيفقدون الدّرب ويسقطون)، وسيكون مثواهم خالدين أبداً في مسكن الكذب» (ياس.: 11/46).

ثمّة إشارات عديدة في الآڤستا[2] إلى جسر تشينڤاد، وبعضها في الأدب البهلويّ.

إن دينكارت أطول عمل بهلويّ باقٍ من إحدى عشر ناسكاً، أو كتاباً التي

رأس... الجسر».

(1) يقول ميلس (Z-Av. p. 174, n. 8): «من المحتمل أنّ توسيع الجسر للمتّقين نشأ من الاستعمال المتعدّد هنا». ياس.: 7/1.

(2) *Farg*. xviii. 6 (14); xix. 29 (94); *Yasht*, xxiv. 27; (note in the last two references the designation of the Bridge by the term 'way,' as in the Qur'an); *Sirozah*, i. 30; *Visp*. vii. 1; etc.

تشكّل كامل الكتب المزدائيّة المقدّسة، وفي أحدها يُدعى دامداد ثمّة إشارة إلى تجمّع وفصل لدى برج تشينفات. والإشارات الكثيرة في التّقاليد الإسْلاَمِيّة عن ﴿الصّرَاط﴾ الذي يغدو طريقاً واسعاً وآمناً لأقدام المتّقين، لكنّه يصبح أحدّ من السّيف، وأدقّ من الشّعرة، موجودة في عمل بهلويّ يُدعى مينوخيراد، وأرتا ڤيراف. ويقول الأوّل: «عندما تعبر روح المتّقي على الجسر، فإنّ عرض ذلك الجسر يصبح حوالي فرسخ»[1] ويقول الثّاني: «يمتدّ برج كينڤاد على النّار، ويؤدّي إلى الجنّة: ذلك أنّه يصبح أوسع لأرواح المتّقين بمسافة تسعة رماح؛ وبالنّسبة لأرواح الأشرار يضيق إلى حدّ الخيط، فيسقطون في النّار».[2]

من الواضح من الاستشهادات أعلاه، أنّ مصدر فكرة ﴿الصّرَاط﴾ الإسْلاَمِيّة، أو «الجسر» الذي على جميع الأرواح أن تعبر فوقه بعد الموت من الآڤِستا والأَعْمَال البهلويّة المتأخّرة الذي أخذت منها التّقاليد الإسْلاَمِيّة تفاصيل عديدة بشأنه.

ويتعزّز هذا الاستنتاج بدراسة اشتقاق مفردة ﴿صرَاط﴾ الذي ليس عربيّاً، بل فارسيّ من المفردة تشينڤات بأحرف عربيّة.

ثمّة إشارة إلى «جسر الإله» في الميثولوجيا الاسكندينافيّة القديمة التي تشير إلى الأصل الآريّ للأسطورة. وربّما كانت الفكرة أُوحيت بها لذهن عُبّاد الطّبيعة القدامى من الاعتقاد بأنّ قوس قزح أو درب التّبّانة جسر تعبر عليه الآلهة من السّماء إلى الأرض. كما كان الفرس يشتركون بهذا الاعتقاد معهم، قبل أن تفصلهم تشينڤات الزّرادشتيّة، وفي أغلب الاحتمالات، يعود أصلها إلى هذه الأسطورة الآريّة.

---

(1) P. 134 (Westergaard).

(2) *Arta Viraf*, v. 1.

تتحدّث التّقاليد اليهوديّة عن جسر النّار الذي يُوصف في مِدراش بالكوت بأنّه رفيع كالخيط؛ لكنّ الوثنيّين فحسب سيعبرون عليه، وسيسقطون منه إلى النّار. وأُخذت الفكرة اليهوديّة عن الفرس.

ثمّة مذهب إسْلاَمِيّ يجب أن يُدرس بشأن الجنة والنّار، الذي له علاقة وثيقة بالإيمان الإِسْلاَمِيّ بالبعث ويوم الحساب. وكون الفصل الحاليّ قد تطاول إلى حدّ ما، فسوف ندرس التّعاليم الإِسْلاَمِيّة بخصوص الجنّة والنّار في فصل مستقلّ ـ وهما الموضوعان الباقيان في الأخرويّة الإِسْلاَمِيّة.

الفصلُ السّابع

الجنّة والنّار

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً، حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً، وَكَوَاعِبَ... وَكَأْساً دِهَاقاً[1]﴾

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ! فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ، وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ[2]﴾

يحتوي القرآن على إشارات كثيرة إلى الجنّة والنّار. وثمّة إشارة ما إليهما من جانب مُحَمَّدٍ في كلّ السّور الرّئيسة، وحتّى إنّه بوسعنا أن نقول تقريباً في كلّ سورة.

في الواقع، إنّ أهوال «اليوم»، والإنذار بعذاب النّار للأشرار، والنّعم الحسّيّة في «الجنّة» للمؤمنين، تشغل مكاناً بارزاً في عظات النّبيّ لدى مستهلّ رسالته أكثر من مذهبه الأساسيّ بشأن وحدانيّة اللّه؛ وتشغل مثل هذه الإشارة إلى الجنّة والنّار نحواً من سُدس القرآن.

وبحسب القرآن، ثمّة سبع مقامات أو أقسام للأخيار،[3] الواحد فوق الآخر؛

(1) سورة النّبأ: 78/31ـ34.

(2) سورة الواقعة: 56/41ـ43.

(3) سورة البقرة: 2/29؛ سورة الإسراء: 17/44؛ سورة المؤمنون: 23/17 (حيث جاء فيها

وسبع مناطق، أو مداخل للعذاب،[1] الواحد أسفل الآخر. ويوجد في الجنة مقامٌ ثامن، وبوّابة تفضي إليه أيضاً، ورُوي أنّه يقع فوق السّماء السّابعة، تحت عرش اللّه.[2]

في القرآن أسماء مختلفة لهذه الأماكن،[3] التي أوّلها بعض المفسّرين أنّها تشير إلى درجات مختلفة لسعادة المؤمنين.

إنّ كلتا الفكرتيْن القرآنيّتين بصدد الجنّة والنّار أخذتا من التّلمود، أو من التّقاليد اليهوديّة المؤسّسة عليهما. الفكرة الأولى، بصدد الجنّة موجودة في هيغيغا، الورقة 9 ب، حيث يرد القول: «ثمّة سبع سموات: الحجاب

﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾، هي عبارة تلموديّة)؛ سورة فصّلت:12/41؛ سورة الطّلاق: 12/65؛ سورة الملك: 3/67؛ سورة نوح: 15/71؛ سورة النّبأ: 12/78 [العبارة الواردة هنا ﴿سَبْعاً شِدَاداً﴾ وهي صفة جاءت في التّلمود حول السّماء الخامسة؛ قارن براخوت (التّلمود البابليّ)، الورقة 2، العمود 1].

(1) سورة الحجر: 44/15.

(2) مشكاة المصابيح، الكتاب السّابع، الفصل الأوّل («في الجنة ثمانية أبواب، ويُسمَّى أحدها الرّيّان»).

(3) الأسماء الواردة: ﴿جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾، سورة الفرقان (15/25)؛ ﴿ دَارُ السَّلَامِ﴾، سورة الأنعام (127/6)، سورة يونس (25/10)؛ ﴿دَارُ الْقَرَارِ﴾، سورة غافر (39/40)؛ ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾، سورة التّوبة (72/9)، سورة الرّعد (23/13)؛ ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾، سورة النّجم (15/53)؛ ﴿نَعِيمٍ﴾، سورة الانفطار (13/82)؛ ﴿عِلِّيِّينَ﴾، سورة المطفّفين (18/83)؛ ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾، سورة الكهف (107/18).

الأسماء الواردة بشأن النّار هي: ﴿جَهَنَّمَ﴾، سورة مريم (68/19، 86)؛ ﴿لَظَى﴾، سورة المعارج (15/70)؛ ﴿الْحُطَمَةِ﴾، سورة الهمزة (4/104، 5)؛ ﴿سَعِيراً﴾، سورة النّساء (10/4)؛ ﴿سَقَرَ﴾، سورة القمر (48/54)، سورة المدّثّر (42/74)؛ ﴿الْجَحِيمِ﴾، سورة البقرة (119/2)؛ ﴿هَاوِيَةٌ﴾، سورة القارعة (9/101).

(ڤيلون)، والقبّة الزّرقاء (راكيا)، والسّحب (شِهاكيم)، والمسكن (زبول)، والمقام (ماون)، والكرسيّ الثّابت (ماخون)، والأرابوث، أو مكان المجد».
وربّما جاءت الفكرة من العهد القديم: «هُوَذَا لِلرَّبِّ إِلهِكَ السَّمَاوَاتُ وَسَمَاءُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضُ وَكُلُّ مَا فِيهَا».[1]

ولدينا في زوهار نظير الفكرة القرآنيّة بشأن النّار، فنقرأ: «للنّار سبع بوّابات».[2] ويقول المِدراش على اَلْمَزَامِير (11) أيضاً: «ثمّة سبع مقامات في النّار للأشرار».

وجاء في التّلمود (سوتا، الورقة 10ب) إنّ داود حرّر أبسالوم من «دور النّار السّبعة».

وتوجد عقيدة هندوسيّة مشابهة مذكورة في الأدب السّنسكريتيّ، تتحدّث عن سبع مقامات دنيا أسفل سطح الأرض، وسبعة أدوار عليا فوقها.

وتذكر الميثولوجيا الفارسيّة سبع سموات، وتتكلّم الأڤِستا عن «الكارشڤارات السّبع أو أقاليم الأرض».[3] تدلّ هذه وقضايا الإيمان الأخرى المشتركة بين الهندوس والزّرادشتيّين على الأصل المشترك لهذين العرقين بشكل إضافيّ.

---

(1) التَّثْنِيَة: 14/10.

(2) *Zohar*, ii. 150.

يمكن لحظ أنّ سيّد أمير عليّ في كتابه روح الإِسْلام، ص 387، 394، يتحدّث عن فكر القُرْآن التّلموديّة بشأن النّار.

(3) *Avesta, Vend. Farg.*, xix. 13 (42); *Yast*, viii. 9, 33, 40; xix. 31..

وتحدّث الهندو ـ فارسيّون القدامى عن العوالم السّبع التي صارت في فارس الكارشڤارات السّبع للأرض. وهذا ذكر في (*Farg.*, xix. 39 (120)).

إنّ الفكرة التّلموديّة بشأن الجنّة مشابهة في نواحٍ كثيرة لما جاء في القرآن وتسهم الآڤِستا ببعض النّصيب في جنّة المسلمين.

اعتبر اليهود الجنّة حديقة بهيجة تبلغ السّماء السّابعة،[1] وأنّ لها بوّابات وأربع أنهر من ماء، وخمر، وحليب، وعسل.[2] وكان اسم «جنّة عدن» إحدى أسماء الجنّة الحبريّة؛ «كان ديدن الحبر إليزار القول لدى نهاية الصّلاة: لتكن مشيئتك، أيّها الرّبّ... لتجعل نصيبنا في جنّة عدن». يرد اسم «عدن» مراراً في رسالة براخوث للإشارة إلى الجنّة: «فلنُمنح متعة السّعادة في عدن»؛ «أعملُ لأستحقّ عدن». وفي عمل منحول يُدعى ڤيزيو پاولي (الفصل 45)، يُروى أنّ بولس صعد إلى السّماء، ونظر إلى أنهر الجنّة الأربعة.[3]

تتكلّم الآڤِستا عن «السّعادة المشرقة، والمقام المبارك»[4] الذي فيه «تتذوّق الرّوح المتعة أكثر من كلّ ما يمكن للعالم الحيّ أن يتذوّقه»؛[5] وتشير إلى طعام وزيت (أو زبدة)[6] الجنّة، ذات العبير الطّيّب[7] التي سيُزوّد بها المقيمون. وتذكر أيضاً عذراء جميلة وضيئة تامّة كأجمل ما تكون العذارى، التي تلتقي الرّوح الخالصة في الجنّة بوصفها تمثل سيرة حياته ـ فكره الجيّدة، وكلاماته

(1) *Taanith* (*Gemara*), fol. 25. *Berakhoth*, fol. 34.

(2) *Megillah, Amkoth*, p. 78: *Midrash Yalkut*.

(3) وهي تتطابق مع الأنهر الأربعة، التي رآها مُحَمَّدٌ، حسب التّقاليد المُحَمَّديّة، أثناء المعراج.

(4) *Sirozah*, ii. 27; cf. *Yasna*, xxxi. 12 (heavenly abodes); *Fargand*, xix. 36 (122).

(5) *Yast*, xxii.

(6) *Ibid*. 18.

(7) *Ibid*. 7, 8.

وأعماله.[1] ثمّة أيضاً البِريكات الأفِستيّة[2] أو العذارى الجميلات، «حوريّات ذات جمال لكن بخطٍّ مائل» التي ستصبح الحوريّات سوداوات العيون في الجنّة الإِسْلاَمِيّة.

لقد أخذ مُحَمَّدٌ فكره هذه عن حديقة الجنّة، حيث توجد أنهار الماء، والحليب، والخمر، والعسل،[3] وفواكه وافرة، وأضاف إلى المسرّات الحسّيّة صوراً حيّة من المتع والشّهوانيّة المادّيّة؛ وأنّ المؤمنين سيلبسون ثياباً من الحرير، ويتّكئون على الأرائك والبسط الجميلة،[4] وسوف يقدّم لهم غلمان[5]

---

(1) *Yast*. xxii. 9, 11; *Farg*. xix. 30 (98).

(2) *Vendidad, Farg*. i. 10 (36); viii. 80 (250); xi. 12 (38); xx. 10 (25), 12 (29); xxi. 19, 21; *Yast*, i. 10; iii. 5; iv. 4; v. 13, 22, 50; vi. 4; viii. 8, 12, 39, 44; x. 34, 59; xi. 6; xiii. 135; xiv. 4, 62; xv. 12; xix. 41; xvi. 8.

لقد غدت البِريكات (كما تُدعى في الفارسيّة المعاصرة، الپارييات) فيما بعد إغراءَ الوثنيّة. إنّ المفردة القُرْآنيّة ﴿حُورٌ﴾ التي تشير إلى الحوريّات، ربّما جاءت من «هفاره» الأفِستيّة («هور» في البهلويّة، وفي الفارسيّة المعاصرة «خور») ترمز «للضّوء» أو «أشعة الشّمس». إنّ الإيمان بوجود هذه العذارى السّماويّات هو من أصل آريّ، كما إنّ البِريكات الأفِستيّة تتطابق مع أپساراسات الهندوسيّة (مخلوقات النّور)، المذكورة في الأدب السّنسكريتيّ التي تسكن स्वर्ग (سفارگا)، السّماء أو جنّة إندرا. وهذا مؤشّر آخر على أنّ الإيرانيّين والهنود من أصل آريّ.

(3) سورة آل عمران: 15/3؛ سورة يونس: 9/10؛ سورة الرّعد: 35/13؛ سورة مُحَمَّد: 15/47؛ سورة الذّاريات: 15/51؛ سورة الطّور: 22/52؛ سورة الرّحمن: 50/55، 52، 66، 68؛ سورة الواقعة: 31/56، 32.

(4) سورة يس: 56/36؛ سورة الرّحمن: 54/55، 76؛ سورة الواقعة: 15/56، 16.

(5) سورة الطّور: 24/52؛ سورة الواقعة: 17/56، 18.

أو شبّان الجنة الخالدون اللّحم والفواكه الوافرة،[1] وخمرة لا تسكر أو تصيب الرّأس بصداع.[2] وسوف يكون لديهم زوجات حوريّات سوداوات العيون[3] أو عذارى الجنّة الجميلات. باختصار، ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ[4]﴾.

وتوجد في الجنة الإسْلاَمِيّة شجرة «الصّلاح» تُدعى «طُوبَى»، التي تتطابق مع شجرة الحياة المذكورة في سِفْر التّكْوِين. إنّ التّقاليد الإسْلاَمِيّة في شرحها لهذه الشّجرة، قد أُخذت بجلاء من الأساطير اليهوديّة.[5]

ثمّة ذكر في الآفِستا لشجرة مدهشة تُسمّى هفاپا[6] وكذلك گاوكِرنا[7] ـ

(1) ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ، وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾؛ سورة الواقعة: 32/56، 33. ثمّة إشارة هنا إلى ثمر شجرة المعرفة «المحرّمة» في الجنّة الدّنيويّة.

(2) سورة الصّافّات: 45/37، 47.

(3) سورة الصّافّات: 48/37؛ سورة الطّور: 20/52؛ سورة الرّحمن: 56/55، 70 ـ 74؛ سورة الواقعة: 22/56 ـ 23، 35.

(4) سورة الفرقان: 16/25؛ سورة يس: 57/36؛ سورة الشّورى: 22/42؛ سورة الطّور: 22/52؛ سورة ق: 35/50.

(5) في البِراخوث (التّلمود الأورشليميّ) الورقة 2ب، العمود 1 جاء: «إنَّ شجرة الحياة كانت من الطول بحيث كان يلزم خمس مئة سنة لتسلّقها». وقال ر. يهوذا «... إنّ جذعها ذاته له هذا الطّول»؛ قارن ترجوم جوناثان. إنّ المسلمين يخلطون بين هذه الشّجرة وبين شجرة المعرفة، ويقولون: إنّه عندما عرضت نفسها على آدم، مغرية إيّاه ليأكلها، فإنّه لكي يتجنّبها نهض إلى طوله الكامل «رحلة 500 سنة»، بيد أنّ الشّجرة بقيت تتوازى مع مستوى فمه. قصص الأنبياء، ص 17.

(6) *Vend. Farg.* v. 58.

(7) *Vend., Farg.* xx. 4 (17).

شجرة العلاجات الجيّدة[1] التي تنمو في منتصف بحر ڤورو- كاشا والمحاطة بعشرة آلاف نبتة طبيّة، ومَنْ يأكلْ (أو يشربْ) من هذه الشّجرة يصبحْ خالداً لدى البعث.[2]

ولدى الهندوس شجرة تُسمّى پاكشاجاتي، تنمو في حديقة سماء إندرا، وتحمل ثمرة تُسمّى أمريتا التي تهب الخلود لأولئك الذين يأكلون منها.[3]

يظهر ممّا سبق أنّ التّصوّر الإسْلاميّ عن شجرة «طُوبَى» كان مشتقّاً جزئيّاً من المصادر اليهوديّة وجزئيّاً من الزّرادشتيّة.

مساع بُذلت من جانب المدافعين عن الإسْلام لإظهار أنّ تصاوير مُحَمَّد الحسّيّة للجنّة هي مثل الأوصاف الواردة في سِفْر الرّؤْيَا، مجازيّة فحسب. وهذه المحاولات قام بها بشكل أساسيّ المسلمون ذوو الحسّ الأخلاقيّ العالي،[4] الذين تأثّروا بالثّقافة الغربيّة والفكر المسيحيّ؛ أمّا رجال الدّين المسلمون التّقليديّون فهم على أيّ حال، يتّفقون على وجوب تقديم تفسير حرفيّ لأوصاف الجنّة هذه، تماماً مثل عذاب الأشرار في النّار، كما جاء

(1) *Yast*, xii. 17.

(2) *Bundahis*, xlii. 12; lix. 9, 4. *Vide Avesta*, vol. i, Intro. iv. 28, p. lxix (Darmesteter).

ثمّة هاومايان: الأولى صفراء أرضيّة وتُستعمل للأضحية (*Bund*. lviii, 10)، والأخرى «هاوما البيضاء» أو «گاوكِرنا» شجرة الحياة الأبديّة.

(3) تشير هذه بدورها إلى الأصل المشترك للعرقيْن. ويجب لحظ أنّه حسب الاعتقاد الإسْلاَمِيّ، فإنّ جنّة عدن كانت تقع في السّماء، ومن هنا فهم ينقلون معالم الجنّة الأرضيّة إلى السّماويّة، وكما أنّهم لا يميّزون بين شجرة الحياة، وشجرة المعرفة.

(4) *E.g.* Mirza Ghulam Ahmad. *Vide* his *Teaching of Islam*, pp. 118, 134-42, 158; cf. *ibid*. pp. 78, 103, 175, 176, 183.

وصفها وشرحها في القرآن حرفيّاً.

بدون شكّ، كان مُحَمَّد في وصفه لمتع الجنّة القرآنيّة متأثّراً باللّغة المجازيّة للكتب المقدّسة والأدب التّلموديّ،[1] وتصوّره عن الأنهر الأربعة والفاكهة والظّلال، وعدم الجوع والعطش؛ يمكن أن يكون قد نشأ بشكل رئيس من هذه المصادر. لكن بينما نقرّ بذلك، فإنّه يتوجّب الاعتراف بأنّه لا يوجد ظلّ لأيّ فكرة شهوانيّة ترتبط بالجنّة كما وُصفت في سِفْر الرّؤْيَا، أو في أيّ جزء من الكتب المقدّسة اليهوديّة والمسيحيّة. بل على العكس، إنّ هذه الكتب، تعلم بشكل قاطع إلغاء كلّ العلاقات الأرضيّة في الجنة؛ «عندما يقوم المَوْتى، لا يتزوَّجونَ ولا يُزوَّجُونَ، بل يكونون مِثل الْمَلاَئِكَة في السّماءِ» (مَتَّى: 30/22) ومن ثمّ، علينا أن نرجع الأجزاء الشّهوانيّة من جنّة مُحَمَّد إلى نزعته الشّهوانيّة الخاصّة.

يتأتّى علينا لحظ أنّ هذه التّصاوير الحسّيّة للجنّة جاءت في القرآن في السّور المكّيّة أو المبكرة، عندما كان لدى مُحَمَّد زوجة واحدة فحسب؛ وهي أسنّ منه بكثير. وفي جميع السّور المدنيّة التي تمتدّ على عشر سنين بعد الهجرة، لم يرد ذكر النّساء سوى مرّتيْن[2] بوصفهنّ إحدى متع الجنّة، وفي هذه الكلمات البسيطة: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾.

ربّما كانت حياة مُحَمَّد المعتدلة في مكّة ترجع لسلطان زوجته خديجة،

---

(1) انظر ميشنا أبوث: 17/4؛ ويصف مُحَمَّدٌ أيضاً مشقّة دخول الجنّة بمصطلحات مشابهة لما في العهد الجديد وفي التّلمود؛ سورة الأعراف (40/7): ﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾؛ قارن مَتَّى: 24/19؛ مَرْقُس: 25/10؛ لُوقَا: 25/18. ويستبدل الأحبار اليهود «الْجَمَلَ» بـ «الفيل» (גְּמָא דִמְעַיֵּל פִּילָא בְּקוֹפָא דְמַחְטָא).

(2) سورة البقرة: 25/2؛ سورة النّساء: 57/4.

التي كان مديناً لها برغد من العيش، والتي كانت تمسك بيدها زمام التّصرّف بثروتها.

إنّ غياب هذه التّفاصيل المتعلّقة بمتع الجنّة الجسديّة في السّور المدنيّة التي وردت في «التّنزيل» المكّيّ ربّما كان يعود إلى الاتّصال الوثيق لمُحَمَّد مع اليهوديّة، وما تبع ذلك من وعي أخلاقيّ أرفع، أو ربّما كان السّبب إشباعه الخاصّ، وانغماسه في هذه المتع بشكل كامل بدون قيد في المدينة.

بعد شهرين من موت خديجة، تزوّج مُحَمَّد سودة، أرملة سكران، وخطب عائشة التي كانت تبلغ من العمر ستّ أو سبع سنين وقتها، والتي سيتزوّجها لاحقاً بعد ثلاث سنين.

لقد اختُلقت الأساطير لتظهر كيف أنّ مُحَمَّداً عندما كان شابّاً يرعى غنمه بسفح جبل، حفظته العناية الإلهيّة من الخطيئة عندما ذهب إلى المدينة ليلاً للتّمتّع بالملذّات المحرّمة. وزيادة على ذلك، قدّم الأطبّاء استنتاجاً حول صفته الأخلاقيّة من موت أبنائه في الطّفولة،[1] وكلّ بناته كذلك، أو قبل أن يبلغوا منتصف العمر.

الآن فيما يخصّ «البوّابات» السّبع أو منازل الجحيم، لقد رأينا أنّ مُحَمَّداً أخذ هذه الفكرة من التّلمود، والذي يتطابق وصفه في نواح عدّة مع ما جاء في القرآن. وذكر مُحَمَّد أيضاً الشّجرة الملعونة[2] التي تطلع من أسفل النّار، والتي سيأكل الأشرار من ثمرها الكريه أو المرّ وسط ريح مهلكة.[3] وقال: إنّ شرابهم

(1) ردّت سورة الكوثر (108) على كلّ من سخر من مُحَمَّد بسبب موت أبنائه في الطّفولة.

(2) الزَّقُّوم: سورة الإسراء: 60/17؛ سورة الصّافّات: 62/37، 64 ـ 66؛ سورة الدّخان: 43/44؛ سورة الواقعة: 52/56.

(3) سورة الواقعة: 42/56.

في النّار حميم.[1]

ربّما كانت شجرة الجنّة قد أوحت لمُحَمَّد بفكرة شجرة النّار؛ أو ربّما كان مديناً بالفكرة للتّقاليد اليهوديّة التي تقول: إنّ طعاماً عشبيّاً مرّاً أحد عقوبات النّار.[2]

إنّ الفكرة الزّرادشتيّة عن النّار كما وردت في الآﭬستا التي كان مُحَمَّد بدون شكّ على إطّلاع عليها، أثّرت فيه في وصف مكان العذاب.

. آمن المجوس بغرف النّار السّبع،[3] التي جاء وصفها في ﮔاثاس بأنّها «الموجود الأسوأ»،[4] «بيت الكذب»،[5] أو «الفكرة الأشدّ رداءة».[6] وهنا فإنّ روح الشّرّير «تختبر من الآلام أكثر ما يمكن لكلّ العالم الحيّ أن يختبر».[7] إنّه مكان قذر،[8] ومنتن،[9] فيه يُقدّم طعام سامّ وكريه،[10] والرّوح تقطن في ظلام مقام الكذب بين ريح نتنة ومؤذية.

في هذا السّياق، يمكن إيراد مقطع من ﮔاثاس: «لكن أولئك أصحاب

(1) سورة الصّافّات: 37/67؛ سورة الواقعة: 56/54.

(2) *Vide* Schroder's *Rabb. Und. Talm. Judenthum*, p. 403.

(3) Hyde, *De Rel. Vet. Pers.* p. 245.

(4) أو «الحياة الأسوأ»، *Yasna*, xxx. 4.

(5) *Yasna*, xlvi. 11; li. 14; xlix. 11. كذلك يُدعى «بيت الهلاك» (دراﮔودمانا).

(6) أو «العقل الأسوأ»، *Yasna*, xxxii. 13; xxx. 6.

(7) *Yast*, xxii. 4.

(8) *Yast*, xxii. 25.

(9) *Yast*, xxii. 25.

(10) *Yast*, xxii. 36; *Yasna*, xxxi. 20; xlix. 11.

السّلطان الشّرّير، والأعْمَال الشّرّيرة، والكلمات الشّرّيرة، والنّفس الشّرّيرة والفكر الشّرّير، رجال الكذب، ستصعد الأرواح لمقابلتهم بطعام كريه: سيلقون القاطنين في بيث الكذب».[1]

إنّ هذا العقاب أبديّ لـ «رجال الكذب»، مثلما متعة المتّقين أبديّة في «بيت الغناء»؛[2] وخالدة هي نفس المتّقين وسعيدة، و «رجال الكذب» في العذاب الأبديّ.[3]

إلى جانب الأوصاف التّلموديّة للنّار التي استنسخها مُحَمَّد بشكل كبير، كان لديه أيضاً هذه النّار الگاثية التي كان بوسعه أن يأخذ منها لتعاليمه القرآنيّة بصدد المسألة.

يتكلّم التّلمود عن «أمير الظّلام»،[4] الذي يسمّيه الأحبار اليهود שר של גהנם. وتذكر الآفِستا ملاكاً أو جنّيّاً من نار يُدعى أدهار (أو أتار).[5] لكنّ النّار، بحسب الآفِستا، هي إحدى العناصر المقدّسة،[6] ومن ثمّ، ليست من أدوات العذاب في الجحيم.

(1) *Yasna*, xlix. 11; *Yasna*, xxxi. 20.

(2) گارا ـ دِمانا (گاروتمان في الفارسيّة المتأخّرة) وهو بيت أهورا مازدا، و «المباركين» (*Ys.* li. 15). قارن العبارة الجميلة لكريستينا روسّتي: «وطن الموسيقا»؛ كذلك موطن «الأغنية الجديدة» في الرّؤيا.

(3) *Yasna*, xlv. 7: cf. *Yasna*, xlvi. 11.

(4) انظر أوثيوث للحبر عقيبة: 1/8: «يقول أمير الظّلام يوميّاً: أعطني طعاماً كافياً»؛ قارن: سورة ق: 50/30؛ مِدراش يالكوت، ج 2، الورقة 116.

(5) *Yast*, x. 127; ii. 4, 9; xix. 45-50; xxiv. 26, 40, 59; *Sirozah*, i. 9; ii. 9; *Yasna*, xlvii. 6 ('By thy Fire').

(6) *Fargand*, v. 9 (29); *Vide ante*, p. 39, note 4.

زوّد «أمير الظّلام» اليهوديّ مُحَمَّداً بفكرة الملاك مالك الذي يُذكر في سورة الزّخرف (43/77)، والذي يعتبره المسلمون رئيس الْمَلاَئِكَة التّسْعَةَ عَشَرَ حرّاس النّار.[1] وفي الآية السّابقة يُناشد من قِبل أولئك الذين يقاسون عذاب النّار: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ! لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ، قَالَ: «إِنَّكُم مَّاكِثُونَ»﴾.

لقد رأينا من قبل[2] أنّ مُحَمَّداً أخذ اسم هذا الملاك من إله كنعانيّ يُسمى مولوخ، الذي كان يُقدّم إليه أضحية بشريّة حرقاً.

إنّ درجات عذاب النّار وديمومتها،[3] التي يذكرها القرآن[4] هي فكر من العهد القديم، وهي موجودة أيضاً في تعاليم الأَفِستا؛[5] أو بالأحرى المذهب الأخير علّمها بصراحة، والأوّل بشكل غير مباشر. وفي صورة زرادشت، وكما يشير مولتون في كتابه[6] ثمّة مكان صغير لتدرّج العقوبة.

يعلّم القرآن أيضاً أنّ المؤمنين كما الكافرين سيذهبون إلى النّار،[7] لكنّ المؤمنين الصّادقين لن يمكثوا في النّار أبداً. إنّ «المؤمنين» سيُحرَّرون في نهاية المطاف بعد أن يكفّروا عن سيّئاتهم.[8] لقد عالجنا هذه المسألة ببعض الطّول

---

(1) سورة المدّثّر: 30/74، 31.

(2) الفصل الرّابع.

(3) سورة الفرقان: 69/25؛ سورة الأنعام: 129/6؛ سورة الأعراف: 4/7.

(4) سورة البقرة: 81/2؛ سورة الأنعام: 128/6؛ سورة هود: 107/11؛ سورة الفرقان: 66/25؛ سورة فاطر: 36/35.

(5) *Yasna*, xlv. 7; xlvi. 11.

(6) *Treasure of the Magi*, p. 38.

(7) سورة مريم: 71/19.

(8) سورة مريم: 72/19.

من قبل في الفصل السّابق، وبالنّسبة لما قيل مسبّقاً، نحتاج إلى أن نضيف شيئاً واحداً هنا، هو أنّه كان لدى اليهود اعتقاد مماثل بأنّه لن يبقى يهوديّ في النّار، إلّا لبعض الوقت.[1] وكان مُحَمَّد مطّلعاً على هذا الاعتقاد اليهوديّ، وهذا ما تشير إليه سورة البقرة (80/2)، حيث نقرأ: ﴿وَقَالُواْ (اليهود): «لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً»﴾. وقد ورد معنى مشابه في سورة آل عمران (24/3).

إنّ مُحَمَّداً يرتاب في هذا الاعتقاد اليهوديّ، وفي معرض جوابه يقول: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ[2]﴾؛ وهو بذلك رفض الاعتقاد عندما تعلّق باليهود، بينما في «تنزيل» آخر تبنّاه بخصوص المسلمين.

يوجد في القرآن إشارات أخرى إلى النّار التي جاءت من المصادر اليهوديّة والمسيحيّة بشكل واضح. ففي سورة ق (30/50): ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ: «هَلِ امْتَلأْتِ»؟ وَتَقُولُ: «هَلْ مِن مَّزِيدٍ»﴾، وهي مشابهة بعض الشّيء لما يوجد في أوثيوث للحبر عقيبة (1/8) الذي أشرنا إليه في هامش مسبّق. والمقطع يقول: «يقول أمير الظّلام يوميّاً: أعطني طعاماً كافياً». وفي تعزيز لهذا التّأكيد، فإنّ الحبر يستشهد بالمقطع من إِشَعْيَاء (14/5): «لِذَلِكَ وَسَّعَتِ الْهَاوِيَةُ نَفْسَهَا، وَفَغَرَتْ فَمَهَا بِلاَ حَدٍّ». في سورة آل عمران (106/3): ﴿يَوْمَ... وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ! فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ... فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، وهذه فكرة حبريّة موجودة في روش هاشّاناه، الورقة، 17أ: -يقول الحبر إسحاق بن أبهين (عن أصحاب السّعير): إنّ وجوههم سوداء كالمرجل».

إنّ إشارتنا الأخيرة هي لسورة الفجر (23/89): ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾

(1) إيروبين، الورقة 19أ. «ليس بوسع نيران الجحيم أن تنال أبدان الخطاة في إسرائيل... الخطاة في إسرائيل سينجون من نيران الجحيم... إنّ ضياء (أو نار) جهنّم لا تتسلّط (أو تلمس) أبناء إسرائيل».

(2) سورة آل عمران: 24/3.

أي سيُؤتى بها لدى القاضي في جلسة الحساب العظيم والنّهائيّ. لسنا في حاجة هنا لمناقشة مسألة التّفسير الحرفيّ أو المجازيّ للآية التي يشرحها أكثر المفسّرين المسلمين حرفيّاً.

إنّ اهتمامنا هنا هو بالمصادر، ويبدو أنّ الآية من الرّؤْيَا: «ثمّ طُرِحَ الموتُ والجحيمُ في بُحيرة النّار». (الرّؤْيَا: 14/20).

يتّضح ممّا تقدّم أنّ مُحَمَّداً كان مديناً بشكل كبير لليهوديّة التّلموديّة، وبدرجة أقلّ إلى المزدائيّة بتعاليمه القرآنيّة حول الجنّة والنّار، وبينما مارست اللّغة المجازيّة الأخرويّة للرّؤيا تأثيراً على مُحَمَّدٍ في وصفه للجنّة القرآنيّة؛ فإنّ ممّا لا ريب فيه أنّ الغريزيّة والحسّيّة في تعاليمه لا تعود إلّا إلى ميله الشّهوانيّ الخاصّ.

ندرك أنّ بعض المفسّرين المُحَمَّديّين سيناقشون الجزء الأخير من الاستنتاج. يقول سيّد أمير عليّ في روح الإسْلام، ص 394: «إنّ التّصاوير واقعيّة، وفي بعض المواضع حسّيّة تقريباً؛ لكنّ القول إنّها شهوانيّة، أو أنّ مُحَمَّداً، أو أيّاً من أتباعه، حتّى الأشدّ حرفيّة، قبلوها كما هي، هو محض افتراء». بالنّسبة لمسلمين متنوّرين، مثل سيّد أمير عليّ،[1] الذين تأثّروا بالتّعاليم المسيحيّة، والذين تبنّوا، تالياً معيار السّلوك الأخلاقيّ الأعلى، فإنّ هذا التّفسير لملذّات الجنّة الإسْلاَمِيّة أمر مقبول، لكنّه لا يتّفق مع تفسير الملالي أو رجال الدّين المسلمين التّقليديّين، ولا مع الاعتقاد العامّ للمسلمين الذين تسنّى للكاتب التّواصل معهم. إنّ الاعتقاد القويم ينصّ على أنّ الوصف القرآنيّ لكلّ من الجنّة والجحيم ليس مجازيّاً، بل يجب أنْ يُؤخذ حرفيّاً؛ وهذا الاعتقاد يكتسب دعمه من خُلق «نبيّ الجزيرة العربيّة» كما رسمه القرآن، والمأثورات الإسْلاَمِيّة.

(1) وكذلك ميرزا غلام أحمد. انظر مسبّقاً.

الفصلُ الثّامن

القدر أو قضاء اللّه

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ[1]﴾

الرّكن الأخير في إيمان المسلمين هو القضاء والقدر، أو قضاء اللّه المطلق والأبديّ للخير والشّرّ.

لقد علّم مُحَمَّد في القرآن أنّه مهما حصل، سواءٌ كان جيّداً أو سيّئاً، فإنّه أمر لا يمكن تجنّبه، لأنَّ اللَّه قدّره منذ الأزل، ومكتوب في ﴿لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ في السّماء. وبكلمات أخرى، وباستعمال صيغة شديدة القدم: «إنّ اللّه منذ الأزل، ووفق مشيئته، قدّر حدوث ما شاء».

يحتوي القرآن على آيات كثيرة تعلّم هذا المذهب، والتّقاليد قاطعة في تأكيدها عليه، وقد شدَّد مُحَمَّدٌ بقوّة عليه وذلك لكونه «العقل الموجّه» للجزيرة العربيّة، ويتمتع بحكم بعيد النّظر ومعرفة وثيقة بالطّبيعة الإنسانيّة، ويدرك ما التّأثيرات الماكرة والقويّة للمذهب الذي سيمارسه على عقول أتباعه السّاذجة والمتعصّبة، وليس فقط على تأسيس موقعه بشكل أشدّ صرامةً بينهم بوصفه

(1) سورة القمر: 54/49.

نبيّاً، بل أيضاً لنشر الإيمان الإسْلاَمِيّ، وتأسيس الإمبراطوريّة المُحَمَّديّة. ويعلّم المذهبُ المؤمنين أنْ يكونوا باسلين وجسورين في وجه الخطر، بحيث يُعزى النّصر إلى غاية اللّه،[1] وبذلك يعمّق إيمانهم بالإسْلام، وفي أزمنة المحنة[2] يتمّ التّسليم إلى مشيئة اللّه، فيؤمنون بأنّه ليس بوسع أيّ عمل منهم أو من غيرهم أن يغيّر من نصيبهم المقدّر من جانب اللّه.[3] ويُفسّر طرح محمّد للمذهب بمعارضة وكفر أبناء موطنه في مكّة الذي يدلّ على الطّرد من الرّحمة الإلهيّة.

إنّ الإيمان يتطوّر بشكل أساسيّ إلى الجبريّة المنتشرة بشكل واسع بين مسلمي الهند في زمننا الحاليّ، والمستعملة من قِبلهم عذراً أو قناعاً للإثم.

يقول القرآن: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ[4]﴾ إذاً، لا شيء يمكن أن يحدث، إلّا ما قضى به اللّه. إنّ الإيمان والكفر، وجزاء الجنّة والنّار، وكلّ فعل للإنسان سواءٌ أكان صالحاً أم طالحاً؛ كلّ ذلك قد قُدّرَ وكُتب في «اللَّوْح المَّحْفُوظ»، قبل خلق العالم، وليس بوسع الإنسان التّصرّف بعكس ذلك، أو تغيير القضاء غير قابل للنّسخ، ولا تقدير يوم مولده، أو شخصيّة أبويه.

ومن ثمّ، لسنا مندهشين من أن نجد أنّ مذهب الاختيار والإخراج من زمرة الأبرار يرد في القرآن ولدى الكتّاب المسلمين،[5] كما عرضته أشدّ الفرق

(1) سورة الأنفال: 17/8 (الكلام عن موقعة بدر).

(2) سورة آل عمران: 166/3 (الكلام عن موقعة أحد).

(3) سورة التّوبة: 51/9.

(4) سورة الأنعام: 38/6.

(5) *Vide* Mirza Ghulam Ahmad, *The Teaching of Islam*, p. 78 ('The chosen ones of God').

الكالفينيّة تشدّداً: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء[1]﴾. و﴿مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ[2]﴾. ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ[3]﴾. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ[4]﴾. ﴿أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ[5]﴾. ﴿فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ[6]﴾. ﴿لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً... لَّوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً[7]﴾. ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[8]﴾، ﴿إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ[9]﴾.

لا يمكن أنْ تكون ثمّة نظريّة دوغمائيّة بصدد القضاء تعلّم غير ما تنقله هذه الآيات وغيرها من الآيات القرآنيّة.[10]

ولئلاّ يبدو من هذا التّصريح الجليّ بشأن القدر أنَّ اللّه خالق الشرّ، فإنّه يُفسّر من قِبل بعض علماء الإسْلام بأنّ أعمال الإنسان الآثمة والشّرّيرة؛ إذْ هي مقدّرة بحسب مشيئة اللّه وقضائه الأزليّ؛ ليست محتومة وفقاً لإرادته، وهذا

(1) سورة المائدة: 18/5.

(2) سورة الأنعام: 39/6.

(3) سورة الإسراء: 13/17.

(4) سورة النّحل: 36/16.

(5) سورة الأنفال: 24/8.

(6) سورة المائدة: 54/5.

(7) سورة الرّعد: 31/13.

(8) سورة الرّعد: 33/13.

(9) سورة المائدة: 1/5.

(10) سورة الأنعام: 150/6؛ سورة التّوبة: 51/9؛ سورة هود: 118/11؛ سورة الإسراء: 45/17، 46، 97؛ سورة الأحزاب: 37/33؛ سورة الحجرات: 7/49؛ سورة الحديد: 22/57؛ سورة المجادلة: 22/58؛ سورة الأعلى: 3/87.

التّفسير يتّسم بعدم المنطق، ويعاكس أيّ نظرة متصوّرة للكائن الإلهيّ.

ثمّة آيات في القرآن تعلّم - على الأقلّ ضمناً - حرّيّة الإرادة الإنسانيّة، ومسؤوليّة الإنسان عن كفره وعمله السّيّئ. ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ[1]﴾؛ ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن؛ وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ[2]﴾؛ ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ، وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ[3]﴾؛ ﴿سَيَقُولُ (القرشيّون) الَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ وهم يستشهدون بنظريّته عن القضاء: ﴿لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾، فيقول لهم مُحَمَّد الذي كان نفعيّاً في اللّاهوت كما في القانون منكراً جدالهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ[4]﴾.

ويُشدّد في القرآن كثيراً على فعاليّة الصّلاة،[5] والتّوبة.[6]

وحول مسألة حرّيّة إرادة الإنسان كما تتساوق مع سلطة اللّه، ثمّة جدل مهمّ بين اللّاهوتيّين المسلمين مثلما بين المسيحيّين؛ ولدى مختلف المدارس في الإسْلام نظرات مختلفة بشأن القضيّة.

(1) سورة البقرة: 195/2.

(2) سورة الكهف: 29/18؛ قارن سورة النّجم: 31/53؛ سورة غافر: 40/40؛ ويقول عبّاس: «إنّ الآية (الكهف: 29/18) تشير إلى القضاء، "فَمَنْ أراده اللّه أنْ يؤمن فإنّه سيؤمن حتماً، ومَنْ أراده أنْ يكون كافراً، فسيكون كذلك"، ولا تدلّ على الإطلاق على حرّيّة إرادة الإنسان». تفسير الحسينيّ، المجلّد، 2، ص 9.

(3) سورة النّساء: 79/4.

(4) سورة المائدة: 148/6.

(5) سورة الفرقان: 65/25، 74؛ سورة البقرة: 238/2؛ سورة آل عمران: 191/3، 193، 194؛ سورة هود: 114/11؛ سورة الإسراء: 78/17، سورة العنكبوت: 45/29؛ سورة ق: 40/50.

(6) سورة الفرقان: 70/25، 71؛ سورة ق: 32/50 ـ 35.

إحدى المدارس[1] ترفض حرّيّة الإنسان كلّيّاً؛ وأخرى،[2] على النّقيض المتطرّف؛ تؤكّد أنّ الإنسان قوّة حرّة، وتنسب إليه المسؤوليّة الأخلاقيّة عن أعماله السّيّئة. وتوجد مدرسة ثالثة،[3] تتبنّى موقفاً وسطاً، لكنّها تنسب سلطة الاختيار للإنسان، ومن أجل الحفاظ على المسؤوليّة الأخلاقيّة للإنسان تقول: إنّ لدى الإنسان القوّة لتحويل الإرادة إلى فعل؛ لكنّ إرادة أو اختيار الإنسان مخلوق من قِبل اللّه. وبهذه الطّريقة جاهد الأشاعرة لمصالحة سلطة اللّه مع المسؤوليّة الأخلاقيّة للإنسان.

إنّ هذا المسعى لتسوية القضيّة التي هي بالفعل خارج نطاق الفهم البشريّ، لا نستطيع أن نعدّه سوى مجرّد مماحكة لاهوتيّة!

ليس من الضّروريّ متابعة جدل المسلمين أكثر من ذلك، وهو الجدل الذي بقي غير مسوّى بالتّأكيد حتّى أيّامنا هذه.

بوسعنا أن نعدّ الإيمان الإسْلاَمِيّ التّقليديّ بعقيدة القضاء الصّارمة عقيدةً قرآنيّةً معترفاً بها على الرّغم من وجود آيات تعارضها، ففي إحداها[4] يعلّم مُحَمَّدٌ في ذات العبارة السّلطة الإلهيّة وحرّيّة الإرادة في التّوبة. وفي الواقع، إنّ التّعاليم القرآنيّة بصدد المسألة تقدّم مثالاً توضيحيّاً على طبيعة «وحي» مُحَمَّد

---

(1) الجبريّون (من الجبر).

(2) القدريّون، سُمّي كذلك لرفضهم القدر، أو قضاء اللّه المطلق.

(3) الأشاعرة. «لا شيء على الأرض يمكن أن يكون جيّداً أو سيئاً، بل هي مشيئة اللّه.... إنّ الخير والشّرّ يحصلان بحسب قضاء اللّه وقدره للخير أو الشّرّ». الأشعريّ، أورده ماكدونالد (*Muslim Theology*)، ص 295. انظر كانون سِل (*Faith of Islam*)، ط4، ص 329 ـ 37 للتّفصيل حول مدارس الفكر الإسْلاَمِيّة المختلفة هذه. [تعذّر إيراد نصّ للأشعريّ الأصليّ، لكون المؤلّف لم يشر إلى كتاب الأشعريّ. ـ م.]

(4) سورة الشّورى (42/13): ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

الذّاتيّ، وهي تأتي أحياناً متعارضة في أمثلة عديدة مع بعضها وذلك بسبب الأحوال التي كانت محيطه به، فكانت التّعاليم تلائم ضرورات المراحل المختلفة. على أيّ حال، بالوسع الاستشهاد بمقطع قاطع يؤكّد الإيمان القويم في قضاء اللّه المطلق والثّابت. وهو ما ورد في سورة الإنسان (29/76، 30): ﴿فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً؛ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

يبقى علينا الآن أن نبحث عن مصدر هذا الرّكن في الدّين الإِسْلاَمِيّ.

يجب أنْ نقرّ بأنّه في تشكيل هذه العقيدة، فإنّ مُحَمَّداً كان متأثّراً بشكل كبير بتعاليم كلّ من الكتب اليهوديّة والمسيحيّة التي جاء فيها بوضوح فكرة سلطة اللّه؛ بيد أنّ عرضه الجافّ وحتّى المنفّر لهذه العقيدة لا يمكن عزوه إلى هذه الكتب.

إنّ اليهود مثلهم مثل المسيحيّين، سيتبرّؤون من فكرة أنّ كتبهم المقدّسة علّمت أنّ اللّه يضلّل الإنسانَ ويدفع به إلى الإثم! وهذا ما تصوّره حادثة وقعت لدى دخول الخليفة عمر بن الخطّاب القدس. ففي خطابه، استشهد بآية من سورة الإسراء (97/17)،[1] وقال: «إنَّ اللّهَ يهدي مَن يشاءَ، ويضلُّ مَن يشاءَ»، فقال راهب مسيحيّ كان يستمع إلى الخطبة: «حاشا للّه، إنّ اللّه لا يضلّ أحداً، بل يرغب بهداية الجميع» وقد أعاد المعترض المسيحيّ القول ثانية، لكنّه التزم الصّمت بعد إنذاره بقطع عنقه.[2]

ما المصادر الأخرى التي يمكننا تلمّسها، كانت متاحة آنذاك لمُحَمَّد التي

(1) ﴿مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِه﴾.

(2) [ترد القصّة في «النّزَعَات المَادّيّة»، 562/1 نقلاً عن كتاب الحسن البصريّ لإحسان عبّاس ـ م.]

مارست تأثيراً عليه في تصوّره وتعبيره القرآني للعقيدة؟

لقد رأينا في الفصل الافتتاحيّ أنّ الفيتيشيّة والصّابئة كانتا من بين العبادات السّائدة في الجزيرة العربيّة في زمن مُحَمَّد. ومثل جميع هذه العبادات والأديان الرّوحيّة، فإنّ فكرة الجبريّة متجذّرة في عقول معتنقيها،[1] وتتناسخ مع إيمانهم، ويمكننا أن نختتم القول ببعض اليقين: إنّ المصدر الأساسيّ لمذهب مُحَمَّد حول القضاء، الذي لا يمكن تمييزه أحياناً عن الجبريّة، أو القدر الأعمى، موجود في عبادة الجزيرة العربيّة البدئيّة التي كانت موجودة هناك قبل نشوء الإِسْلام. وبدون شكّ، فإنّ تصوّره للمذهب، كان قد تعزّز وتقوّى من عداء قريش المتطاول، وفي تغلّب الكفر والوثنيّة حوله، مع الفشل الواضح للرّسالة في مكّة، وهي الأحداث التي لا يمكن أن تُفسّر إلّا بمذهب القضاء الثّابت والمحتوم.

لكن، ومهما كان مصدر، أو مصادر هذه المقالة في العقيدة الإِسْلاَمِيّة، فإنّه يمكن في صيغتها المتبلّورة العودة بها إلى الجبريّة الملازمة للعبادات البدئيّة التي وُجدت في الجزيرة العربيّة «أيّام الجاهليّة»، أو بمنظور أوسع إلى الحقيقة المنزلة كما تحتويها الكتب المقدّسة اليهوديّة والمسيحيّة، ولا بدَّ من أنّ عمليّة تحويلها معتقداً إِسْلاَمِيّاً بيدي «النّبيّ» لم تخل من «الصّعوبة».

ثمّة إشارات ضعيفة إلى المصير، أو القدر في الآفِستا،[2] لكنّ المذهب لم يعلّمه زرادشت، ولم يُطوَّرْ في التّعاليم الأفِستيّة المتأخّرة.

---

(1) لقد كان الكاتب على اتّصال مع قبائل الهند البدئيّة، ووجد أنّ فكرة الجبر منطمرة في عقائدهم الدّينيّة.

(2) *Fargand*, v. 8 (23); 9 (29).

الجزءُ الثّاني
أركان الإِسْلام

الفصلُ التاسّع

التّشهد

تلاوة الكلمة

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً[1]﴾

وإذْ انتهينا من بحثنا في مصادر الإيمان الإِسْلاميّ، فإنَّنا سنتابع الآن استقصاء مصادر الدّين.[2]

لقد رأينا من قبل، أنّ بنود إيمان الإِسْلام ستّة أركان، هي الإيمان بوحدانيّة اللّه، والْمَلاَئِكَة، والكُتب، والأنبياء، واليوم الآخر، والقضاء والقدر. بيد أنَّ الإيمان بتلك العقائد لا يشكلّ كامل الواجب الدّينيّ لأتباع النّبيّ، فمن أجل جعل الإيمان فعّالاً، فإنّه يجب أن تُتبع بطقس «أعمال الدّين».

ثمّة خمسة بنود تؤلّف أركان الدّين، أو دعائم الممارسة الدّينية في الإِسْلام.

---

(1) سورة الحجّ: 67/22.

(2) تشير هاتان المفردتان (الإيمان والدّين) إلى كلّ ما يُطلب من المسلم بخصوص عقيدته وممارسته. وتشير الأولى إلى العقيدة، والثّانية إلى الواجبات العمليّة.

وهي:

(1) التّشهّد، إعلان الكلمة، أو العقيدة.

(2) الصّلاة، المفروضة خمس مرّات في اليوم واللّيلة.

(3) الصّيام، لاسيّما ثلاثين يوماً في رمضان.

(4) الزّكاة.

(5) الحجّ إلى مكّة.

إنَّ هذه «الأركان الخمسة» أو الواجبات في الإسْلام تُدعى فروضاً،[1] لأنّها منزلة في القرآن، ومن ثمّ، مفروضة على كلّ مسلم. إنَّ الإشارات القرآنيّة إليها ستُقدّم في الوقت المناسب؛ وبهذا الصّدد يمكننا لحظ حديث أورده الشّهرستانيّ بأنّ جبريل جاء في صورة بدويٍّ، وقال: «يا رسول اللّه، ما الإسْلام؟ فأجاب: أنْ تشهد أنْ لا إله إلاّ اللّه وأنّي رسول اللّه؛ وأنْ تقيم الصّلاة، وتؤتي الزّكاة وتصوم شهر رمضان، وتحجّ البيت (الكعبةَ) إنْ استطعت إليه سبيلاً». فقالَ له: «صدقت».[2]

يقيم كلّ مسلم صادق هذه الواجبات بدقّة متناهية، وربّما ليس ثمّة ديانة في العالم يتّبع معتنقوها بصرامة المظاهر الخارجيّة لدينهم،[3] والمسلمون يقبلون

(1) إنَّ مفردة فرض تشير إلى الوجوب الإلزاميّ لأنّه مفروض بشكل واضح في القُرْآن، ومن ثمّ، من اللّهِ.

(2) الملل والنّحل، ص 27. ويتابع الشّهرستانيّ القول شارحاً: «بأنْ يصدّق باللّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ويقرَّ عقداً بأنَّ القدر خيره وشرّه من اللّه تعالى».

(3) إنَّ العيش لسنين بين المُحَمَّديّين، سمح للكاتب لحظ أمثلة من التّقوى الإسْلاَمِيّة،

على نحو أعمى أركان إيمانهم. وحتّى الحجّ، الذي يعني بالنّسبة للكثيرين رحلة طويلة ومكلفة، وأحياناً خطرة؛ فإنّ كلّ مسلم تقيّ يأمل، ويجاهد، لتأديتها قبل يوم وفاته.

سوف ندرس هذه الواجبات العمليّة، ونبحث مصادرها، وفق التّرتيب المعطى أعلاه.

وفي البدء التّشهد، أو تلاوة الكلمة أو العقيدة.

إن سِل وكتّاباً إنجليزاً[1] آخرين يغفلون هذا الرّكن من تعدادهم لواجبات الإسْلام العمليّة، ومن ثمّ، يقلّصون هذه الفروض إلى أربعة! ولكن لكونه مجرّد فعل تلاوة العقيدة (وليس العقيدة ذاتها) المفروضة الذي يجب على كلّ مسلم أن يكرّره بصوت مرتفع على الأقلّ مرّة واحدة في حياته؛ فمن الصّواب إدراجه ضمن الواجبات العمليّة للمسلمين، ومن ثمّ، يشكّل واحداً من «الأركان الخمسة» لدينهم.

يتألّف الطّقس من النّطق باللّغة العربيّة الصّيغة التّالية، أو الإقرار بالإيمان: «لا إله إلّا اللّه، مُحَمَّد رسول اللّه». إنّ هذا الإعلان، أو إقرار الإيمان الذي يشهد على وحدانيّة اللّه، ورسوليّة محمدٍ، جاء في آيات قرآنيّة كثيرة،[2] وبالوسع

فعندما يحين موعد الصّلاة، فإنّ المسلم، أينما كان في القطار، وفي قارعة الطّريق، أو في العمل أو البيت، سيترك ما بيده، وينشر سجّادته ليؤدّي الصّلاة.

(1) *Vide Commentary on the Qur'an*, Sale's Translation, E. M. Wherry, vol. i. p. 165; see also Hughes' *Notes on Muhammadanism*, p. 101, n.1.

(2) وحدانيّة اللّه:

سورة البقرة: 163/2؛ سورة آل عمران: 1/3، 6، 18؛ سورة النّساء: 87/4؛ سورة التّوبة: 129/9؛ سورة طه: 14/20، 98؛ سورة الأنبياء: 87/21؛ سورة ص: 65/38؛ سورة

سماعه مراراً من جانب المسلمين على طول الهند اليوم. وفي بعض الأحيان كان يلوح للمؤلّف أنّه بالنّسبة للمسلمين الجاهلين يُعدّ طلسماً! وأنّ التكرار لعلّه كان يقوم بدور تعويذة لدفع الشّرّ عن المؤمن لدى اتّصاله مع المسيحيّ. وغالباً في مناقشات المؤلّف مع المُحَمَّديّين، وحينما يقوم بمقارنة شخصيّة ودعاوى مُحَمَّد مع ما يخصّ يَسُوع، وهو النّبيّ النّقيّ في الإِسْلام (انظر قبلا) فإنّ المسلم المعترض أو أحد الحضور، سيقاطع بنطق التّشهّد.

يجعل التّشهّد المسلمين يرون وحدانيّة اللّهِ (وهو المذهب الرّئيس في الإسلام) مساوية لرسوليّة محمدٍ، وفي الوقت ذاته، إنّ التّشهّد أساس وحجر الزّاوية في كامل المنظومة الدّينيّة للإِسْلام، إذ يُعلن يوميّاً، ويُكرّر مرّتيْن في الأذان، ويُعاد يوميّاً من قبل المصلّين لدى نهاية كلّ ركعتيْن. كما كان نداء المعركة في الإِسْلام، وإنّ احتواء التّشهّد على الحقيقة السّرمديّة مع الحبّ الشّديد الشّخصيّ لمُحَمَّد بوصفه رسولَ اللّه؛ ساعد بدون شكّ في إذكاء نار التّعصّب في عقول أتباع النّبيّ.

إنَّ المغزى الدّينيّ والأهمّيّة المتّصلة بتلاوة هذه الصّيغة، يمكن أن تتكشّف من حقيقة أنَّ كلّ مَنْ يدين بالإِسْلام مطلوب منه الإقرار بها بصوت عالٍ، وعليه أن يكون مستعدّاً لإعلانها بدون تردّد في أيّ وقت لحين الوفاة.[1]

الدّخان: 8/44؛ سورة الإخلاص (112).

رسولية مُحَمَّد:

سورة الحجرات: 14/49، 15؛ سورة النّور: 47/24، 52، 54، 56، 62؛ سورة الأحزاب: 29/33، 31، 66؛ سورة الحديد: 7/57، 19، 21، 28؛ سورة المجادلة: 4/58؛ سورة الفتح: 9/48، 13، 28؛ سورة الصّفّ: 11/61.

(1) ثمّة بعض الشّروط الأخرى المتّصلة بنطق التّشهّد، وهي: يجب أن تُتلى بشكل صحيح، وباللّغة العربيّة؛ ويجب أن يكون معناها مفهوماً بشكل جيّد؛ ويجب أن يؤمن بها بصدق.

فيما يتّصل بأصل هذه الصّيغة، لقد رأينا من قبل (الفصل الثّالث) أنّ قريشاً قبيلة مُحَمَّد، حينما كانت تؤدّي شعيرة الإهلال، كانت تستعمل الكلمات التّالية التي تتضمّن إعلان الإيمان بوحدانية اللّه: «بيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك». ومن الواضح من هذه العبارة أنّ التّشهّد يشابه لحدّ ما مع هذه العبارة، أو صيغة الإيمان التي كانت بين العرب لزمن طويل قبل نشوء الإسْلام. وزيادة على ذلك، ثمّة تشابه ملحوظ بين الاعتراف بوحدانيّة اللّه في الجزء الأوّل من العقيدة الإسْلاَمِيّة والاعتراف بالوحدانيّة الإلهيّة التي تبدأ بها شِماع שמע، (الصّيغة الرّئيسة في اللّيتورجيا اليهوديّة): «اسمعْ يا إسرائيل، إنَّ الرّبّ إلهنا هو الرّبّ الواحد» التي يتلوها اليهود يومياً. ويحتوي كامل الفصل الأوّل من التّلمود نقاشاً حول هذه الصّيغة الرّئيسة.[1]

زيادة على ذلك، إنّ إعلان الإيمان باللّه الواحد، الذي قام به أبناء يَعْقُوبَ عند فراش موت الأب، أشار إليه مُحَمَّدٌ في سورة البقرة،[2] وروايته هي بشكل بيّن رواية حبريّة، حيث يرد فيها: «الرّبّ إلهنا، وهو واحد».[3]

لقد رأينا في الفصل الثّالث، أنّ مُحَمَّداً أخذ فكرة وحدانيّة اللّه بشكل رئيس من الفكرة السّاميّة، أو التّوحيديّة التي كانت إيماناً تقليديّاً للعرب قبل زمن طويل من مُحَمَّدٍ، وزيادة على ذلك، فإنّ الفكرة حازت على أهمّيّة إضافيّة في عقل النّبيّ جرّاء اتّصاله باليهوديّة.[4] إذاً، لا يمكن الشّكّ في أنّ إعلان اللّه

(1) Deut. vi. 4; *Berakhoth* fols. 2*a*-13*a*; *Vide ante.*

(2) ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة البقرة: 133/2).

(3) انظر من قبل، الفصل الثّالث

(4) ذاته.

الواحد الذي يحتويه الجزء الأوّل من التّشهّد، يرجع إلى هذه المصادر، بينما الجزء الثّاني من التّشهّد، هو بدون شكّ من تلفيقات مُحَمَّد الخاصّة، ونتاج خياله الشّخصيّ.

الفصلُ العاشر

الصّلاة

﴿حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ[1]﴾

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ... الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ[2]﴾

الصّلاة،[3] هي الرّكن الثّاني من الواجب اليوميّ الذي فرضه القرآن على المسلمين، والتّواتر الذي أمر به القرآن «الرّكن العمليّ» يشير إلى الأهمّيّة التي عزاها النّبيّ إليه. والالتزام بالصّلاة إحدى السّمات الأساسيّة للمؤمن، وغيابها دالّ على إخراجه من زمرة الأبرار من جانب اللّه. ﴿الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ... وَأَقَامَ الصَّلاةَ[4]﴾؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ... وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ[5]﴾. وبالوسع مضاعفة هذه

---

(1) سورة البقرة: 2/238.

(2) سورة الأنفال: 8/2، 3.

(3) الصّلاة هي المصطلح العربيّ للإشارة إلى «الرّكن الثّاني» في الإسْلام؛ وتُستعمل في الفارسيّة والهندوسيّة مفردة ناماز.

(4) سورة البقرة: 2/177.

(5) سورة البقرة: 2/277.

الآيات.

في الصّيغة النّهائيّة المقولبة، وبعبارة دقيقة، إنّ الصّلاة الإسلاميّة هي صلاة جماعة،[1] إنّ مفردة «دعاء» بالعربيّة مصطلح أكثر دقّة للصّلاة كما نفهمها. وبالنّسبة للقسم الأكبر من المسلمين فإنّ الصّلاة، أو طقس الصّلاة هو مجرّد عمل شكليّ للعبادة، وكلّ القواعد الصّغيرة المتّصلة بها يجب أن تُتّبع بعناية من قبل المصلّين.

إنّ الشّكلانيّة الصّرفة بدلاً من إثارة روح التّقوى، تعيق وتحجب المعنى الحقيقيّ القلبيّ للصّلاة للّه.[2]

---

(1) في العهد المكّيّ المبكر، فإنّ الصّلاة كانت تؤدّى بشكل شخصيّ. وروى معتنق جديد أنّه «كُنَّا إِذا صلّينا مَعَ النَّبِيِّ قُلْنَا: السَّلاَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلاَمُ عَلَى جبريل، السَّلام على ميكائيل». وأضاف أنّ النّبيّ علّمهم صيغةً أخرى بدلاً من ذلك. انظر:

(*Muhammad and the Rise of Islam*, p. 103 — D. S. Margoliouth.)

(2) لقد حضر الكاتب صلاة الجمعة، أو صلاة الجماعة، في المسجد الكبير في دلهي، عندما كان يجتمع نحو من 3.000 مصلّ داخل ساحة مربّعة، تحت قبّة السّماء، وبانضباط تامّ اتّخذوا هيئة الصّلاة، وأدّوا ركعات الطّقس، وبينما راق للكاتب جلال الصّورة، فإنّه كان مندهشاً أكثر من شكلانيّة الصّلاة الآليّة المفرطة.

إضافة المقوّم اللّغويّ: لا شكّ في أنّ هذا الكلام ـ أعلاه ـ غير دقيق، ذلك أنّه في غير موضع من القرآن تمّ التّأكيد على (إقامة الصّلاة) وليس مجرّد الصّلاة، ولا يوجد في القرآن آية واحدة تأمر بمجرّد الصّلاة، بل كلّها جاءت مقرونة بتقويمها، بل إنّ آية مخصّصة تؤكّد على مسألة المعنى الحقيقيّ القلبيّ للصّلاة (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ) (سورة المؤمنون 1 ـ 2) ومشهور في الإسلام حديث: المسيء صلاته، حيث أمره النّبيّ بإعادة الصّلاة لأنّ ـ شكلانيّتها ـ لم تتطابق مع فعلها القلبيّ: إذا ركعت فاطمئنّ راكعاً... . وأذكّر القارئ بأنّ الأمر بإقامة الصّلاة أو الإشارة إلى ذلك ـ لا مجرّد القيام بحركات الصّلاة ـ الشّكلانيّة ـ جاء في القرآن (42) مرّة

في جميع الأقطار المُحَمَّديّة، يجب على كلّ مسلم مخلص أنْ يؤدّي الصّلاة خمس مرّات في اليوم واللّيلة، وهي: عند الصّباح، والظّهر، والعصر، وعند غروب الشّمس وبعد غروبها.[1] إنّ هذه الأوقات الخمسة للصّلاة «فرض»، ذلك لأنّه أُمر بها في القرآن، ومن ثمّ، من قِبل اللّه. ويجب أن تُؤدّى بالعربيّة.[2] وكذلك ثمّة ثلاثة أوقات في اليوم، يمكن أن تُقام فيها الصّلاة، لكنّها «نوافل» أو صلوات تطوعيّة رُوي أنّ أداءها يضيف حسنات للمصلين؛ على أيّ حال، بالوسع عدم تأديتها بدون أن يكون ذلك ارتكاباً للمعصية. وهي: صلاة الإشراق، بعد أن تشرق الشّمس؛ صلاة الضّحى، نحواً من ساعة قبل صلاة الظّهر، وصلاة التّهجّد بعد منتصف اللّيل.[3] إلى جانب هذه الصّلوات اليوميّة، ثمّة صلوات مخصّصة لمناسبات محدّدة، وعلى سبيل المثال، صلاة الجمعة

---

(1) سورة الرّوم: 17/30 ـ 18. وقد ذُكر في هذا المقطع أربع أوقات. ويقول المفسّرون المسلمون إنّ صلاة المساء تتضمّن صلاة المغرب وما بعد صلاة المغرب. لقد أوردت مواعيد الصّلاة بدءاً من الصّباح الباكر، بيد أنّ المسلمين يعتبرون صلاة المغرب الأولى، وصلاة العشاء الثّانية؛ وصلاة الصّبح الثّالثة، وصلاة الظّهر الرّابعة، وصلاة العصر الخامسة؛ قارن: سورة طه (130/20)؛ سورة هود (114/11).

(2) لقد حُرم مسلم علناً من المشاركة في الصّلاة، وقد جرى ذلك في المسجد الرّئيس في مَدراس يوم الجمعة، شباط (فبراير) 13، 1880، وذلك لتأكيده أنّ الصّلاة يمكن أن تؤدّى بالهندوسيّة. انظر كتاب سِل (*Faith of Islam,* 4th ed., pp. 413–17).

إضافة المقوّم اللّغويّ: بحكم تخصّصي في الشّريعة الإسلاميّة أشير إلى أنّ المنع الذي جرى مخالف للإسلام، ولا يجعله مبرّراً جهل المسلمين في الهند! ذلك أنّ الفقيه (أبو حنيفة النّعمان) صاحب أوسع مدرسة فقهيّة في العالم الإسلاميّ قرّر جواز الصّلاة بغير اللّغة العربيّة.

(3) ثمّة حديث يشير إلى هذه النّوافل، أو الصّلوات التّطوّعيّة، والذي يقول: «مَنْ قامَ رَمَضانَ إِيماناً واحْتِساباً غُفِرَ له ما تَقدّم مِنْ ذَنْبِه». صحيح البخاريّ، المجلّد 1، ص 4.

التي لها مرجعيّة في القرآن؛[1] صلاة المسافر؛[2] صلاة الخوف؛[3] والتي تُقام لدى وجود خطر من عدو؛ صلاة الجنازة؛ صلاة الاستخارة، والتي تُقام قبل مباشرة أيّ عمل خاصّ؛ صلاة التّوبة.[4]

ويجب أن تُسبق الصّلاة بطقوس تطهّر خاصّة، وهي الشّعيرة الضّروريّة الأساسيّة لصحّة إقامة «الصّلاة». بالفعل إنّ فعاليّة كامل «العمل» متوقّفة على الدّقّة التي تُؤدّى بها هذه الطّقوس من جانب العابدين، وإنّ أيّ إهمال أو إغفال، وحتّى لو كان ضئيلاً وعفويّاً في تأدية هذه الطّقوس، أو أيّ تغيير في التّرتيب المأمور به؛ يجعل كامل الشّعيرة عديمة القيمة، والصّلاة الّلاحقة باطلة.

ويعلّق المسلمون أهمّيّة كبيرة على شعائر الوضوء، إذْ إنّها، وفق حديث للنّبيّ سجّله الغزاليّ، يقول: إنّ صحّة الصّلاة مبنيّة على الوضوء، وإنّه نصف الإيمان، ومفتاح الصّلاة، وبدونه لن تُقبل الصّلاة من قِبل اللَّهِ. ومن هنا يتوجّب أن يكون الإنسان كما ثيابه في حالة طهارة، وكذلك المكان الذي تُقام

---

(1) سورة الجمعة: 9/62. إنّ ﴿يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ في هذه الآية، هو الذي قام مُحَمَّدٌ بجعله يومَ دخوله الأوّل إلى المدينة، واليوم الأخير في خلق الخلق.

(2) في ردّ الخليفة عمر على ما قاله بعض الأشخاص له: «إِنَّا نَجِدُ صَلاةَ الْحَضَرِ وَصَلاةَ الْخَوْفِ فِي الْقُرْآنِ وَلا نَجِدُ صَلاةَ السَّفَرِ فِي الْقُرْآنِ»، فأجابهم: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ إِلَيْنَا مُحَمَّداً وَلاَ نَعْلَمُ شَيْئاً، وَإِنَّمَا نَفْعَلُ كَمَا رَأَيْنَا مُحَمَّداً يَفْعَلُ». الكاشف، المجلّد 1، ص 197. أورده كلاين (*Religion of Islam*, p. 143).

(3) سورة النّساء: 101/4 ـ 102.

(4) سورة آل عمران: 135/3 ـ 136.

إضافة لهذه الصّلوات المذكورة أعلاه، ثمّة صلاة الكسوف، وهي ركعتان تُقام وقت كسوف الشّمس؛ وصلاة الخسوف، ركعتان تُقام حين خسوف القمر؛ وصلاة الاستسقاء في فترة القحط؛ وصلاة التّراويح، عشرون ركعة تقام كلّ ليلة في شهر رمضان.

فيه الصّلاة، يجب أن يكون في مسجد عامّ أو في المنزل على انفراد.[1]

إنّ طقوس التّطهّر الواجب القيام بها قبل الصّلاة ثلاثة أنواع، هي:

1. الوضوء، الغسل الجزئيّ للجسم.
2. الغسل، التّغطيس الكلّيّ، أو استحمام الجسم.
3. التّيمّم، التّطهّر بالتّراب.

(1) الوضوء:

هو غسل الوجه من الجبين إلى الذّقن، ومن الأذن إلى الأذن، ومن اليديْن والسّاعديْن إلى المرفق؛ ومن القدميْن إلى الكاحليْن؛ كذلك يُمسح الرّأس باليد المبلّلة. وهذا فرض يجب أن يسبق الصّلاة دائماً، إلّا إنْ لم يتيسّر الحصول على الماء، أو إن كان استعماله يلحق الأذى؛ فمن المسموح عندها استعمال التّراب. والآية التي أمرت بهذا الطّقس في سورة المائدة (6/5): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ﴾. إنّ التّعليمات القرآنيّة المتّصلة بالوضوء هي بسيطة إلى حدّ كافٍ؛ لكن ثمّة سنن مختلفة[2] بشأن الطّريقة، والتّرتيب

(1) يمكن أن تؤدّى الصّلاة في أيّ مكان ولا يشترط فعلها في المسجد أو في البيت. (المقوّم اللّغويّ).

(2) إنّ قواعد السّنّة هي: (1) النّيّة، وهي قول: «الحمدُ للّهِ الّذي جعلَ الماءَ طهوراً»؛ (2) غسل اليدين من رؤوس الأصابع إلى المرفقيْن؛ (3) تكرار أحد أسماء اللّه لدى بداية الوضوء؛ (4) الاستياك؛ (5) المضمضة؛ (6) الاستنشاق؛ (7) القيام بما سبق بالتّرتيب الصّحيح؛ (8) القيام بذلك بدون تلكّؤ بين الأجزاء؛ (9) كلّ عضو يُطهّر ثلاث مرّات؛ (10) المسافة بين أصابع اليد الأولى يجب أن تُفرك بأصابع اليد المبلّلة الأخرى؛

الذي يجب أن تغسل به أجزاء الجسم المختلفة، ويميل أكثرها إلى الشّكلانيّة، ويخرق تعاليم الصّلاة الجميلة، الشّجيّة في القرآن ﴿رَبَّنَا! وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا؛ رَبَّنَا! وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ(1)﴾. وبالوسع لحظ الشّكلانيّة المفرطة للوضوء من واقعة أنّه في حال غُسلت المناخير قبل الفم، أو اليد اليسرى قبل اليمنى، أو أصابع القدم اليسرى قبل أصابع القدم اليمنى، أو إذا لم يُغسل أيّ عضو ثلاث مرّات، فإنّ كلّ الشّعيرة تصبح لاغية، ولا يعود بوسع العابد القيام بالصّلاة اليوميّة.(2)

وقد رُوي أنّ القيام بالوضوء بشكل صحيح يغفر خطايا المؤمن العرضيّة.(3)

---

(11) تخليل اللّحية الكثّة بالأصابع؛ (12) مسح كامل الرّأس في وقت واحد؛ (13) مسح الأذنين بالماء المتبقّي على الأصابع بعد العمليّة الأخيرة؛ (14) تخليل أصابع الرّجليْن بخنصر يده اليسرى من أسفل الرّجل مبتدئا بخنصر الرّجل اليمنى خاتماً بخنصر اليسرى. انظر كانون سِل (*Faith of Islam,* (4th ed.) pp. 358–9).

(1) سورة البقرة: 286/2.

(2) مرّة أخرى بحكم تخصّصي في الشّريعة الإسلاميّة، أشير إلى أنّ هذا الكلام غير صحيح بالمطلق! ذلك أنّ الحد الأدنى المقبول في الوضوء هو غسل أعضاء الوضوء (الوجه ـ اليدين، والقدمين عند من يرى وجوب غسلهما لا مسحهما) مرّة واحدة. أمّا الزّيادة إلى المرّتين أو الثّلاث فهي من ـ سنن الوضوء ـ ويصحّ الوضوء ومن ثمّ الصّلاة بدونها. هذا لجهة عدد مرّات الغسل، أمّا كيفيّته التي أشار إليها الكاتب؛ فليست محلّ اتّفاق بين المدارس الإسلاميّة، والسبب في ذلك لغويّ محض! يتمثّل في وظيفة الحرف العاطف (الواو) هل هو للعطف مع التّرتيب أم لمجرّد العطف؛ فمن اعتبره يفيد التّرتيب بين المتعاطفات رأى وجوب التّرتيب في أفعال الوضوء ومَن لا فلا. حتّى في مسألة غسل القدمين أو مجرّد مسحهما فإنّ تنوّعاً في ذلك مبنيّ على أساس لغويّ أيضاً.(المقوّم اللّغويّ).

(3) ثمّة حديث يروي أنّ مُحَمَّداً قال: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لا

(2) الغسل:

هو شعيرة تطهيريّة خاصّة، يتمّ فيها غسل كامل الجسم، بالماء المصبوب ثلاث مرّات على الكتفين الأيمن والأيسر، وذات العَدَد على الرّأس. وإذ لا يجوز أن يُترك أيّ جزء من الجسم بدون تنظيف فإنّ المنخرين يجب أن يُنظّفا ويُغسلا، وكذلك الفم. وهذا الطّقس مفروض على كلّ من هو في حالة عدم نظافة أو نجاسة،[1] بسبب أفعال محدّدة قام بها، طوعاً أو كرهاً.[2] وهو يُسبق بالوضوء، وفي حال لم يتمّ بشكل صحيح ـ وحتّى لو كان ترك شعرة واحدة جافّة ـ فإنّ طقس الوضوء يصبح عقيماً وغير مجدٍ.

(3) التّيمّم:

أو التّطهّر بالرّمل،[3] ويحلّ محلّ الوضوء، عندما يتعذّر الحصول على الماء بسبب واحد ممّا يلي أو غيره:

(أ) بُعدُه؛[4]

(ب) وجود عدّو، أو حيوان مفترس، أو زواحف.

(ج) في حال المرض، أو عندما يكون الماء مؤذيّاً للصّحّة.

يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه» ـ صحيح البخاريّ، كتاب الوضوء. وفي تفسير البيضاويّ على سورة المائدة (6/5) يقول: «الوضوء كفّارة من الذّنوب».

(1) سورة المائدة: 6/5؛ سورة النّساء: 43/4.

(2) مثل الاتّصال الجنسيّ، لمس الموتى، الخ، انظر الإشارات القُرآنيّة الأخيرة.

(3) السّور السّابقة.

(4) الذي يتراوح بين ميل ونصف الميل إلى ميلَيْن.

(د) عند صلاة العيد، أو الجنازة؛ عندما يكون المؤمن متأخّراً عنها وليس ثمّة وقت للقيام بشعيرة الوضوء.

يتألف طقس التّيمّم من وضع المؤمن يديه المفتوحتين على الرّمل، ومن ثمّ مسح، أو تمريرهما على الأجزاء الواجب غسلها في الوضوء.[1]

ثمّة قضايا أخرى تتعلّق بالصّلاة يجب أن يُشار إليها، هي، أنّ المصلّي يجب أن ييمّم وجهه صوب مكّة، ويقوم المصلي بحركات محدّدة، تقليم الأظافر، وإبعاد النّساء عن أماكن الصّلاة العامة.

لدى دراستنا لأصل هذه الصّلاة المعقّدة نسبيّاً، لا سيما فيما يتعلق بعدد مرّات الصّلاة اليوميّة المفروضة في القرآن؛ يمكننا أن نلحظ أوّلاً، أنّ الممارسة الإِسْلاَمِيّة لها مواضع مشتركة عديدة مع اليهوديّة. إنّ آيات القرآن الباكرة التي أشارت إلى الشّعيرة، تعطي وزناً لصالح الاعتقاد بأنّ مُحَمَّداً في أيّام رسالته الأولى وعندما كان على علاقات طيّبة مع اليهود، وحينما كان يأمل بأن يعترفوا به بوصفه النّبيّ الآتي، فإنّه قلّد الطّقس اليهوديّ بشأن عدد مرّات الصّلاة التي يجب أن تُؤدّى يوميّاً. ففي سورة هود (114/11) (وهي سورة مكّيّة متأخّرة)، أُمر المسلمون: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ، وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ﴾. وتحتوي سورة ق (39/50، 40) (وهي سورة مكّيّة مبكرة) على الأمر ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ. وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾.[2] وفي

(1) المطلوب مسح الوجه واليدين فقط وليس كلّ أعضاء الوضوء. ففي الآية: (...فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ...) (سورة المائدة 6). (المقوّم اللّغويّ).

(2) تكملة هاتيْن الآيتيْن هي: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾. ويجعلها بِل «الأجزاء الإضافيّة للعبادة»، ويقول في ملحوظة: «إنّ هاتيْن السّجدتيْن اللّتيْن تُؤدّيان بعد صلاة المساء غير مفروضتين، بل هما تطوّعيّتان، وهما نفل؛ ومن ثمّ، يمكن إضافتهما أو

سورة الإسراء (78/17) (وهي سورة مكيّة مبكرة أيضاً) ثمّة أمر: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ، إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾.

إنَّ هذه الآيات،[1] التي تعلّم إقامة الصّلاة ثلاث مرّات في اليوم، تشير إلى أنّ مُحَمَّداً كان في البدء يتبنّى عُرْف اليهود كما بُسط في كتب العهد القديم، وفي الكتابات التّلموديّة. نقرأ في دَانِيال (10/6) ورغماً عن تحريم الملك: «فَجَثَا... ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ، وَصَلَّى وَحَمِدَ قُدَّامَ إِلَهِهِ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ قَبْلَ ذَلِكَ». ويقول داود ناظم المزامير: «سوف أصلي في المساء والصّباح والظّهر، وأنادي بصوت عالٍ». إنّ التّوجيه قد أُعطي في التّلمود[2] لإقام الصّلاة ثلاث مرّات في اليوم بناء على مثال إبراهيم،[3] وإسحاق،[4] ويعقوب.[5] وثمّة أيضاً

إهمالهما، على حدّ سواء». ويقول ويري على أيّ حال: «إنّ الأجزاء الإضافيّة للعبادة أمرت بها هنا، ومن ثمّ، لا يستطيع المسلمون اعتبارها غير مهمّة. ومن الأفضل تطبيق هذه الكلمات على ساعات الصّلاة الأخرى غير المذكورة هنا » (Wherry, *Comprehensive Commentary on the Qur'an*. vol. iv, p. 78, note 39).

(1) قارن: سورة الأعراف: 205/7؛ سورة الرّعد: 15/13، التي يفرض فيهما الصّلاة صباحاً ومساءً. وهما سورتان مكّيّتان متأخّرتان.

(2) براخوت (التّلمود البابليّ)، الورقة 7ب، العمود1: «من أين جاء (القدام) بالصّلوات الثّلاث؟ لقد أقاموها على أوقات اليوم الثّلاثة... الصّباح... العصر... المساء. ويقول ر. يهوشواه بن ليفي: لقد تعلّموها (الصّلوات الثّلاث) من الآباء... إبراهيم... إسحاق... يعقوب». «نذر للصّوم... يجب أن يذكر لدى كلّ من الطّقوس الثّلاث (المساء، الصباح، العصر)».

(3) التّكْوين: 27/19.

(4) التّكْوين: 63/24.

(5) التّكْوين: 11/27، الخ.

غرارات مقدّمة في الأناجيل المختلقة لصلاة التّضحية الصّباحيّة والمسائيّة.[1]

بيد أنّ في آيات أخرى فإنّ مُحَمَّداً يبتعد عن العرف اليهوديّ في هذا الجانب، وجوانب أخرى، وزاد من عدد مرّات الصّلاة الواجبة على أتباعه يوميّاً. وقد جرى ذلك بعد إسرائه المشهور إلى السّماء عندما، قيل: إنّه تلقّى الأمر الإلهيّ بفرض الصّلاة على أتباعه خمس مرّات في اليوم واللّيلة. وفي مقطع أشرنا إليه من قبل، ورد في سورة الرّوم (17/30، 18)، كان الأمر ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ، وَحِينَ تُصْبِحُونَ... وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾. وفي معرض شرح هذا المقطع وفق قراءة تجعله متناغماً مع السّائد في عالم المسلمين، فإنّ المفسّرين المسلمين يؤكّدون أنّ صلاة المساء، تشتمل على كلّ من صلاة المغرب وصلاة العشاء، أي صلاة المغرب، وبعد المغرب.

ذُكر في سورة طه (130/20) أربعة مواعيد يجب أن تُقام فيها الصّلاة ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ،... وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾. ومن هذه والآيات السّابقة التي ذُكر فيها أربع مواعيد للصّلاة، فإنّ بعض الكتّاب الإنجليز[2] حول الإسْلام، يؤكّدون أنّ مُحَمَّداً عيّن أربع مواقيت للصّلاة اليوميّة، وليس خمسة. بيد أنّ تفسيرنا للقرآن، وبالأخصّ في المسائل المتّصلة بمعنى المفردات أو العبارات، يجب أن يُرشد بآراء وشروحات المفسّرين المنتمين للدّيانة الإسْلاَمِيّة؛ كما نتمسّك بأنّ لاهوتيّاً مسيحيّاً هو أفضل شارح للكتاب المقدّس من أي ذي دين آخر.

فيما يتّصل بالآية أعلاه (130/20)، علينا من ثمّ، أن نقبل الشّرح المقدّم من جانب البيضاويّ، في أنّ ﴿وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ﴾ تعني صلاة المغرب العشاء، و

---

(1) عَزْرا: 50/5؛ القُضَاة: 1/9؛ 17/11؛ 6/12ـ8.

(2) *E.g.* Bosworth Smith, *Muhammad and Muhammadanism*, p. 196.

﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ تشمل صلاة الظّهر والعصر، وإنّ عبارة ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ تعني التّأكيد على ضرورة صلاتي الفجر المغرب.

ولكن بمعزل عن هذه الشّروحات، فإنّ الحقيقة تبقى أنّ مواقيت الصّلاة الخمسة التي يؤدّيها أتباع النّبيّ كانت موجودة منذ سحيق الزّمن؛ وإنّ أصل الشّعيرة، كما نعتقد، ليس صعب الاكتشاف.

لقد رأينا من قبل[1] أنّ مُحَمَّداً أخذ كثيراً من الشّعائر الدّينيّة من ملّة الصّابئين القديمة. وبالفعل، فإنّ الشّبه كان وثيقاً بين شعائر صابئيّة كثيرة وهذه الطّقوس التي أخذها مُحَمَّد، بحيث إنّ بعض معتنقي الإسْلام حديثاً عبّروا عن الإيمان بأن أصبحوا صابئين. وثمّة وصف دقيق لهذه الشّعائر الصّابئيّة أوردها الكاتب العربيّ أبو عيسى المغربيّ، الذي يبدو أنّه يعيّن بشكل قاطع المصدر المباشر الذي أخذ منه مُحَمَّدٌ أوقات الصّلاة الخمسة. يقول: «وللصّابئين عبادات، منها سبع صلوات، منهنّ خمس توافق صلوات المسلمين. والسّادسة صلاة الضّحى، والسّابعة صلاة يكون وقتها في تمام السّاعة السّادسة من اللّيل. وصلاتهم كصلاة المسلمين من النّيّة وألّا يخلطها المصلّي بشيء من غيرها. ولهم الصّلاة على الميت بلا ركوع ولا سجود».[2] إنّ هذا التّطابق الذي يشير إليه الكاتب القديم بين المواعيد الخمسة لصلوات المسلمين، والأوقات الخمسة (من سبع) المحدّدة التي يقيمها الصّابئة، لا يمكن أن تكون عرضيّة؛ وإذْ كان لدى المسلمين أوقات أخرى للصّلاة النّافلة، أو التّطوّعيّة التي يمكن إقامتها، فهذا يجعل شعيرتهم في تناسق مع ما لدى الصّابئة، وعلينا أن نستنتج من ذلك أنّ مُحَمَّداً أخذ هذه الأوقات الخمسة المعيّنة بشكل مباشر من هذا المصدر.

(1) الفصلان الأوّل؛ والخامس.

(2) استشهد به أبو الفداء في المختصر في أخبار البشر، ص 148.

لكن بوسعنا أن نسأل: هل كانت العبادة الصّابئيّة المصدر النّهائيّ للطّقس الإسْلاَمِيّ؟ ألَم يكنْ ثمّة منظومة دينيّة أقدم أو أكثر نأياً؛ يمكن إرجاع الصّلاة الإسْلاَمِيّة إليها؛ والتي ربّما كان الصّابئون القدامى مدينين بتقاليدهم لها بدرجة ما؟

نعتقد في أنّ الجواب يجب أن يكون بالإيجاب! إنّ العودة إلى الآفِستا تظهر أنّ الزّرادشتيّين أُمروا بأن يقيموا الصّلاة خمس مرّات يوميّاً، فبحسب الآفِستا اليوم مقسّم إلى خمسة أوقات، تعود فيها الگاهات،[1] أو الصّلوات، إلى كلّ وقت يجب أن تُتلى فيها. وهذه الأوقات[2] أو التّقسيمات هي:

1. أوشاهينا، الوقت المقدّر من منتصف اللّيل حتّى مغيب النّجوم: (12 ليلاً حتّى 6 صباحاً).
2. هاڤاني، من الشّروق إلى منتصف النّهار (من 6 صباحاً حتّى 12 ظهراً).
3. راپيثوينا، من منتصف الظّهيرة إلى بداية الشّفق (من 12 ظهراً إلى 3 بعد الظّهر).

---

(1) إنّ مفردة «گاهات» تنطبق على التّقسيمات الخمسة لليوم. وربّما نشأ المصطلح من طقس تلاوة الگاثاس لدى أوقات مختلفة في اليوم. إنّ الگاثاس من أقدم الكتابات الأڤِستيّة، ويتألّف من تراتيل مشابهة لما في الڤيدات. وهي تُنسب إلى النّبيّ زرادشت.

(2) ربّما من الممتع لحظ وجود خمس صلوات للپارسيّين العامّيّين، وهي موجّهة للشّمس، وإلى ميثرا، وإلى القمر، وإلى المياه، وإلى النّار. إنّ مصطلح «نيايس» (وهي صلاة استجداء، وتتمايز عن «سيتايس» صلاة الحمد)، تنطبق بالخصوص على هذه الصّلوات الخمس. إنّ نيايس الشّمس متلوّة ثلاث مرّات في اليوم، لدى الشّروق (گاه هاڤان)، ولدى الظّهر (گاه راپيثڤين)، لدى الثّالثة بعد الظّهر (گاه أوزيرِن). وتُتلى يوميّاً نيايس الميثرا مع نيايس الشّمس، ونيايس الماء ونيايس النّار (عندما يكون المرء أقرب إلى هذه العناصر).

4. أوزاييرينا، من بداية الشّفق إلى طلوع النّجوم (من 3 بعد الظّهر إلى 6 مساءً).

5. أيويسروثريما، من ظهور النّجوم إلى منتصف اللّيل (من 6 مساءً إلى 12 ليلاً).

إنَّ كلَّ زرادشتيّ بعد أنْ يُقلَّد الكاستي، أو الحبل المقدّس للپارسيّين (انظر سابقاً) عليه أن يقيم الگاهات أو الصّلوات الخاصّة التي تعود إلى هذه الأوقات الخمسة المنفصلة لليوم. على أيّ حال، من اللّحظ الشّخصيّ، والاتّصال مع معارف پارسيّين، يجب الإقرار بأنّ هذه الأوقات الخمسة للصّلاة، تُتّبع بشكل متقطّع من قبل الغالبيّة العظمى من الپارسيّين.(1) فيما زال الپارسيّون الورعون متقيّدين بأداء هذا الواجب.

إنَّ مقارنة هذه الأوقات الخمسة لصّلوات الزّرادشتيّين مع صلاة المسلمين، تكشف تطابقاً مدهشاً فيما بينهما، ومن ثمّ، فإنّ من الجليّ أنّنا وصلنا إلى أصل هذه الشّعيرة الإِسْلاَمِيّة في الأوقات الخمسة المحدّدة في اليوم لإقامة الصّلاة في الزّرادشتيّة.

وفيما يتعلّق الآن بأصل الوضوء الذي يسبق الصّلاة، والواجب القيام به بدقّة إذا ما كان للصّلاة أن تكون مقبولة؛ يمكننا أوّلاً لحظ أنّه كان للعرب غسول

(1) ذات يوم صادفت زيارتي لصديق پارسيّ وهو يؤدّي صلاته الصّباحيّة، فكان يبادلني الحديث في ذات الوقت، وجواباً على سؤالي إنْ كان يقيم الصّلاة خمس مرّات في اليوم المفروضة في الأڤِستا، فإنّه أجاب بنفي قاطع: «لو لم نكن في العالم، أو لم يكن لدينا ما نقوم به غير الصّلاة، فإنّنا قد نقيم الصّلوات الخمس كلّ يوم، لكن لكوننا منشغلين في التّجارة، فأمر متعذّر. نحن دائماً نؤدّي صلاة واحدة، إمّا صباحاً أو مساء، وبالعموم اثنتين؛ إنّ الپارسيّين الورعين يؤدّون جميع الصّلوات الخمس؛ وهذا الأمر متعلّق بالنّزوع الدّاخليّ».

طقسيّة، كانوا يتّبعونها بعد كلّ تدنيس، مثل غسل الأسنان، وتقليم الأظافر،[1] الخ؛ ولا شكّ في أنَّ مُحمَّداً قام بنسخ هذه الأعراف بانتقائيّته المعتادة، وأدخلها للإسْلام. لكن كان ثمّة لدى اليهود تطهّر طقوسيّ أكثر تحديداً وإحكاماً، كما وُضع في الّلاوِيِّين وشُرح في التّلمود. إنّها الغسول والشّعائر الطّقسيّة المُشار إلى دقتها الفَرِّيسِيَّة في العهد الجديد،[2] التي كان يمارسها اليهود في عهد مُحَمَّد، وهي تذكّر كيف أنّ مُحَمَّداً أقرّ في البدء بالدّيانة اليهوديّة مساوية، ولها مرجعيّة مماثلة، للإسْلام،[3] وإذا أخذنا بعين الاعتبار التّناظر الوثيق هنا بين الطّقوس والشّعائر اليهوديّة والإِسْلاَمِيّة، وبالأخصّ بين طقوس التّطهّر كما مارسها اليهود والمسلمون، فليس ثمّة، كما نعتقد، مجالاً للشّكّ بأنّ الطّقوس الإِسْلاَمِيّة كانت مأخوذة من اليهود. وحتّى التّيمّم مأخوذ منهم.[4]

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، طبعة فلايشر، ص 180.

(2) مَتّى: 2/15؛ 25/23، 26؛ مَرْقُس: 2/7، 5، 8؛ ومجازيّاً في كُورِنْثُوس: 1/7؛ أفسس: 26/5؛ يَعْقُوبَ: 8/4.

(3) سورة البقرة: 62/2.

(4) يقول تيسدال في مصادر الإِسْلام، ص 127: «إنّه ثمّة هنا مجال للشّكّ». بيد أنّ أكثر الكتّاب المختصّين بالإِسْلام (الذين اتّفق معهم) يرجعون هذه الطّقوس إلى اليهوديّة، انظر:

Muir, *Life of Mahomet*, p. 181; C. Snouck Hurgronje, *Mohammedanism*, p. 57; D. S. Margoliouth, *Mohammed and the Rise of Islam*, p. 102-3.

وانظر:

Berakhoth (*Jer. Tal.*), fol. 11*b*. col. 2, and fol. 12*a*. col. 1; *Kabbalah Kitzur Sh'lh*, fol. 61, col. 1, 2.

لأجل غسل الوجه، واليديْن، والقدميْن، وكامل الجسم؛ وكذلك لتقليم الأظافر. إنَّ التّيمّم، أو التّطهّر بالرّمل مفروض أيضاً في التّلمود، عندما يتعذّر الحصول على الماء. ترجمة

كان الإبيونيّون والصّابئة يتّبعون أشكال وضوء مشابهة بعض الشّيء لتلك المفروضة في القرآن،[1] ومن ثمّ، من الممكن أنّهم مارسوا تأثيراً على مُحَمَّد عندما كان يؤسّس طقوسه للتّطهّر، بيد أنّه حقيقة راسخة، أنّه في هذه، وفي غيرها من العادات الإِسْلاَمِيّة المنقولة والفكر، فإنّ التّأثير اليهوديّ كان الأبرز.

ثمّة طقوس أخرى يقوم بها المسلمون بشأن الصّلاة، وهي المصادر التي لا يزال علينا الإشارة. إنّ وضعيّات الجسم المختلفة، وبالأخص حركات الوقوف، والرّكوع، والسّجود التي يؤدّيها المصلّون خلال الصّلاة، هي تقاليد يهوديّة.[2] على أيّ حال، لقد كانت هذه الوضعيّات تُمارس من جانب الصّابئة، وحقيقة إنّ هذه الحركات لا تُؤدّى من قِبل المسلمين والصّابئين عند الصّلاة على الميت،[3] لهو مؤشّر آخر على التّأثير الصّابئيّ في الإِسْلام.

براخوت، الورقة 15أ [«مَنْ ليس لديه ماء يغسل به يديه، فعليه أن يمسحهما بالأرض»، أي بالرّمل؛ قارن: سورة النّساء (43/4)؛ سورة المائدة (6/5)]؛ م.ن. الورقة 46 (מְקַנֵּחַ בִּצְרוֹר וְדַיוֹ «من يطّهر نفسه بالرّمل، قام بما يكفي»).

(1) يشير إيبفانيس (*Haer*. x) إلى طقوس الوضوء هذه لدى الإبيونيّين.

(2) تحتوي رسالة البراخوت على أوامر عديدة بشأن وضعيّات الصّلاة: الورقة 3ب، العمود2 (التّلمود الأورشليميّ)، «علينا أن نسجد، ونركع، وننحني أمامك»، ذاته، الورقة 13أ،العمود2، «على كلّ الرّجال في المساء أن ينحنوا لدى تلاوة صلاة شماع، وفي الصّباح عليهم الوقوف»؛ قارن سورة النّساء (104/4) (﴿فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً﴾)؛ سورة آل عمران (191/3)؛ سورة البقرة (238/2)؛ سورة يونس (12/10)؛ سورة الرّعد (15/13) (﴿يَسْجُدُ﴾)؛ سورة الفرقان (64/25) (﴿سُجَّداً﴾). كذلك، في كتب العهد القديم والجديد، فإنَّ الْعَشَّارِ «وَقَفَ» (لوقا: 13/18). ودَانيال: «جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ» (دَانِيال: 10/6)؛ وإبراهيم «سَجَدَ إِلَى الأَرْضِ» (التَّكْوِين: 3/18)؛ «وَأَنْحَنِى لِلإِلَهِ» (مِيخَا: 6/6).

(3) انظر الصّفحات السّابقة.

يمكننا لحظ أنّ مُحَمَّداً في سورة الرّعد (15/13)،[1] لأجل فرض صيغ الاحترام هذه، قدّم درساً من سجود عالم الطّبيعة، والظّلال الممتدّة التي تسقط على الأرض بأشعة الشّمس في الصّباح والمساء.

إنَّ العرفَ الإِسْلاَمِيّ في الصّلاة العلنيّة في شوارع المدن، أو على جوانب الطّرقات، أو حيثما صادف وجود المسلمين لدى حلول موعد الصّلاة، يمكن تقصّيه في العرف الفَرِّيسِيّ في «أَنْ يُصَلُّوا قَائِمِينَ فِي الْمَجَامِعِ، وَفِي زَوَايَا الشَّوَارِعِ» ـ الذي أدين في الموعظة على الجبل (مَتَّى: 5/6). وقد كان اليهود في الجزيرة العربيّة في زمن مُحَمَّد المتحدّرين المباشرين من الفَرِّيسِيِّين المذكورين في الأناجيل، وكانوا يحتفظون بأشكال التّقوى الخارجيّة للعبادة. وزيادة على ذلك، أُشير إلى هذه الممارسة في التّلمود، براخوت، الورقة 9أ، العمود1 [«إذا ما كان المرء واقفاً، يتلو الصّلوات في الطّريق (ستراتا) أو الطّرقات العامّة (بالاتيوم)، فإنّ عليه أن يخرج من الطّريق للسّماح للحمير أو العربات بالعبور، على أيّ حال، بدون قطع الصّلاة»]. وكان من الطّبيعي أن يتبنَّى مُحَمَّدٌ هذه الممارسة اللّافتة للنّظر التي كانت تقوم بدور درس حسّيّ للعرب يفيد بأنّ المسلمين ليسوا بأقلّ تقوى في عبادتهم للّه من اليهود.

إنَّ فصل[2] الرّجال عن النّساء في الصّلاة العامّة، والتي كانت ممارسة

---

(1) [﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، طَوْعاً وَكَرْهاً، وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾].

(2) تُستثنى النّساءُ من الصّلاة العامّة في المساجد لدى وجود الرّجال. لكن إنْ كانت النّساء في الحجّ، فإنّه يُسمح لهنّ بدخول المسجد والوقوف خلفاً في الصّلاة. على أيّ حال، إنّ الكاتب لم يصادف قطّ امرأة في مسجد، ويؤكد لي مسلم، يعمل بالجوار منّي في الوقت الحاليّ، إنّه لا يُسمح للنّساء أبداً بدخول المسجد.

إضافة المقوّم اللّغويّ: منع النّساء من دخول المساجد مخالف للإسلام، وما يقوم به

شائعة لدى اليهود والمسلمين، كما أنّ سلوكهم في العبادة القاضي بتغطية الرّؤوس والأقدام العارية، لهو عادة شرقيّة على نحو مميز. ويمكن لحظ هذا العرف اليوم، حتّى بين الجماعة المسيحيّة الهنديّة، لكن في بعض المناطق شرع المسيحيّون الهنود بتقليد عادات الأوربّيين بالسّفور أثناء الصّلاة.

إنَّ الممارسة الإِسْلاَمِيّة لصلاة الجماعة التي لم يؤدّها الوثنيّون، هي عرف يهوديّ؛ وكانت مفروضة بشكل واضح على اليهود في العهد القديم.[1] كما أقامها المسيحيّون أيضاً، وفق الأمر الإلهيّ الوارد في العهد الجديد.[2]

إنَّ الأمر القرآنيّ[3] بتقصير الصّلاة في وقت الخطر، مأخوذ أيضاً من التّلمود؛ «بوسع مَنْ يسلك مكاناً خطراً أنْ يقصر صلاته» (براخوت، التّلمود البابليّ، الورقة 7أ، العمود 1). كذلك يمكن أن تُتلى الصّلاة في حالة الرّكوب؛[4] «إذا ما كان المرء راكباً... فإنّ عليه أن ييمّم وجه... و... يوجّه قلبه نحو قدس الأقداس» (براخوت، التّلمود البابليّ، الورقة 8ب، العمود 2). والصّلاة محرّمة على السّكران والجنب؛[5] «محرم تلاوة المرء لصلاته وهو سكران» (براخوت، التّلمود البابليّ، الورقة 7أ، العمود 1)؛ «من كان سكران فعليه ألّا يصلّي» (يوربين، الورقة، 64أ)؛ قارن (براخوت، الورقة31ب)؛ -إنْ كان الرّجل جُنباً، فكلّ ما عليه أن يستحمّ (قبل الصّلوات)» (براخوت، التّلمود

المسلمون الهنود من ذلك نابع عن تشدّد لا يقرّه الإسلام. وقد جاء في الحديث: لا تمنعوا إماء الله مساجد الله.

(1) اللاويّين: 3/8؛ العَدَد: 9/8؛ إِشَعْيَاء: 20/45؛ لُوقَا: 10/1.

(2) الْعِبْرَانِيِّين: 25/10.

(3) سورة النّساء: 102/4.

(4) سورة البقرة: 239/2.

(5) سورة النّساء: 43/4.

البابليّ، الورقة 6ب، العمود 1).

في أيام الدّعوة المكّيّة، عندما كان يبدو أنّ لدى مُحَمَّد تصوّراً أكثر صحّة عن طبيعة الصّلاة ممّا في سنيّه الأخيرة؛ لم يكن مطلوباً من أتباعه أن ييمّموا وجوههم إلى وجهة محدّدة في الصّلاة: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّه[1]﴾. لكن بعد وصوله المدينة، حيث كان ثمّة جاليّات كبيرة من اليهود الذين كان على علاقة طيّبة معهم في مستهلّ أمره، فإنّ مُحَمَّداً تبنّى القبلة باتّجاه هيكل أورشليم،[2] بوصفه المكان الواجب إدارة الوجه إليه في الصّلاة، وربّما كان ذلك عائداً إلى توقيره لصيغة العبادة اليهوديّة، والتي كان يُنظر إليها أنّها من اللّه. وربّما كان لاستمالة «بني إبراهيم»، آملاً أنّ يقرّوا به نبيّ اللّه. بيد أنّه عندما لم تتحقّق هذه الآمال، وقُطعت عرى هذه العلاقات المتوتّرة، فإنّ مُحَمَّداً استنزل «وحياً»[3] مناسباً يأمر بأن تكون الكعبة، أو هيكل مكّة، قبلة

(1) سورة البقرة: 115/2.

(2) سورة البقرة: 142/2، 143. وقد اتّبع مُحَمَّدٌ هذا الطّقس لعدّة أشهر بعد الهجرة. ويقول البخاريّ: «وأنّهُ صَلّى قِبَلَ بَيتِ المَقْدِسِ سِتّةَ عَشَرَ شَهْراً، أو سَبْعَةَ عَشَر شهراً، وكان يُعْجِبُهُ أنْ تَكونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيتِ»، صحيح البخاريّ، كتاب الإيمان، المجلّد 1، ص 18. ومن أجل الممارسة اليهوديّة كما بُسطت في التّلمود، انظر البراخوت (التّلمود الأورشليميّ)، الورقة 8 ب، العمود 1: «أولئك الذين في الأقطار (خارج فلسطين) عليهم أن يمّموا وجوههم شطر الأرض المقدّسة... والذين يعيشون في فلسطين عليهم أن يمّموا وجوههم شطر أورشليم... والذين يصلّون في أورشليم عليهم أن يمّموا وجوههم نحو جبل الهيكل... والذين على جبل الهيكل عليهم أن يمّموا وجوههم شطر قدس الأقداس»؛ ذاته، الورقة 7ب، العمود1؛ الورقة 8أ، العمود 2؛ وبابا باثرا، الورقة 25ب. ومن أجل الكتاب المقدّس، انظر 1 ملوك: 29/8، 30؛ اَلْمَزَامِير: 7/5؛ 2/138؛ دَانِيال: 10/6؛ يُونَانَ: 4/2.

(3) سورة البقرة: 125/2؛ 144، 150. وقد كان ذلك في السّنة الثّانية للهجرة؛ أو 623

المسلمين. ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ؛ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا. فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ(1)﴾.

لقد كان تغيير القبلة عملاً سياسياً ذكياً من جانب مُحَمَّد، لأنّه عزل اليهود أكثر، وساعد على المصالحة مع العرب، وكسبهم للإِسْلام، ذلك أنّهم كانوا يقدّسون المقام القديم في مكّة.

وزيادة على ذلك، فإنّ تولية الوجه، والتّذكّر الدّائم لبيت مكّة المقدّس في الصّلاة، جعله مركز ومحور الإيمان الإِسْلاَمِيّ، ولعب بطريقة ما دوراً في تقدّم وتطوّر الإِسْلام. لقد أيقظ وغذّى العاطفة نحو مكان ذي قدم كبير، ويُظنّ به القداسة بوصفه «بيت إبراهيم»، وأدّى إلهاب الحماسة الدّينيّة للمؤمنين في اتّباع طقوس وشعائر إيمانهم إلى تثبيت هذه الطّقوس بشكل أقوى على أتباع النّبيّ.

ولم يكن من المفترض أنّ اليهود كانوا سيسمحون بأن تمرّ هذه المناسبة بدون النّيل من مُحَمَّد على تقلّبه وعدم ثباته واتّخاذه مقاماً وثنياً قبلةً له؛ ويمكن سماع صدى اعتراضاتهم في محاولة مُحَمَّد للرّدّ عليهم. ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ: «مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا؟» قُل، لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(2)﴾. ويبدو أنّ مُحَمَّداً كان يدرك فعلاً صعوبة إحداث التّغيير، وفعاليّة التّوبيخات اليهوديّة، ذلك أنّه في سورة البقرة قال: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ(3)﴾؛ وفي ذات الآية قال:

ميلاديّة.

(1) سورة البقرة: 144/2.

(2) سورة البقرة: 142/2.

(3) سورة البقرة: 143/2.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ التِي كُنتَ عَلَيْهَا، إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرّسُولَ، مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾. بهذا الشّكل، بذل النّبيّ الانتهازيّ بـ «آياته» البارعة، وبنظريّته المخترعة بدهاء بشأن النّسخ(1) جهداً كبيراً لتغطية تقلّبه في تحويل القبلة من هيكل يهوا في أورشليم إلى مقام وثنيّ في مكّة، جاعلاً منه مركز الإسْلام، والمحور المطلوب من أتباعه تأدية عبادتهم للّه الواحد الحقّ.

في ختام هذا الفصل، يمكننا الإشارة باختصار إلى طقس الختان، الذي يمارسه المسلمون، والذي لم يُفرض في القرآن أو في الأحاديث، ومن ثمّ، لا يمكن أن يُعدّ طقساً، أو عُرفاً للإسْلام.(2) لقد كان طقساً إبراهيميّاً،(3) وكان يمارسه اليهود، والعرب أيضاً(4) قبلَ زمن مُحَمَّد. ويقول إيبفانيوس (Haer. x.) أيضاً: إنّ «الإبيونيّين كانوا يتقيّدون بالختان». ومن ثمّ، من الواضح، أنّ المسلمين يقيمون طقساً كان متّبعاً بشكل فعليّ وعموميّ في الجزيرة العربيّة في عهد مُحَمَّدٍ.

(1) سورة البقرة: 106/2؛ سورة الرّعد: 39/13؛ سورة النّحل: 101/16. ويمكن لحظ أنّ الكتابات الحبريّة تحتوي على عقيدة «النّسخ»، انظر هيلخوث ماميريم، الثّاني، 1، 2.

(2) يقول هوگس في (*Notes on Muhammadanism*, p. 103, note) « على الرّغم من أنّ الختانَ لم يُفرض ولا مرّة في الْقُرْآن أو في الأحاديث، فإنّه قانون في الإسْلام؛ وهو ليس إلزاميّاً على البالغين، إنّ تلاوة الشّهادة كافية». مع أنّ المسلمين يطبّقون الطّقس، فإنّه لا يمكن أن يُسمّى «عرفاً» في الإسْلام؛ انظر موير (*Life of Mahomet*, p. 185)؛ ويري (*Comp. Comm. on the Qur'an*, vol. II. p. 168)؛ د. س. مرگوليوث (*Mohammedanism*, p. 115).

(3) التّكْوين: 10/17، 23 ـ 27.

(4) انظر (Pococke, *Hist. Arab*, p. 319). ويقول هِيرودوتوس (14/2) إنّ الفينيقيّين والسّريان أخذوا الطّقس من الأحباش والمصريّين الذين هم أوّل من مارسوه.

الفصلُ الحادي عشر

الصّيام

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ! كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ، كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[1]﴾

لقد وصلنا إلى دراسة الصّيام[2] في شهر رمضان، وهو الواجب العمليّ الثّالث المفروض على المسلمين.

إنّ طقس الصّيام فرض يتضمّن الامتناع عن المعاشرة الجنسيّة مثل الامتناع عن الطّعام والشّراب، ويبدو أنّ الطّقس علمه مُحَمَّدٌ في المدينة، ذلك أنّه ذُكر مرّة واحدة في سورة مكّيّة،[3] وبصيغة تاريخيّة فحسب، وليس أمراً للمؤمنين. على أيّ حال، إنّ مُحَمَّداً في المدينة، أدرك سريعاً من ممارسة الآخرين الأهمّيّة الدّينيّة لفرض مثل هذا العمل التّكفيريّ على أتباعه الذي سيضفي عليهم لوناً من القداسة، وإذْ كان معنيّاً في ذلك الوقت بمسألة استرضاء اليهود، وجعل

(1) سورة البقرة: 183/2.

(2) يتداول المسلمون في الهند المفردة الفارسيّة روزا للإشارة إلى صيام رمضان. وفي العربيّة تُستعمل مفردة صوم.

(3) سورة مريم: 26/19.

الإسْلام متوافقاً مع الشّعائر اليهوديّة، فإنّه تبنّى في أوّل الأمر صيامهم في يوم الكفّارة،[1] والذي استبدله لاحقاً بصيام رمضان. وقد غدا الطّقس شديد الأهمّيّة في الإسْلام، وقيل: إنّ مُحَمَّداً سمّاه «باب الدّين»؛[2] ورأى الغزاليّ أنّه الجزء الرّابع من الإيمان.

يُؤدى الصّيام خلال شهر رمضان، وهو الشّهر التّاسع في السّنة المُحَمَّديّة، وأكثر الأشهر قداسة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ[3]﴾.

إنَّ التّقيّد بهذا الصّيام مفروض خلال اليوم فحسب من شروق الشّمس إلى غروبها. وأُحل تلبية كلّ شهوة بعد الغروب، وخلال اللّيل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ... وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ؛ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ[4]﴾. بيد أنّه في ذات الوقت، فإنّ هذه الكفارة اليوميّة هي إماتة الجسد، لا سيّما لدى حلول رمضان في طقس حارّ، كون السّنة المُحَمَّديّة قمريّة. وبالنّسبة للفقراء، والذين عليهم العمل طوال اليوم في الحرّ كسباً لرزقهم، هو طقس شاقّ. ورغم ذلك، فإنّ

---

(1) يروي ابن عبّاس حديثاً في أنّ مُحَمَّداً بعد وصوله المدينة «وَجَدَ الْيَهُودَ صُيَّاماً، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ أَنْجَى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى، وَأَغْرَقَ فِيهِ فِرْعَوْنَ؛ فَصَامَهُ مُوسَى شُكْراً. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: نَحْنُ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ؛ فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ». (مشكاة المصابيح، الكتاب السّابع، الفصل السّابع).

(2) جاء في مشكاة المصابيح، الكتاب السّابع، الفصل الأوّل أنّ مُحَمَّداً قال: «فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانَ لاَ يَدْخُلُهُ إِلاَّ الصَّائِمُونَ»؛ «إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ»؛ «إِذَا كَانَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ».

(3) سورة البقرة: 185/2.

(4) سورة البقرة: 187/2.

المسلمين يتقيّدون به بصرامة، ولم يرَ الكاتب قطّ أنّه خُرق بشكل غير قانونيّ. لقد اعتُبر كفّارة عن الذّنوب العرضيّة؛[1] وأنّه باب خاصّ لدخول الجنّة، لأولئك الذي يتقيّدون به.

يُنقض الصّيام إذا دخل الحلق أقلُّ قطرة ماء، أو كسرة طعام، طوعاً أو كرهاً؛ وإذا ما بقيت أجزاء من طعام اللّيلة السّابقة بين الأسنان؛ أو إذا حُقن المرء، أو وَضع دواءً في الأنف أو الأذنين؛ وإذا ما تقيّأ الطّعام، أو إنْ لم تُجرَ النّيّات بشكل صحيح. وإذا ما اضطرّ المرء لعدم الصّيام، فعليه أن يؤدّي صيام القضاء في زمن آخر بدلاً عن الأيّام التي أفطر فيها.

إنّ صيام رمضان مثل الصّلاة طقس أساسيّ، يجب أن يؤدّى حرفيّاً، وإلّا صار باطلاً وعقيماً. إنّ العابد الذي ربّما اختبر كلّ القسوة والصّعوبة للطّقس على مدى تسع وعشرين يوماً، ولكن في اليوم الأخير، أهمل بدون وعي، تأدية بعض النّقاط الصّغيرة المتّصلة به، يُعتبر عاصياً؛ ولا يُقبل منه صيامه السّابق، وعليه أن يصوم مجدّداً ﴿عِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. وتُفرض العقوبات الشّديدة على انتهاك الصّيام العمديّ.

هنالك أشخاص محدّدون معفون من أداء الصّيام؛ وهم الأطفال واليافعون الذين لم يبلغوا سنّ الحُلم، والنّساء الحوامل أو المرضعات، والبلهاء. والمرضى والمسافرون؛ لكن عليهم أن يصوموا ﴿عِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ[2]﴾.[3]

(1) مشكاة المصابيح، الكتاب السّابع، الفصل الأوّل، القسم الأوّل.

(2) سورة البقرة: 184/2.

(3) يقول بولتون في كتابه (*Pilgrimage to al-Madinah and Meccah*, vol. i. p. 74)، لمّا كان في القاهرة يتهيّأ للحجّ متنكّراً كعالم دين: «لم أجد إلّا مريضاً واحداً كان يأكل حفاظاً على حياته». تقريباً ذات الصّعوبة موجودة في المشافي الإرساليّة في الهند اليوم فيما يتعلّق بالمرضى المسلمين. فهم إمّا لا يعلمون، أو أنّهم متردّدون في

والمسنّون الذين سيعانون لدى اتّباع الطّقس، عليهم أن يؤدّوا الصّدقة، أي عليهم أن يطعموا فقيراً.[1]

الآن، فيما يخصّ أصل صيام رمضان، رأينا أنَّه فُرض في المدينة، بعد أن لحظ مُحَمَّدٌ لبعض الوقت صيام اليهود في يوم الغفران. وعندما رفض اليهود العروض التي قدّمها مُحَمَّد لهم بالنّصّ القرآنيّ وبمحاكاة تقاليدهم، وحينما هزؤوا من دعاويه النّبويّة، وسخروا من الدّيانة الجديدة التي بشّر بها؛ فإنّه كان من الطّبيعيّ أن يغيّر مصلح الجزيرة العربيّة صيامه اليهوديّ، كما بدّل قبلته اليهوديّة. ومن هنا، ففي السّنة الثّانية للهجرة، حلَّ الصّيام خلال شهر رمضان المعيّن من قِبل مُحَمَّد محلّ صيام عاشوراء اليهوديّ[2] (يوم الغفران).

الإفادة من الرّخصة التي أجازها لهم القُرْآن لتأجيل الصّيام حتّى يتعافوا.

(1) سورة البقرة: 184/2؛ يبدو أنّ هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ تجعل الصّيام اختياريّاً، ويقول البيضاويّ (م 1، ص 101) بأنّ في البدء كان الأمر كذلك، بيد أنّ الآية نُسخت بالآية التّالية (185) التي فرضت صيام رمضان. بينا يقول آخرون: إنّه يجب تقدير «لا» قبل ﴿يُطِيقُونَه﴾، وتهمل الكلمات اللّاحقة. والتّفسير الشّائع والمقبول الآن يشير إلى الشّيوخ والعجزة الذين لا يقدرون على الصّوم. انظر تفسير الحسينيّ، ص 30، تفسير الفضل الكريم، ص 120.

(2) إنَّ مُحَمَّداً بعد تأسيس صيام رمضان، لم يعطِ أمراً بشأن الاستمرار أو منع الصّيام اليهوديّ في عاشوراء. ويبدو أنّه ترك الخيار لأتباعه؛ انظر مشكاة المصابيح، الكتاب السّابع، الفصل السّابع [«فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ كَانَ مَنْ شَاءَ صَامَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ»]. إنَّ المفردة العبريّة عاشور (عشرة)، كما سيتبيّن، بقيت في المفردة الإِسْلَامِيّة، عاشوراء التي طُبِّقت على الصّيام. وكذلك حُفظت في ذكرى محرّم في الحداد على مقتل عليّ وولديه، الحسن والحسين. إنّ عاشوراء، اليوم العاشر من المناسبة هو اليوم الأعظم. وبعض طقوس الصّيام اليهوديّة تظهر أيضاً في الوليمة الإِسْلَامِيّة لبقر العيد، عندما ضحّى مُحَمَّد لدى تأسيسه، بجديين، أحدهما للنّاس، والآخر لنفسه

لكن بينما أمكن لمُحَمَّد أن يقطع مع الطّقس اليهوديّ، ويستبدله بصيام مختلف الزّمن، وشكل الأداء، فإنّ طقس الصّيام كان مأخوذاً بشكل جليّ من اليهود. صحيح أنّ الصّابئة كانوا يقيمون طقس الصّيام، وسنرى، بعد قليل، أنّ مُحَمَّداً كان مديناً لهم بمدّة أو زمن الصّيام، لكن كنبيّ، كان مطّلعاً على طقوسهم في مكّة، بيد أنّه لم يتبنّاه هناك، وفرض الصّيام في المدينة، عندما لحظ الصّيام اليهوديّ في يوم الغفران العظيم، وقد أدرك الدّلالة الدّينيّة للطّقس، ومن البيّن أنّه يجب تقصّي الطّقس الإسْلاميّ في العرف اليهوديّ،[1] أكثر من الصّابئيّ.

إنّ هذا الاستنتاج معزّز بحقيقة أنّ مُحَمَّداً تبنّى قاعدة نهاية اللّيل وبداية النّهار منهم. إذ يقول القرآن: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ[2]﴾. وهذا أمر تلموديّ، من البراخوت، الورقة 9ب، إذ جاء فيه أنّ اليوم يبدأ، وأنّ صلاة (شماع) تكون «من الوقت الذي يمكن للمرء أنْ يتبيّن الخيط الأزرق من الأبيض». ويشير الخيطان الأزرق والأبيض إلى أهداب الثّياب التي يرتديها اليهود؛ وقد قام مُحَمَّد بتبديل الخيط «الأزرق» إلى ﴿الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾ اتّباعاً لديدنه في إخفاء ما ينقله عن الآخرين.

وبوسعنا أنْ نسأل الآن، من أين أخذ مُحَمَّدٌ فكرة صيام ثلاثين يوماً، لا سيّما خلال شهر رمضان؟

ثمّة إشارة في سورة الأَعْرَاف (142/7) عن صيام ثَلاَثِينَ لَيْلَةً من جانب

ولعائلته.

(1) ثمّة إشارات إلى الصّيام في الأناجيل القانونيّة والمنحولة والتي كان مُحَمَّد مطّلعاً عليها من خلال مخبريه.

(2) سورة البقرة: 187/2.

موسى، عندما كان على الجبل بحضور اللّه، والتي أتمّها بعشر ليالٍ. وفي معرض الإشارة إلى هذه الآية يقول المفسّرون المسلمون: إنَّ اللّه، قبل أن يعطيه التَّوْرَاة، أمره بالصّيام ثلاثين يوماً، وإنّه أدّاه خلال شهر ذي القعدة، وإنّه أُمر بأن يصوم عشرة أيّام إضافيّة كي يسوّك أسنانه. ويقول البيضاويّ وآخرون: إنّ موسى أُمر بأن يصوم ثلاثين يوماً فحسب، وأنّ اللّه ناجاه في الأيّام العشرة الأخرى. بيد أنّ سورة الأَعْرَاف (7) سورة مكّيّة. وبينما كان مُحَمَّد يعرف هناك بشكل جليّ أيّام صيام موسى الأربعين على الجبل (الْخُرُوج: 28/34)، فإنّ الحديث لا يمكن اعتباره مصدراً لأمر النّبي أتباعه بالصّيام ثلاثين يوماً. يجب تلمّس مصدر المدّة في مكان آخر. لقد رأينا من الوصف الذي قدّمه الكاتب العربيّ أبو عيسى المغربيّ بخصوص أعراف الصّابئة، أنّ مُحَمَّداً اتّخذ أوقات الصّلاة الخمسة من العرف الصّابئيّ.

إنّ متابعة الاستشهاد الوارد من قبل لهذا الكاتب العربيّ، تظهر لنا أنَّ مُحَمَّداً كان مديناً للصّابئة بطقس صيام ثلاثين يوماً. «ويصومون (الصّابئة) ثلاثين يوماً؛ وإنْ نقص الشّهر الهلاليّ، صاموا تسعاً وعشرين يوماً. وكانوا يراعون في صومهم الفطر، والهلال، بحيث يكون الفطر وقد دخلت الشّمس الحمل، ويصومون من ربع اللّيل الأخير إلى غروب قرص الشّمس».

من الواضح ممّا يكتبه هذه المؤلّف أنّ مدّة الثّلاثين يوم صيام المفروضة على المسلمين، أنّ مُحَمَّداً تبنّاها من العرف الصّابئيّ.[1]

ونعلم أيضاً من هذا الكاتب القديم، أنّ عيد الفطر، له نظير في عيد الفطر

(1) يقول هوگِس في (*Notes on Muhammadanism*, p. 124): «من المرجّح أنّ مُحَمَّداً حصل على فكرته بشأن صيام ثلاثين يوماً من الصّيام المسيحيّ الكبير. إنّ إقامة الصّيام الكبير في الكنائس الشّرقيّة كان صارماً إلى أبعد حدّ». إنّ هذا الرّأي بعيد الاحتمال، لأنّ مدّة الصّيام المسيحيّ أربعون يوماً.

الصّابئيّ؛ وأنّ الصّيام خلال النّهار فحسب، يتطابق مع عُرف الصّيام الصّابئيّ أيضاً: «من ربع اللّيل الأخير إلى غروب قرص الشّمس». بيد أنّ الصّيام الإسْلامي خلال النّهار يمكن أن يكون محاكة لصيام اليهود، الذين كانوا يصومون من الفجر إلى الغروب، عندما تبدأ النّجوم بالظّهور.[1] وعندما يصوم اليهود فإنّهم يمتنعون عن المعاشرة الجنسيّة كما عن الطّعام والشّراب؛ ويُعفى الأطفال، والنّساء الحوامل، أو المرضعات، والشّيوخ من الصّيام،[2] تماماً مثل العُرف الإِسْلاَمِيّ. ويتبين ممّا سلف أنّ مُحَمَّداً كان مديناً لليهود بهذه «الشّعيرة»، فالتّلمود زوّده بأكثر القوانين الخاصّة بالصّيام.

بقيت مسألة واحدة ما زال يجب بحثها وهي أصل صيام رمضان، أيْ، لماذا اختار مُحَمَّدٌ شهرَ رمضان بالخصوص لممارسة هذا الطّقس؟

ويبدو أنّه يمكن العودة بهذه المسألة إلى عادة اجتماعيّة لقريش، وهي قبيلة مُحَمَّد الخاصّة، إذ يخبرنا ابن إسحاق بأنّ قريشاً في «أيّام الجاهليّة» كانت تغادر المدينة وتقضي شهر رمضان على جبل حراء كلّ عام من أجل الكفّارة (التّحنّث).[3] وقد وصل إلينا أنّ مُحَمَّداً نفسه كان يلتزم بهذا العُرف سنويّاً، والذي ربّما نشأ بسبب من الطّبقات الأغنى كانت تنشد (كما في الهند اليوم) ملاذاً أكثر

(1) تأنيث، الورقة 12أ: «لا يجوز له الأكل ولا الشّرب حتّى غروب الشّمس، وظهور نجمتيْن على الأقلّ»؛ ذاته، الورقة 10أ: «في أيّام الصّيام يُسمح بالأكل والشّرب عند حلول العتمة».

(2) ياما، الورقة 82أ؛ كِثوبوث، الورقة 50أ، « إنّ الأطفال معفون ـ الفتيان حتّى سنّ الثّالثة عشرة، والفتيات حتّى سنّ الثّانية عشرة». يوما، الورقة 73أ، «إنّ المعاشرة محرّمة». تانيث (التّلمود الأوشليميّ)، الورقة 64أ، العمود الأوّل، «إنّ النّساءَ الحوامل والمرضعات معفوّات». ياما، الورقة 82أ، «إنّ النّساء الحوامل والعجزة معفون».

(3) سيرة الرّسول، المجلّد الأوّل، ص 79.

اعتدالاً من حرّ السّهول في فصل الصّيف الذي كان يحلّ فيه شهر رمضان.[1]

وخلال هذه الزيارات السّنويّة، التقى محمدٌ بالشّيخ زيد الذي كان ينشد السّلام والعزلة بعيداً عن العالم في جبل حرّاء. لقد رأينا من قبل، التّأثير الكبير الذي كان لهذا الحنيفيّ، أو المصلح، ابن الجزيرة العربيّة، الذي اتّهم بالتّخلّي عن دين قومه، لكنّه كان يقول: إنّه يبحث عن «دين إبراهيم»، وقد مارس تأثيراً على شخصيّة وتعاليم مُحَمَّد. ويقول شپرنگر: إنَّ «مُحَمَّداً أقرّ صراحة بأنّ زيداً سلفه، وكلّ كلمة نعرف إنّها لزيد نجدها في القرآن».[2] وفي الكهف الذي كان يشغله زيد تلقّى مُحَمَّد «التّنزيل» من جبريل. بينما لا يظهر أنّ مُحَمَّداً مارس أيّ نوعٍ من التّقشّف خلال هذه الفترات من العزلة، إلّا أنّ من الواضح أنّه بسبب هذه العادة الاجتماعيّة لقبيلته، عيَّن شهر رمضان شهر الصّيّام.

نجملُ باختصار الملحوظات السّابقة: إنَّ لصيام شهر رمضان أصلاً مركّباً؛ وإنَّ «المنسك» ذاته، أو طقس الصّيام، كان مأخوذاً من اليهود، كذلك قانون تعيين الوقت الدّقيق لبدء الصّيام في الصّباح، وكذلك مدّة الصّيام، أو فترة الثّلاثين يوماً، أُخذت عن الصّابئة، ومن المحتمل من العرف الاجتماعيّ لقريش في قضاء شهر كلّ سنة على جبل حرّاء قرب مكة.

إنَّ عيد الفطر كان عرفاً صابئيّاً، كذلك الممارسة الإسْلاَمِيّة للصّيام في النّهار فحسب، رغم أنّ مُحَمَّداً قد يكون اتّخذ هذه الممارسة من اليهود. وإنّ نُظُم الإعفاء الإسْلاَمِيّة مشابهة لما لدى اليهود، وأخيراً، فإنّ شهر رمضان قد حُدِّد وفق عادة قريش المُشار إليها للتّوّ، كونهم كانوا يقضون هذا الشّهر ـ وكذلك مُحَمَّدٌ ـ على جبل حرّاء في كلّ سنة «أيّام الجاهليّة».

---

(1) إنّ السّنة المُحَمَّديّة قمريّة، وشهر رمضان لا يأتي دائماً في فصل حارٍ.

(2) Koelle, *Mohammed and Mohammedanism*, p. 53.

الفصلُ الثّاني عشر

الزّكاة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ! أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم، مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ[1]﴾

إنّ الزّكاة «الرّكن» التّالي للدّيانة الإسْلاَمِيّة الذي علينا النّظر فيه. إنّ هذا «المنسك» جزءٌ أساسيٌّ من العبادات، وهو فرض على كلّ مسلم بالغ، إذا ما كان لديه دخل كافٍ.

لقد أمرَ القرآن مراراً بإقامة هذا الرّكن،[2] وأشار إلى المضمون الأخلاقيّ للفعل. ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ[3]﴾. وقيل: إنّ المنسك «يطهّر

(1) سورة البقرة: 254/2.

(2) انظر: سورة البقرة: 43/2، 83، 110، 267، 270، 276؛ سورة النّساء: 77/4؛ سورة المائدة: 12/5؛ سورة التّوبة: 5/9، 11، 71؛ سورة الحجّ: 41/22؛ سورة النّور: 37/24، 56؛ سورة المجادلة: 13/58.

(3) سورة آل عمران: 92/3.

ويزكّي» المؤمنين؛[1] و «يكفّر السّيئات».[2] وغالباً ما ورد فرض الزّكاة في القرآن مع الصّلاة. ﴿الْمُقِيمِي الصَّلاَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ[3]﴾؛ ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ[4]﴾؛ ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ[5]﴾. وبالفعل من المعتقد به أنّ قبول الصّلاة متعلّق بالإنفاق الصّحيح على هذا الواجب. لقد كان الخليفة عمرُ بنُ عبد العزيز يقول: «إنَّ الصّلاةَ تحملنا نصف الطّريق إلى اللّه، ويضعنا الصّيام لدى باب قصره، وتخوّلنا الصّدقةُ الدّخول».[6]

يميّز المسلمون بين أنواع العطاء: الزّكاة، وهي المفروضة, والصّدقة، أو التّطوّعيّة. وإنَّ كمّيّة الأولى، والنّسبة المفروضة على المواد أو الرّأسمال محدّدة بشكل قاطع. بينما الصّدقة، أي العطاءات المقدّمة تطوّعياً، لا سيّما زكاة الفطر المقدّمة إلى الفقراء خلال الصّيام في نهاية شهر رمضان متروكة إلى مشيئة المانحين. لكن لدى إقامة صلاة العيد، وفي الخطبة، فإنّ الإمام أو القائم على صلاة العيد يعظ المؤمنين بالقول: «إنّ صلاتكم بلا ثواب، وستبقى معلّقة في السّماء حتّى تقدّموا صدقة. أيها المؤمنون، إنّ إعطاء الصّدقة واجب.[7] فأعطوا الفقراء بعض المكاييل من الحبوب، أو ما يساويها مالاً».

---

(1) سورة التّوبة: 103/9.

(2) سورة البقرة: 271/2؛ سورة المائدة: 45/5.

(3) سورة الحجّ: 35/22.

(4) سورة الأحزاب: 33/33.

(5) سورة الحجّ: 78/22.

(6) [تعذّر إيراد النّصّ الأصليّ، لأنَّ المؤلّف لم يشر إلى مصدره. ـ م.]

(7) الواجب يعني القانون الإلهيّ القاطع. بعض المصادر لا تميّز بين الواجب والفرض، لكنّ الرّأي أنّهما متمايزان. والصّدقة هنا واجبة، لكنّها ليست فرضاً. انظر ميرزا غلام أحمد (*The Teaching of Islam*, p.58).

فيما يتّصل بالزّكاة، أو الرّسم الإجباريّ، ثمّة خمسة أصناف من الملكيّة التي يجب دفع الزّكاة عليها، وبشرط أن تكون بضاعة في حوزة شخص لمدّة عام، ولديه ما يكفيه لمعيشته. وهي: المال، والسّلع، والمواشي، والثّمار، والحبوب. والضّريبة المفروضة على الاثنين الأوّلين، جزء من أربعين، أو اثنان ونصف بالمئة. وعلى الاثنين الآخرين يُؤخذ العشر.[1] والنّسبة على المواشي مفروضة بحسب العَدَد المملوك.[2]

وفي البدء كانت هذه الصّدقات ﴿لِلْوَالِدَيْنِ، وَالأَقْرَبِينَ، وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينِ، وَابْنِ السَّبِيلِ[3]﴾ لكن بعد معركة حنين (8 هـ)، وعندما قرّر مُحَمَّد من أجل أن يكسب زعماء العرب الذين ألحق بهم الهزيمة تقديم هدايا سخيّة لهم من نصيبه من الغنائم، فإنّه سبب الكثير من الاستياء والاحتجاج بين أتباعه المؤمنين، وبعضهم لم يحصل على شيء، ومن أجل أن يسوّغ تصرّفه في منح هذه الهبات للمعتنقين الجدد، ومن أجل أن يسكّن الاستياء بين أتباعه، فإنّ مُحَمَّداً لجأ إلى «وحي» وُبخ فيه المشتكون، وأُضيفت طبقة جديدة إلى الذين يجب أن يعطوا الصّدقات ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ... وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْا مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ... إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ. فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ[4]﴾.

---

(1) هذا في حال كانت المزروعات تُروى بدون كلفة من المالك، وفي حال كانت مرويّة بكلفة، فإنّه يُؤخذ واحدٌ من عشرين.

(2) سورة البقرة: 219/2، حيث الأمر بإنفاق الصّدقة هو ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾.

(3) سورة البقرة: 215/2.

(4) سورة التّوبة: 9/58 ـ 60.

إنّ التّطبيق الجديد الذي سنّه مُحَمَّد والذي يقضي بإعطاء الصّدقات (أو الرّشا في هذه الحالات) من أجل نشر الإيمان الجديد، بقي قائماً لسنين. وحينما صار الإسْلام قويّاً، ولم يعد يتطلّب مثل هذا الدّعم، بل كان قادراً على فرض الطّاعة والخضوع بالسّيف، فإنّ هذا العرف نُسخ من قبل أبي بكرٍ. وقد قال الخليفة عمر لاثنين منهم: «كانَ الرّسول يتألفكما والإسلام يومئذٍ قليل؛ إنَّ اللّه قد أعزَّ الإسلام اذهبا فاجهدا جهدكما».[1] وبذلك غدا السّيف، بالممارسة كما بالنّصّ، العامل الرّئيس المحدّد لنشر الإسْلام، رغم أنّ مُحَمَّداً قال في مستهلّ دعوته بشكل صريح ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ[2]﴾.

لم يُبطل التّشريع أو يُعطّل، لأن صدقة الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ لم تعد مجديةً في نشر الدّين، بل لأنّ الإسْلام أصبح مسيطراً، ولم يعد بالإمكان رفضه تحت تهديد السّيف.

بوسعنا إرجاع أصل الرّكن الإسْلاَمِيّ إلى اليهود. وهذا ما يمكن رؤيته في البدء من اشتقاق المصطلحات القرآنيّة الدّالّة على الأمر، فكلّ من الزّكاة والصّدقة اشتقاقان يهوديّان.[3] وتدلّ الأولى على «التّطهر»،[4] مثل المقطع

(1) يقول البيضاويّ، وحسين، وآخرون: إنّ ﴿الْمُؤَلَّفَة قُلُوبُهُم﴾ قد نُسخت. البيضاويّ، المجلّد 1، ص 390؛ تفسير الحسينيّ، المجلّد 1، ص 260. إنّ الزّعماء الذي اعتنقوا الإسْلام بعد معركة حنين كانوا يُعرفون باسم ﴿الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُم﴾.

[هذا النّصّ المشهور، الذي قاله عمر بن الخطّاب أيّام خلافة أبي بكر إلى الأقرع بن حابس وعُيينة بن حصن بعد أن طالبا الخليفة بمنحهما أرضاً. وكان هذان الشّخصان من جملة ﴿الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُم﴾ ـ م.]

(2) سورة البقرة: 256/2.

(3) *Vide* Muir, *Life of Mahomet*, p. 418, note 1.

(4) تُسمّى زكاة، إمّا لأنّها تزيد ذخيرة الإنسان، لأنّ منها تحلّ البركة، أو تهب لروحه

«أَعْطُوا مَا عِنْدَكُمْ صَدَقَةً فَهُوَذَا كُلُّ شَيْءٍ يَكُونُ نَقِيّاً لَكُمْ».[1] والصّدقة تعني «الخير» مثل ما ورد في مَتّى (1/6): «اُحْتَرِزُوا مِنْ أَنْ تَصْنَعُوا صَدَقَتَكُمْ» (أي العمل الصّالح،[2] Δικαιοσύνη) «قُدَّامَ النّاسِ». وفي الأَمْثَال (2/10): «أَمَّا الْبِرُّ» (أي الصّدقة، צְדָקָה تسِدقه) «فَيُنَجِّي مِنَ الْمَوْتِ».[3] وسوف نرى بعد قليل، أنّ ذات الكلمة «الْبِرّ» ترد في التّلمود[4] وصفاً للشّعيرة، لكنّنا أوردنا استشهادات كافية تشير إلى أنّ محمّداً كان مديناً لليهوديّة بالمصطلحات التي اتّخذها للتّعبير عن تقديم العطاء.

زيادةً على ذلك من الممكن الاستدلال على الأصل اليهوديّ للمصطلحات بواقع شيوع ممارسة الصّدقات بين اليهود؛ والإشارة إلى قانون الّلاوِيِّين تبيّن ذلك بوضوح. لقد كان الرّسم مفروضاً بشكل واضح عليهم بالسّلطة الإلهيّة؛ وإنّ حقولهم في الْحَصَادِ، وَلُقَاطَ حَصِيدِهم، وَنِثَارَ كَرُومهم وجب تركها «لِلْمِسْاكِينِ وَالْغَرِباء»؛[5] وكُلّ عُشْرِ الأَرْضِ مِنْ الغلال

فضيلة السّخاء، وإمّا لأنّها تطهّر الجزء المتبقّي من ممتلكات المرء من الدّنس، والرّوح من قذارة الجشع؛ والصّدقة لأنّها برهان صدق المرء على عبادته للّه (Sale, *Prelim. Disc.* sect. iv. pp. 84-5)؛ انظر أيضاً ميرزا غلام أحمد، تعاليم الإِسْلام، ص 58.

(1) لُوقَا: 41/11.

(2) انظر *Vide* Eng. Bible, marg. note؛ قارن كُورِنْثُوس: 10/9؛ اَلْمَزَامِير: 21/37؛ 5/112، 6؛ الأَمْثَال: 7/10 («الْبِرُّ» يعنى هنا «الصِّدِّيق»)؛ انظر ميرزا غلام أحمد، تعاليم الإِسْلام، ص 62.

(3) قارن المزامير 21/37؛ والإحالات الأخيرة.

(4) روش هاشّاناه، الورقة 16ب؛ بابا باثرا، الورقة 10ب.

(5) الّلاوِيِّين: 9/19، 10.

فَهُوَ لِلرَّبِّ،[1] ويجب أن يُعطى إلى اللاوِيِّين، والغرباء، واليتامى، والأرامل.[2] وكما نعرف من كتابات العهد القديم والجديد إنّ الرّسم المفروض هنا، كان ينفقه اليهود بتدقيق كبير. وسمحَ بُوعَزُ لرَاعُوثَ أنْ «تَلْتَقِطْ بَيْنَ الْحُزَمِ»، وكانت تلتقط «حَتَّى انْتَهَى حَصَادُ الشَّعِيرِ وَحَصَادُ الْحِنْطَةِ».[3] وكان «أبناء الميثاق» بدورهم متحمّسين في تعشير[4] بضائعهم، وربّما كان يحضر في ذهنهم البركة الإلهيّة التي يفيضها هذا العمل.[5] وفي أزمنة العهد الجديد فإنّ العمل أُتبع بشكل مخلص. ففي المثال، أعطى الفَرِّيسِيّ «عُشرَ كلَّ ما» كان «يقتنيه»،[6] وكذلك فإنّ الملّة اليهوديّة كانت مدقّقة في اتّباعها لتفاصيل الأمر، حتّى «النَّعْنَعَ وَالشِّبِثَّ وَالْكَمُّونَ»، بحيث إنّ الرّبّ وبّخهم على فعل ذلك وإهمالهم «ثقَلَ النَّامُوسِ: الْحَقَّ وَالرَّحْمَةَ وَالإِيمَانَ».[7] وثمّة أمثلة أيضاً على الصّدقة السّخيّة في تجاوز كبير لما أمر به التَّوْرَاة. ففي امتنان فرح لِيَسُوع، قدّم زَكَّا نصف ممتلكاته إلى الفقراء؛[8] «طَابِيثَا... كَانَتْ مُمْتَلِئَةً أَعْمَالاً صَالِحَةً وَإِحْسَانَاتٍ كَانَتْ تَعْمَلُهَا»،[9] وكَرْنِيلِيُوس، قَائِدُ مِئَةٍ مِنَ الْكَتِيبَةِ في محاكاة لا

(1) اللاوِيِّين: 30/27.

(2) التَّثْنِيَة: 12/26.

(3) رَاعُوث: 15/2، 23.

(4) نَحَمْيَا: 12/13؛ قارن: 44/12.

(5) التَّثْنِيَة: 29/14؛ اَلْمَزَامِير: 41؛ الأَمْثَال: 21/14؛ 19:17؛ مَلاَخِي: 10/3.

(6) لُوقَا: 12/18.

(7) مَتَّى: 23/23؛ لُوقَا: 42/11.

(8) لُوقَا: 8/19.

(9) الأَعْمَال: 36/9.

شكّ فيها لليهود، كان «يَصْنَعُ حَسَنَاتٍ كَثِيرَةً لِلشَّعْبِ».(1) إنّ هذه الإشارات كافية لإظهار أنّ الصّدقة وفق الأمر الإلهيّ، كانت عادة راسخة بين اليهود في أزمنة العهديْن القديم والجديد.

زيادة على ذلك، يكشف التّلمود أنَّ الصّدقة صارت معلماً بارزاً لليهوديّة المتأخّرة. إذْ تحتوي رسائل عديدة إشارات محدّدة إلى هذا الواجب. ففي بابا باثرا، جاء: إنَّ «الإحسان» (استشهاد بالأَمْثَال: 34/14، والتي في التّرجمة الإنجليزيّة «الْبِر») צְדָקָה «يَرْفَعُ شَأْنَ الأُمَّةِ»، أي «أمّة إسرائيل».(2) وفي روش هاشّاناه، الصّدقة «إحدى أربع أشياء» التي تشطب مراسيم السّماء: الصّدقة... كما مكتوب في (الأَمْثَال: 2/10)، «تَنَجِّي مِنَ الْمَوْتِ».(3) وقيل مجدّداً: إنّ «الصّدقة تنَجِّي مِنَ الْمَوْتِ وتحول دون دخول الظّلام».(4) ويقول القرآن: إنّها «تُطَهِّرُ وَتُزَكِّي»، و «تقرّب إلى اللّه». ويقول التّلمود: «المعطي.. تقيّ».(5) ويقول القرآن: إنّ الصّدقة «تكفير عن السّيّئات». ويقول التّلمود» إنّها تنجّي من النّار، وتجيز إلى الجنّة.(6)

يحتوي التّلمود على إشارات كثيرة أخرى إلى فضيلة وضرورة وثواب الصّدقة.(7) ولكن ممّا مرّ معنا، من الواضح أنّ مُحَمَّداً كان مديناً لليهود بشعيرة

(1) الأَعْمَال: 2/10.

(2) بابا باثرا، الورقة 10ب، جيتين، الورقة 76. اِلحظ من هنا، ومن الاستشهاد التّالي، أنّ الاهتمام منصبّ على المفردة العبريّة المستعملة للصّدقة، والتي تعني بدقّة البرّ.

(3) روش هاشّاناه، الورقة 166.

(4) تابيت: 10/4.

(5) بابا كاما،الورقة 7؛ قارن پيركه أبوث، الفصل 5،القسم 19.

(6) روش هاشّانه، الورقة 166.

(7) كان ر. عقيبه يقول: إنّ المأثور سياج التّوراة. والعُشر سياج الأغنياء (پيركه أبوث،

الصّيام، وكذلك كان مديناً لليهوديّة بأمر الصّدقة، رغم أنّه غيّر في جوانب عدّة ما يتعلّق بتفاصيل أو بنظم كلّ من الشّعيرتين.

إنَّ هذا الاستنتاج مؤكّد أكثر بالإحالة إلى الأناجيل الأبوكريفيّة، وكتابات أخرى مماثلة، والتي يبدو أنّ مُحَمَّداً كان مطّلعاً عليها أكثر من الكتب المقدّسة القانونيّة؛ وقد رأينا لدى معالجتنا مصادر الدّيانة الإسلاميّة أنّ منها أخذ كثيراً من «وحيه» القرآنيّ؛ وكما إنّ الصّلاة والصّدقات تُذكر مراراً في القرآن معاً، فإنّنا نجد ذكرهما في هذه الكتابات. ففي **إنجيل ميلاد مريم**، نقرأ أنّ ملاك الرّبّ ظهر ليواكيم، وقال له: «صلواتك مسموعة، وصدقاتك تصعد أمام ناظر الرّب».[1] وفي **الإنجيل الأبوكريفيّ الجديد** جاء: «يواكيم... الغنيّ، قدّم إعانات مضاعفة للإله الرّبّ، وذلك عبر إعلانه: إنَّ ثروتي ستكون لصالح كلّ النّاس، ولعليّ بذلك أجد الرّحمة من الإله الرّبّ بغفران خطاياي».[2] ويحتوي **إنجيل الطّفولة** على إشارات إلى هذه الإعانات؛ وفي **رسالة كليمنت** موعظة تنصّ: «قمْ... بأيّ شيء أمرنا الرّبّ القيام به. لا سيّما أن نؤدّي إحساننا وصلاتنا إلى الرّبّ في مواعيدها... ومن ثمّ، مَنْ يقدّم إعاناته في فصولها المحدّدة، فهو محظوظ ومقبول... وبلا خطايا».[3] وفي **رسالة برنابا** نقرأ أيضاً «كي تُغفر لك خطاياك، ستعمل أنت بيديك لكي تعطي الفقراء».[4]

الفصل 3، القسم 20). انظر أبوث دعرب، ناثان، الفصل 41 («مَنْ يعطِ صدقة يجلبْ لنفسه البركة»).

(1) الفصل الثّاني، 3؛ قارن الأَعْمَال: 4/10 (كَرْنِيلِيُوسُ).

(2) الفصل الأوّل، 1.

(3) 1 كليمنت: 13/18، 14، 16. 1 كليمنت: 11/1ـ4.

(4) 20/14. باليونانيّة: «للانعتاق من الخطايا». قارن دَانِيال: 27/4.

ليس من الضّروريّ تقصّي هذه المسألة أكثر من ذلك، لكن من الجليّ ممّا سلف، أنَّ مُحَمَّداً أخذ «ركنه» الرّابع من اليهود،(1) وعلى أيّ حال لم يتبنَّ الطّقس اليهوديّ بكلّيّته.

ثمّة اختلافات بين القانون اليهوديّ والإسْلاَمِيّ فيما يتّصل بالمقدار المطلوب وغاية العطاء.

إنَّ العُشر اليهوديّ لم يصبح قاعدة إسْلاَمِيّة، ففي بعض الأشياء كان أكثر، وفي أخرى أقلّ من العُشر.(2) كما لم تُقدَّم الزّكاة لإعالة الكهانة الإسْلاَمِيّة،(3) رغم أنّ العُشر لدى اليهود كان يُقدَّم لدعم الكهنة واللّاويِّين.(4)

يبدو أنَّ مُحَمَّداً كان مدركاً لعادة الفَرِّيسِيِّين القديمة بالإعطاء «قدّام النّاس»، وأمر ربّنا باتّباع العرف «سراً»؛ ولهذا شجّع كلا الطّريقتيْن: ﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ. وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ، وَيُكَفِّرُ عَنكُم

(1) في القُرْآن آيةٌ تشير إلى أنّ مُحَمَّداً كان في ذهنه الممارسة اليهوديّة لدى سنّ هذا الأمر. ففي إشارة إلى حدائق وأشجار أتباعه قال: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ... وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة الأنعام: 141/6). قارن مع الأمر الموجهة إلى إسرائيل «أَوَّلَ أَبْكَارِ أَرْضِكَ تُحْضِرُهُ إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ إِلَهِكَ» (الْخُرُوج: 19/23).
ثمّة أمر قرآنيّ يتّصل بالصّدقة، وهو مشابه جداً للأمر الذي أعطاه موسى. ففي سورة البقرة (219/2): ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ، قُلِ الْعَفْوَ﴾، وفي التَّثْنِيَة (17/16)، فإنّ الوصية: «كُلُّ وَاحِدٍ حَسْبَمَا تُعْطِي يَدُهُ». وفي العهد الجديد ثمّة أمر مشابه: «أَعْطُوا مَا عِنْدَكُمْ صَدَقَةً» (انظر الإشارة الهامشيّة، لُوقَا: 41/11).

(2) وبالضّبط خُمس ما يُستخرج من المناجم؛ وواحد من عشرين من الفواكه المرّويّة.

(3) ثمّة أرض مخصّصة لدعم الملالي وعلماء الإسْلام؛ وتُقدّم لهم أعطيات في وقت الحصاد.

(4) العَدَد: 18/11 ـ 14، 21، 24.

مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾[(1)]. ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، سِرّاً وَعَلاَنِيَةً، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[(2)].

إنّه لصواب، وعادل بالنّسبة للإسْلام القول: إنَّ توفيره حاجات المسلمين المعوزين، يستحقّ الكثير من الإطراء. ففي الهند، المتسوّلون الهنود في كلّ مكان؛ في حين إنّ السّائلين المسلمين نادرون. وحينما سافر الكاتب إلى مصر وفلسطين لحظ هذا المعلم البارز للإسْلام. بينا كانت مفردة «بقشيش»[(3)] تُسمع في كلّ مكان زاره، وكانت تُتداول في الغالب بين الشّباب الذين يظهر عليهم الشّبع وعدم الحاجة لمال الإحسان، ومن بعض الآخرين الذين يصعب اعتبارهم فقراء، الذين يعتبرون «الصّاحب» غنيمةً شرعيةً، وربّما أيضاً أرسله اللّه كي يزيدهم مالاً، بأيّ طريقة، حتّى لو بانتزاعه منه![(4)]

(1) سورة البقرة: 2/271.

(2) سورة البقرة: 2/274.

(3) وهي مفردة فارسيّة يستعملها السّائلون كثيراً، وتعني هديّة، أو عطيّة.

(4) رغم أنّهم لا يحتاجون للإحسان، فإنّ جشع هؤلاء المسلمين، كما يعتقد الكاتب، يرجع لمزاولتهم التّسوّل من الزّائرين الأوربيّين، ونتيجة لإلحاحهم طلب «البقشيش» على أقلّ خدمة يسدونها، لمجرّد إرشاد السّائح إلى طريقه، أو قيادته عبر المدينة. ويبدو أنّه حتّى وجود الزّائر يثير جشعهم، ويعطي التّوقّعات بالعطايا. ولعلّ الكاتب يُعذر على نقله ما حدث. عندما كنّا في جبال نابلس متوجّهين إلى القدس، تركتُ زوجتي في ساحة الضّريح الذي قيل إنّه للقدّيس يُوحَنَّا. وذهبت لالتقاط الصّور في المدينة مع دليلي وهو مسيحيّ سوريّ. وفي غضون غيابي، فإنّ أتراكاً عديدين تجمّعوا حول زوجتي، وأحدهم بعد أن لحظ الخاتم في أصبعها، سعى لسحبه. وإذْ فشل في ذلك، فإنّه استلّ خنجره، وهدّد بالعنف الجسمانيّ إيماءً إنْ لم تعطه الخاتم. وقد رجعت في اللّحظة الحرجة، فكفَّ عن إثارة الإزعاج. ولكن عندما امتطينا جيادنا، وحاولنا المغادرة، قدّمنا «بيشليك» كعطيّة، لكنّ تركيّاً مسك عنان فرسي،

الفصلُ الثّالث عشر

الحَجُّ، أو الرّحلة المقدّسة إلى مكّة

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ... وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ، وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ[1]﴾

لقد وصلنا الآن إلى «الرّكن» الخامس والأخير من شعائر الإسْلام، وهو الحجّ، أو الرّحلة المقدّسة إلى مكّة، والذي سننهي به بحثنا في مصادر الإسْلام.

إنَّ الحجّ إلى مكّة، والقيام بجميع المراسم المرتبطة به، فرضُ عينٍ على كلِّ مسلمٍ قادر عليه مرّة واحدة في الحياة.[2] ويقول القرآن بوضوح ﴿وَلِلَّهِ عَلَى

ورغم أنّه لم يقم بشيء لأجلنا، صرّح بأنّي يجب أن أعطيه «مجيدي» قبل أن أتمكن من المغادرة. لقد كان ذلك تهديداً صريحاً، وعندما رأى أنّ الفزع لم ينل منّي، فإنّه أرخى العنان، وسأل «بيشليك» الذي أعطيته إيّاه، وقد سُمح لنا بإكمال طريقنا، بدون المزيد من المضايقة.

(1) سورة الحجّ: 22/27، 29.

(2) سورة آل عمران: 3/97. إنَّ الكلمات ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ﴾ في هذه الآية، تشير ـ بحسب البيضاويّ ـ إلى حيازة الوسائل الكافية لإتمام الرّحلة. ويقول الإمام أبو حنيفة: إنّها تشير إلى الوسائل وقدر المرء. البيضاويّ، المجلّد 1، ص 147.

النّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً[1]﴾، ويعتبره المسلمون أهمّ طقس في دينهم، لأنّه اكتمال جميع شعائر الإسْلام.

إنَّ حسنات الحجّ كبيرة، ويُعتقد في أنّه «الطّريق الأضمن للخلاص والجنّة».[2] ويُظنّ أنَّ كلّ خطوة نحو الكعبة[3] في المسجد الحرام في مكّة تمحو الذنوب، والحاجّ الذي يموت في طريقه إلى مكّة يُعتبر شهيدَ الدّين، وبهذا فهو يضمن دخول الجنّة، والمتع الحسّيّة التي من نصيب الشّهداء هناك.

والأمر القرآنيّ بإقامة هذه «الشّعيرة» موجود في سور عديدة، وصُودق عليه بالسّنّة، أو بأعمال مُحَمَّد. ﴿وَأَذِّن فِي النّاسِ بِالْحَجِّ؛ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ، يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ؛ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ، عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ؛ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ. ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ، وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ[4]﴾. وسوف نرى لاحقاً، أنّ هذا النّصّ يحتوي على الإرشادات المتعلّقة بشعائر الحجّ المتعدّدة. وفي سورة المائدة يقول مُحَمَّدٌ: ﴿جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ،

---

(1) سورة آل عمران: 3/97.

(2) مذكور في تذكرة الحجّ، مرسل إلى حاكم الهند، 1895.

(3) الكعبة (حرفيّاً: مكعب) بناءٌ حجريٌّ مستطيل في مركز المسجد الحرام، وتُسمّى أيضاً بيت اللّه. تحتوي الكعبة على الحجر الأسود، وقطره نحو من سبع إنشات، وهو ملبّس بالفضّة، ومثبت في الزّاوية الجنوبيّة ـ الشّرقيّة للبناء. وعلى الأغلب، فإنّ الحجر الأسود حجر نيزكيّ، وحسب الأحاديث، جاء من الجنّة، وكان في الأصل أكثر بياضاً من الحليب، لكنّه أصبح أسود من خطايا الذين يلمسونه. ويُروى أنّه سيكون قادراً على الرّؤية، وسيمتلك قدرة الكلام يوم الحساب، وبهذا سيشهد لصالح أولئك الذين قبّلوه.

(4) سورة الحجّ: 22/27ـ29.

قِيَاماً لِّلنَّاسِ، وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ[1]﴾. وإضافةً لذلك يقول في سورة آل عمران: ﴿وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ، مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً[2]﴾ وفي سورة البقرة الأمر التّالي: ﴿وَأَتِمُّواْ الحجّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ[3]﴾.

لقيت هذه الأوامر «الإلهيّة» تأكيدها بممارسة النّبيّ (وأصحابه)،[4] الذين أدّوا الحجّ مرّات عدّة، وأقاموا جميع الشّعائر المتعلّقة به، وقد كان ذلك بالطّبع بعد أن تغلّب على عداوة المكّيّين؛ وعمليّاً بعد أنْ خضعت الجزيرة العربيّة للنّبيّ ـ المحارب.

إنَّ طقساً أمرَ به مُحمَّدٌ بجلاء، وأقامه لا يمكن إلّا أن يمارس تأثيراً عميقاً، وأن يكون له أثر ملزم على أتباعه الذين كانوا مستعدّين دائماً للسّير خلف خطى النّبيّ بدون سؤال، وهذا الطّقس الذي يرتبط بمقام العرب المقدّس بِقِدَمه، ومُمجّد باعتقاد أصله الإبراهيميّ، ساعد بدون أدنى شكّ على حثّ العرب على قبول الدّين، وجعله مهيمناً على الجزيرة العربيّة بقوّة الجيوش، والذي لم يعد بمقدور العرب مقاومته أبداً.

على أيّ حال، إنَّ الرّكن أصبح عبئاً على الأكثريّة العظمى من العالم المُحَمَّديّ من الذين يعيشون بعيداً عن المدينة المقدّسة ومقامها. فما دام حكم

---

(1) سورة المائدة: 97/5.

(2) سورة آل عمران: 97/3.

(3) سورة البقرة: 196/2. والإشارة هنا إلى العمرة أو «الحجّ الأصغر» التي يمكن إقامتها في أيّ وقت، ما عدا أيّام «الحجّ الأكبر». وتقديم الأضحية ليس طقساً من العمرة. انظر بورتون (*Pilgrimage to al-Madinah and Meccah*, vol. ii. ch. xxxii. pp. 241–246).

(4) لقد كان صحابة النّبيّ على تواصل دائم معه.

الهلال مقتصراً على الجزيرة العربيّة، فإنّ «تشريع الحجّ» كما يقول پولمر[1] كان «رائعاً لدمج القبائل العربيّة»؛ لكن عندما توسّعت سلطة الإِسْلام على أراضٍ أخرى، وتضاعف عدد أتباعه، وغدوا الآن يُعدّون بالملايين، فإنّ فرضه عليهم واجباً في عبادة اللّه، وهو طقس ـ بقيّة من الوثنيّة كما سنرى ـ من المستحيل القيام به بالنّسبة للغالبيّة العظمى من المسلمين، حمّلهم «مَا لاَ طَاقَةَ لَهم بِهِ»، وربّما أيضاً يشوّه ركن الحجّ دعوى الإِسْلام بكونه وحياً إلهيّاً أكثر من كونه قانوناً أُسّس من قبل مُحَمَّد.

إنّ الطّقس الذي يعتقد المسلمون في أنّه «الطّريق الأكثر أمناً للخلاص والجنّة»، لا يمكن اعتباره تعييناً إلهيّاً، لأنّه لا يوجد فيه فوائد لهم.[2]

لنرَ الآن المناسك التي يتألّف منها الحجّ.

في البدء، يجب لحظ أنّه بينما يمكن أن تجري الاستعدادات للحجّ خلال الشّهرين العاشر والحادي عشر من السّنة المُحَمَّديّة (أي خلال شوّال وذي القعدة)، فإنّ الحجّ الفعليّ لا يمكن أن يكون إلّا على مدار ثلاثة أيّام من الشّهر الثّاني عشر، ذي لحجة، وهي من السّابع إلى العاشر. وينصّ القرآن: ﴿الحجّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ[3]﴾.

وفي الوقت المحدّد، فإنّ الحجيج من جميع أرجاء المعمورة، يصلون

---

(1) *Sacred Books of the East*, vol. vi. p. lxxvi.

(2) يقول مولوي رافع الدّين أحمد في عمل من القرن التّاسع عشر، تشرين الأوّل (أكتوبر)، 1897: «إنّ الحجّ يطّهر قلوب النّاس، ويجعلهم أنقياء كيوم ولدتهم أمّهاتهم». إنّ أي مسلم قادر على القيام بالحجّ، يحجم عن القيام به، يُعتبر مذنباً بإثم مميت. ويروي الغزاليّ حديثاً لمُحَمَّد بأنّ من يموت بدون أن يقوم بالحجّ فليمت يهوديّاً أو مسيحيّاً.

(3) سورة البقرة: 2/197.

محطّات[1] تقع على طرقٍ مختلفة تؤدّي إلى مكّة، فيتجرّدون من لباسهم، ويستحمّون، ويقلّمون أظافرهم، ويصلّون ركعتيْن، ويلبسون ثياب الإحرام، أو كساء الحاجّ المقدّس الذي يتألّف من قطعتيْ قماش بلا تفصيل أو خياطة، وإحداها تحيط بالخصر، والأخرى ملقاة على الكتفيْن. وبعد قول النيّة «اللّهمَّ إنّي أريد الحجّ فيسِّره لي، وتقبَّله منّي» ويتابع الحاجّ طريقه وهو ينتعل خفّيْن إلى مكّة. ومن ذلك الوقت، حتّى إتمام الحجّ، يتوجّب عليه عدم غسل الرّأس أو حلق الشّعر؛ وتحرم كلّ أشكال مخالطة الزّوجة، والمشاحنات واللّغو؛[2] ولا يسمح كذلك بالصّيد، أو بألعاب القنص،[3] فالحاجّ الآن هو في المنطقة المقدّسة، وعليه حفظ «هدنة اللّه». ويجب أن يتركّز اهتمامه على أداء المناسك وترك الفكر والمسائل الدّنيويّة.

ولدى دخول المدينة أو المسجد، يقول الحاج التّلبية،[4] مكرّراً «لبّيك اللّهمَّ لبّيك! لبّيك لا شريك لك لبّيك! إنّ الحمد والنّعمة لك والملك! لا شريك لك!».

ولدى دخول المسجد، والاقتراب من الكعبة، فإنّ عليه الدّعاء كلّ الوقت، ثمّ يقبّل الحجر الأسود المثبّت على الرّكن الجنوبيّ ـ الغربيّ للكعبة؛ وإذا كان ذلك مستحيلاً بسبب من الحشود، فيجب أن يلمسه بيده أو بعود، ويقبّل يده أو

(1) تُسمّى ميقات، وعددها ستّ. وتقع على بعد نحو من ستّة أميال من مكّة على طرق مختلفة تؤدّي إليها.

(2) سورة البقرة: 197/2.

(3) سورة المائدة: 95/5 ـ 96. إنَّ الصّيد البحريّ وأكل السّمك مسموحان (سورة المائدة: 96/5)؛ وكذلك قتل خمسة أنواع من الحيوانات الخطرة، وهي: العقرب، الحدأة، الغراب، الجرذ، الكلب المسعور (صحيح البخاريّ، المجلّد 1، ص 458).

(4) إنَّ التلبية هي تكرر قول «لبّيك» التي تتطابق مع «هاأنذا».

ذلك العود الذي لمسه؛ ومن ثمّ يطوف حول الكعبة سبع مرّات،[1] ثلاث مرّات هرولة وأربع مرّات مشياً بطيئاً.[2]

ويستأنف الحاجّ بعد ذلك السّير إلى مقام إبراهيم،[3] حيث يصلّي ويكرّر ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً، وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى؛ وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ، وَالْعَاكِفِينَ، وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ[4]﴾. كذلك يكرّر سورة الإخلاص (112) بعد شرب الماء من بئر زمزم المقدّس،[5] ويعود بعدها الحاجّ إلى الحجر الأسود ويقبّله ثانية.

ما إنْ ينهي صلواته ويؤدّي هذه الطّقوس في المسجد الحرام، حتّى يغادر بعد ذلك عبر البوابة المؤدّية إلى جبل الصّفَا. ويصعد التّلّ، وعند بلوغ القمّة، يسعى سبعة أشواط بينها وبين تلّة الْمَرْوَة،[6] ويبتهل بينما هو يهرول للمغفرة،

(1) يُدعى طقس الطّواف. ويقول الشّهرستانيّ: إنّ العرب كانوا يؤمنون بأنّه يرمز إلى حركة الأجرام حول الشّمس.

(2) هذا المنسك وفق سنّة النّبيّ. روضة الصَّفَا، الجزء الثّاني، المجلّد 2، ص 694.

(3) هو بناء صغير داخل المسجد، حيث ثمّة حجر يوقّره المسلمون كثيراً، بسبب ما قيل إنّ إبراهيم وقف عليه لدى بناء المسجد. وهو الآن داخل صندوق معدنيّ حيث يشرب منه الحجّاج الماء المقدّس لبئر زمزم.

(4) سورة البقرة: 125/2.

(5) يُروى أنّ هذا الينبوع تفجّر لإغاثة إسماعيل. وأنّ جبريل لإطفاء ظمأ إسماعيل ضرب بجناحه، فظهر الينبوع.

(6) يُسمّى هذا المنسك السّعي بين الصَّفَا والْمَرْوَة، وبحسب المرويّات يمثّل بحث هاجر عن الماء لإسماعيل. وبعض الأحيان فإنّ الحجّاج يمشون، وفي بعض الأحيان يقفون وينظرون خلفاً، كما لو كانوا يبحثون عن شيء ما مثلما كانت هاجر تفعل بحثاً عن الماء.

والرّحمة، وللخلاص من النّار. وهذا المنسك يُؤدّى وفق ممارسة النّبيّ وأمر القرآن الوارد في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ؛ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا[1]﴾.

في اليوم الثّامن للحجّ يذهب الحاجّ إلى منى، والتي تبعد نحواً من ثلاثة أميال عن مكّة، وهنا يجتمع مع الحجّاج الآخرين في أداء الصّلاة، ويبقى اللّيل.

في الصّباح، وبعد صلاة الفجر، يتابع صوب جبل عَرَفَات،[2] حيث يصلي، ويقف في البقعة، أو قربها، التي قيل: إنّ مُحَمَّداً كان يشغلها. ويسمع إلى خطبة الإمام الذي يرشد الحجّاج إلى مناسك الحجّ المتبقّية، ويبقى حتّى الغروب، ويذهب بعد ذلك إلى المزدلفة ـ وهو مكان يقع في نحو منتصف المسافة بين منى وعَرَفَات ـ ليؤدّي صلاة المغرب وصلاة العشاء معاً، ويبيت اللّيل.

لدى فجر الصّباح التّالي، وهو اليوم العاشر، وهو عيد الأضحى، يزور الحاجُّ الْمَشْعَر الْحَرَام، أو النّصب المقدّس،[3] حيث يجمع سبع حصيات صغيرة، ويسير مجدّداً إلى منى، وثمّة في وادي منى ثلاثة أعمدة، وأحدهم يُسمّى «الشّيطان الأكبر». وهنا يقول الحاج قبل أن يرمي كلّ حصاة: «بسم اللّه

---

(1) سورة البقرة: 158/2.

(2) إنَّ عَرَفَات جبل قرب مكّة، وتُطلق عليه هذه التّسمية، لأنّ آدم لمّا أُخرج من الجنة قابل وتعرّف على حواء بعد سنين من الفرقة. والأسطورة هي أنّ أدم أُنزل بالهند، وحوّاء في عَرَفَات. وبعد انفصال دام 200 سنة، فإنّ جبريل أرشد آدم عندما تاب إلى جبل الرّحمة، حيث كانت حوّاء تنادي آدم دائماً؛ إنّ تعارفهم أعطى الجبل اسم عَرَفَات. انظر بولتون (*Pilgrimage to al-Madinah and Meccah*, vol. ii. chap. xxviii. p. 188).

(3) سورة البقرة: 198/2: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ، فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾. ورُوي أنّه المكان الذي وقف فيه مُحَمَّد يناجي اللّه، حتّى صار وجهه يشعّ.

والله أكبر، رجماً للشّيطان وحزبه». ويُطلق على هذا المنسك رمي الجمرات.

في ذات اليوم، وفي مكان الأضاحي في منى، يقدّم الحاجّ قرباناً. وهذا المنسك يُسمّى «التّضحية». وجزء من الأضحيّة يأكله الحاجّ، والباقي يُعطى للفقراء، والقرآن يشير إلى هذا المنسك: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى؛ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ... وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ... فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ[1]﴾.

والآن انتهت الشّعائر المتّصلة بالحجّ، وبالإمكان القول: إنّ طقس الحجّ تمّ، والقائم بها يُدعى الحاجّ.

ثمّ يقوم الحاجّ بحلق رأسه، وقصّ أظافره، ورفع الإحرام وفق الأمر ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُم[2]﴾.

وتُقضى الأيّام الثّلاثة التّالية[3] في الرّاحة والاستعدادات للإياب إلى الوطن. وعلى أيّ حال، خلال هذه الأيّام فإنّ الحاجّ يزور منى، وكلّ يوم يرمي سبع حصيات على إحدى النّصب، ويعود بعدها إلى مكّة ويؤدّي طواف الوداع للكعبة، وبعدها يغادر الضّواحي المقدّسة والدّموع في عينه، ولسانه يلهج بالدّعاء والصّلاة، فتنتهي مناسك الحجّ.

هذه هي مناسك الحجّ، والجدّيّة التي يؤدّي بها الحجّاج الشّعائر، تذكّراً قسراً بعرض هَزليّ، أو ميلودراميّ.

(1) سورة الحجّ: 33/22، 36. قارن: سورة البقرة (196/2): ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾.

(2) سورة الحجّ: 29/22.

(3) وتُسمّى هذه الأيّام (من الحادي عشر إلى الثّالث عشر) «أيّام التّشريق». وفي سورة البقرة (203/2): ﴿وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ (أي الأيّام الثّلاثة بعد تقديم الأضحية)؛ ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ، فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ، فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾.

ليس صعباً اقتفاء أصل هذه الشّعائر المميّزة للحجّ، فهي كلّها مأخوذة عمليّاً من طقوس العرب الوثنيّة؛ إذ قبل عهد طويل من مُحَمَّد، فإنّ الحجّ إلى الكعبة، ولبس الإحرام،[1] وحلق الرّأس، والهرولة بين الصّفَا والْمَرْوَة، والطّواف حول الكعبة، وتقبيل الحجر الأسود، ورمي الحصى، وتقديم أضحية حيوانيّة في منى،[2] كانت مناسك متّبعة من جانب الوثنيّين العرب، وقد أدمجها مُحَمَّد في الإسْلام على أنّها الذّروة العليا لشعيرة دينه «الذي يعلن أنّه توحيديّ في المبدأ وضدّ الأصنام في الواقع».

ومن ثمّ، ففي هذه الطّقوس المضحكة للحجّ، نجد إدانة الإسْلام الأقسى، وزيف وحي مُحَمَّد المزعوم الذي يظهر هنا بجلاء. لقد كان الحجّ تسويةَ مُحَمَّدٍ مع وثنيّة الجزيرة العربيّة، وكان النّبيّ وطنيّاً عربيّاً، وكما ذُكر في بداية هذا الأطروحة، كان يتصوّر أنّ رسالته ليست لدعوة النّاس إلى «دين إبراهيم» بل لبلوغ وحدة الجنس العربيّ أيضاً الذي كانت قبائله المتناثرة تعيش في شقاق، وغالباً في حرب إحداها للأخرى، وبدون قائد معترف به أو سلطة مركزيّة في الجزيرة العربيّة. وعند بلوغ هدفه، فإنّ «العقل الموجّه» للجزيرة العربيّة سارع إلى الاعتراف بأهمّيّة شعيرة الحجّ العربيّة القديمة، والتي كان يشترك بها جميع القبائل العربيّة، والتي تروق لمشاعرهم القوميّة. لقد كانت محفورة في عقولهم بشكل لا يُمحى جرّاء قِدَمها، وكان الحجّ محبوباً لقلوبهم بسبب ارتباطه بمقامهم المقدّس، الكعبة. زيادة على ذلك، فإنّ مُحَمَّداً أدرك، أنّه بينما

(1) يقول أبو الفداء ذلك (المختصر في أخبار البشر، طبعة فلايشر، ص 180)؛ لكنّ آخرين يؤكّدون أنّ العرب الوثنيّين كانوا يؤدّون طقس الطّواف حول الكعبة عراة، وأنّ مُحَمَّداً جاء بلبس الإحرام؛ انظر: سورة الأعراف: 26/7، 31، 32. وموير أيضاً (*Life of Mahomet*, Introd. p. cii)؛ وسِيل (*Prelim. Discourse*, p. 94).

(2) يقول آرنولد (*Islam*, p. 28): «إنّ وادي منى كانَ ملاذاً مقدّساً مهمّاً قبل مُحَمَّد، كما كان منذ أيّام حجّ إسماعيل إلى الكعبة».

كان بوسعه استئصال عبادة الوثنيّة بالسّيف، فإنّه كان عاجزاً عن محو العقائد الخرافيّة من عقول العرب المتعلّقة بالمنسك، وتوقيرهم للمقام المقدّس في مكّة. وإذْ كان محمدٌ نفعيّاً في المسائل المقدّسة والدّنيويّة معاً، فإنّه تصالح مع الوثنيّة العربيّة لدى نهاية مسيرته، كما فعل ذلك من قبل لدى بداية رسالته. لقد اعترف بالممارسة الوثنيّة للعرب التي كانت شائعة منذ القدم،[1] طقساً إِسْلاَمِيّاً، وأضفى عليها المصادقة الإلهيّة. ورُوي أنّ مُحَمَّداً لمّا صعد جبل عَرَفَات، خلال الحجّ[2]، ألقى الآية التّالية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلام دِيناً[3]﴾. وبهذا فإنَّ مصادقة إلهيّة أُعطيت في القرآن للحجِّ، بوصفه الذّروة الكبرى، أو اكتمال الإِسْلام.

لكن بينما حصل مُحَمَّدٌ بسبب تنازله للوثنيّة على ولاء العرب للإِسْلام، ولمَّ شمل القبائل المتفرّقة سويّاً في عصبة قوميّة وروحيّة واحدة، فإنّهَ يجب الإقرار حتّى من جانب أصدقاء الإِسْلام، بأنّه بسبب تبنّيه وإعلانه المصادقة الإلهيّة على طقس وثنيّ يتعارض مع مفهومنا للألوهيّة، ويخالف روح التّشريعات الإلهيّة، فإنّ نبيّ الجزيرة العربيّة أحنى لواءَه أمام الوثنيّة، ولطّخ نقاء لواء الإِسْلام الأبيض.

من أجل تأكيد ما سلف، لن يكون خارج السّياق الاستشهاد بآراء بعض الكتّاب المختصّين بالإِسْلام بشأن الحجّ، إذ يقول هوكِس[4]: «إنَّ الحجّ إلى

---

(1) يقول البروفيسور د. س. مرگوليوث (*Mohammedanism*, p. 119)، في معرض الإشارة إلى شعائر الحجّ «من الواضح أنّها تعود إلى زمن سحيق، وبالإمكان تبيان الصّلة الأصليّة لأكثرها».

(2) روضة الصَّفَا، الجزء 2، المجلّد 2، ص 696.

(3) سورة المائدة: 3/5.

مكّة إحدى تناقضات وحي مُحَمَّد المزعومة». «يُبرز النّبيُّ المدّعيُّ في قانونِه حماقته الخاصّة للعيان في الطّقوس المضحكة للحجّ، إنّنا نرى المشرّع الذي زعم أنّ رسالته كانت لأجل استئصال وثنيّة الجزيرة العربيّة، ويضفى على الطّقوس الخرافيّة مرجعيّة التّشريع الإلهيّ».[1] ويسمّي كوينن طقوس الحجّ «شظيّة لا يسبر غورها من الوثنية مأخوذة بدون معالجة للإسْلام».[2] ويقول سيل[3]: «إنَّ الحجّ إلى مكّة، والشّعائر المفروضة على أولئكَ الذين يؤدّونها، لهي ذات غرابة كبيرة أكثر من أيّ من تشريعات مُحَمَّد؛ ليس فقط أنّها ساذجة ومضحكة، لكنّها آثار من الخرافة الوثنيّة». ويقول سِل[4]: «من الّلافت، بدون شكّ، أنْ نجد أعرافاً وثنيّة، وخرافيّة وسخيفة، تخصّ الحجّ مدمجة في دين يعلن أنّه توحيديّ في المبدأ وضدّ الأصنام في الواقع ». ويقول موير[5]: «إنَّ طقوس الحجّ... كما سنّها قصيّ» (وهو جدّ مُحَمَّد الوثنيّ) «نجدها بشكل فعليّ في عهد مُحَمَّد؛ وقد أدخلها مُحَمَّد بنفسه ببعض التّعديل، وما زالت تُمارس إلى اليوم. وتقع الكعبة في مركزها... إنّ عبادة الكعبة» (قبل عهد مُحَمَّد) «كانت سارية ونشطة، وكان سدنتها يمارسون تأثيراً مدهشاً على كامل الجزيرة العربيّة. وفقط حلَّ الإسلام محلَّ ممارستها القائمة آنذاك... إنّ توقير

(1) *Ibid*. pp. 131,132.

(2) *Hibbert Lectures*, 1882, p. 33.

(3) *Koran, Prel. Discourse*, p. 94. يتوّجب على الكاتب معارضة رأي سيل الإضافيّ بأنّ «علينا أن نعذر بعض نقاط إذعان مُحَمَّد للوثنيّة، ذلك أنّه كان يتبع في هذه القضيّة مثال أكثر المشرّعين المشهورين، الذين شرّعوا لا القوانين الأفضل بحدّ ذاتها، بل أفضل ما كان بوسع قومهم قبوله» (ص 95). ويبدو أنّ سيل يتغاضى عن حقيقة أنّ المرحلة المتقدّمة لوحي العهد القديم انقضت عليها ستّ قرون قبل نشوء الإسْلام.

(4) *Faith of Islam*, 4th ed. p. 410. [3rd ed. 345.]

(5) *Life of Mahomet*, Intro. pp. lxxxviii, xciii, cii, ciii.

الكعبة، الذي كان لا شكّ يتّسم بصفة خرافيّة فظّة وسائدة بشكل واسع، سمحَ بفرض أعراف لاعقلانيّة وجائرة للغاية». «إن طقوس الكعبة احتُفظ بها» (من قبل مُحَمَّد) «وما زالت غطاءً غريباً قائماً بدون معنى، يحيط مذهب التّأليه للإسْلام الحيّ».

هذه هي آراء الكتّاب الإنجليز حول الإسْلام وهي صائبة، وتتطابق مع الحقيقة التي يمكن البرهنة عليها من شهادة كاتب عربيّ قديم، وآخرين بشأن الموضوع. إذْ يكتب أبو الفداء،[1] «وكانوا يحجّون البيت،[2] ويعتمرون، ويحرمون، ويطوفون، ويسعون،[3] ويقفون المواقف كلّها، ويرمون الجمار». وأمّا ابن إسحاق وهو المؤرّخ الأقدم لسيرة النّبيّ الذي وصلت إلينا كتاباته عبر ابن هشام، فإنّه يدلي بشهادة مشابهة لما قدّمها أبو الفداء، ويضيف أنّ المناسك كانت تُمارس أيّام إبراهيم.[4]

ويشير هِرودوتس، كما رأينا من قبل إلى الآلهات الوثنيّة التي عبدها العرب، وفي ذات الكتاب[5] يذكر أنّ ثمّة عرفاً عربيّاً يقضي بحلق شعر الرّأس عند الصّدغيْن، وأنّهم كانوا يستعملون سبع أحجار لدى أخذ القسم.

وأمّا ديودورُس الصّقلّيّ الذي ازدهر في القرن الذي سبق ميلاد المسيح، فإنّه يشير إلى مقام مقدّس كان يُبجّل من جانب جميع العرب، والذي هو

(1) المختصر في أخبار البشر، طبعة فلايشر، ص 18.

(2) أيْ الكعبة.

(3) أيْ بين الصَّفَا والْمَرْوَة.

(4) سيرة الرّسول، الجزء الأوّل، ص 27. إنّ الإشارة إلى إبراهيم غير محتملة.

(5) Lib. III. chap. Viii.

الكعبة على الأرجح.[1] ويقول الكاتب العربيّ أبو عيسى المغربيّ: إنَّ الصّابئة «يعظّمون بيت مكّة».[2]

إنَّ هذيْن المرجعيْن الأخيريْن يشيران على أقلّ تقدير إلى قدم الكعبة، بيد أنّه من مصادر أخرى، لا سيّما من شهادة أبي الفداء الذي يعزّزه ابن إسحاق من الواضح أنّ طقوس الحجّ الوثنيّة التي كان العرب يؤدّونها «أيّام الجاهليّة»[3] أدخلها مُحَمَّد مع بعض التّعديلات، وأدمجها بنفسه في الإِسْلام، ومهرها الوحيُّ القرآنيّ بالختم الإلهيّ، وجعلها ذروة مناسك منظومته الدّينيّة.

إنّ الاستنتاج الجليّ إلى كلِّ ذوي تفكير سليم، الذي لم يسدل الرّأي المسبق حجاباً على عقله؛ أنَّ هذا «الرّكن» الإِسْلاميّ، يحمل كشف وتزييف ما يُعدّ وحياً إلهيّاً، وباتّخاذه من جانب «نبيّ الجزيرة العربيّة الزّائف» تشريعاً، فإنّه يدين نفسه.

وبالوسع السّؤال، بشكل يتّصل بالموضوع: ما أصل الكعبة؟ وما الشّعائر الوثنيّة التي يمكن تقصّيها والمتعلّقة بها؟

وقبل محاولة الإجابة عن هذين السؤالين، لنلحظ أوّلاً أنّ الإشارات القرآنيّة إلى هذا المقام المقدّس تشير إلى إيمان عرب عهد مُحَمَّد بها. ففي سورة آل عمران نقرأ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، لَلَّذِي بِبَكَّةَ؛[4] مُبَارَكاً وَهُدًى

(1) *Diod. Sic.*, Lib. III.

(2) أورده أبو الفداء في كتابه المختصر في أخبار البشر، ص 148.

(3) أي قبل نشوء الإِسْلام.

(4) أي مكّة، أو مكان «مكان الاحتشاد». إنّ هذه الآية والآيات الأخرى، مطرّزة على كسوة الكعبة.

لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ، بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ؛ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً(1)﴾. وفي سورة المائدة يقول: ﴿جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ(2)﴾. وجاء في سورة الحجّ: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ، سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ، وَالْبَادِ... وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ، وَالْقَائِمِينَ، وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(3)﴾.

تشير الآيات القرآنيّة من بين أشياء أخرى إلى قدم الكعبة وتقديسها، وتعبّر عن شيوع إيمان العرب بأنّ إبراهيم هو الباني الأصليّ للكعبة. وزيادة على ذلك، فإنّ هذا الإيمان مذكور بشكل جليّ في القرآن في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ، رَبَّنَا! تَقَبَّلْ مِنَّا(4)﴾ في حين إنّه ليس قابلاً للجدل وجود الإيمان التّقليديّ بين العرب، فإنّ مصداقيّة الرّواية عرضة للتّمحيص. ويقول بورتون (Pilgrimage, iii., 336): إنّ هذا المأثور واضح ومتين، بيد أنّه يترك قبوله مسألة تحت البحث. ويذهب فرتاگ(5) أبعد فيقول: ليس ثمّة من سبب كافٍ للشّكّ فيما ورد في سورة البقرة (127/2) بأنّ إبراهيم

(1) سورة آل عمران: 96/2ـ98.

(2) سورة المائدة: 97/5.

(3) سورة الحجّ: 25/22 ـ 26. قارن سورة البقرة (125/2). ويعتقد المسلمون في أنّ الكعبة مماثلة عمراً للعالم، وأنّها كانت توجد في الجنّة (أو عدن). وبعد طرد آدم من الجنّة [والتي لا يضعها مُحَمَّد على الأرض، بل في السّماء السّابعة، سورة البقرة (36/2)]، فإنّه سأل لاحقاً بناء مقام مثل ما في الجنّة، فأُنزل مجسّم له من الجنّة، ووُضع في مكّة. ولدى الطّوفان رُفعَ إلى السّماء مجدّداً. وعندما مات آدم، فإنّ ابنه شيثاً شيّد بناءً مماثلاً للمعبد السّماويّ الذي غرق بالطّوفان، لكن بعد بذلك أعاد إبراهيم وإسماعيل بناءه.

(4) سورة البقرة: 127/2.

(5) *Einleitung*, p. 339.

مع إسماعيل قاما ببناء الكعبة. ويقول ژ. م. أرنولد (*Islam*, p. 27): «وليست مرفوضة بشكل كلّيّ فكرة العرب الشّائعة التي تعتقد في أنّ إسماعيل هو المؤسّس الأصليّ للكعبة».

بيد أنّ التّقصّي الدّقيق[1] لا يقرّ هذا المأثور؛ وإذْ إنّه لا يقوم على أساس تاريخيّ، فيجب اعتباره عديم القيمة، إنْ لم نسقطه كلّيّاً. وعلى أيّ حال، ثمّة أمر واحد مؤكّد عن الكعبة، هو أنّها كانت قبل مُحَمَّد بزمن طويل، وكانت مزاراً وثنيّاً، وكان العرب من جميع أرجاء الجزيرة العربيّة يزورونها بوصفها مقصدهم للحجّ. بيد أنّ الأصل الحقيقيّ للكعبة ليس معروفاً، فهو غارق في ظلمة الزّمن.[2]

إذاً، كيف يمكن تفسير الإيمان بأصلها الإبراهيميّ، والعلاقة المفترضة لمناسكها مع قصص العهد القديم؟

إنّ الشّرح المبسوط باختصار، يكمن في أصل قاطني مكّة القدامى، واتّحادهم مع القبائل الإبراهيميّة من سوريّا التي توطّنت مكّة.

لقد أشرنا من قبل إلى أنَّ الوثنيّة كانت سائدة في كافّة أنحاء الجزيرة العربيّة منذ غابر الأيّام، والمعالم البارزة كانت عبادة الحجارة، والأجرام السّماويّة.

---

(1) على سبيل المثال، موير، سيل، پولمر، سِل، تيسدال، مرگوليوث، وآخرون. يقول موير: «إنّ القصّة خرافة بشكل صرف»، ويقدم أسباباً مقنعة بقوّة على رأيه (*L. of M.*, Intro. pp. xc-xci).

(2) يبدو أنّ الحجر الأسود، المثبت في الكعبة، أقدم حتّى من الكعبة ووجوده هناك يشير إلى معرفة من جانب العرب بعرف في أزمنة العهد القديم كان يقضي بنصب حجارة لإحياء ذكرى أعمال خاصّة للمعروف الإلهيّ، مثلاً، يَعْقُوبُ في بَيْتَ إِيلَ (التَّكْوِين: 18/28).

وعلى الأغلب، فإنّ هذه الطّقوس نشأت في اليمن الذي كان مهد الجنس العربيّ، وفيما بعد انتشرت عبر شبه الجزيرة، ولما قدم سكّان مكّة القدامى من اليمن، أحضروا معهم الأعراف الوثنيّة المتّبعة في بلدهم الأمّ. وهذا ما أدخل في مكّة العرف الوثنيّ، وعبادة الأجرام السّماويّة.

إضافةً لذلك، نعلم أنّه كانت مكّة في زمن ما، تقع على طريق التّجارة بين الشّرق والغرب، وكانت مكان استراحة مهمّاً للقبائل التي تشتغل بتلك التّجارة؛[1] وبسبب من موقعها الملائم وتوفّر ماء بئر زمزم بدون شحّ، فإنّها غدت مركزاً تجاريّاً، والذي جذب مستوطنين من أجزاء أخرى من الجزيرة العربيّة. وبذلك فإنّه أُبقي على التّواصل بين سكّان مكّة الأصليّين، وبلدهم القديم في اليمن، وهذا ما أقام في مكّة مناسك وثنيّة قادمة من اليمن. ولا يمكن الشّكّ في أنّ المهاجرين القدامى بنوا مقاماً، كانوا يقدّمون فيه صلواتهم إلى الشّمس، والقمر، والنّجوم، وربّما أيضاً إلى الحجر الأسود العجيب. وقد كانت تُقدّم أضاحي في اليمن إلى الأجرام السّماويّة، والتي ستصبح جزءاً من الطّقوس الوثنيّة التي دخلت مكّة.

زيادةً على ذلك، فإنّ الأهمّيّة التّجاريّة لمكّة، وجذبها العرب من جميع أرجاء الجزيرة العربيّة ستزيد عدد أولئك الذي يتعبّدون مقامها المقدّس، وسوف تمنح عبادتها شيئاً ما من الصّفة القوميّة، إلى أن تغدو في النّهاية دين

(1) كانت ماكورابا تقع في منتصف المسافة بين العربيّة السّعيدة والپترا. ويقول هيرن «مثل هذه الأماكن للاستراحة أصبحت مراكز تجاريّة، وفي أحيانٍ كثيرة مواقع للمعابد والحُرم المقدّسة، حيث يواصل التّاجر تجارته بظلّ حمايتها، وبها كان يلوذ الحجّاج» .(*Researches in Africa*, vol. i. p. 23)

[ماكورابا (Macoraba): اسم مكّة القديم؛ العربيّة السّعيدة (Arabia Felix): اليمن؛ الپترا (Petrae): أو العربيّة الصّخريّة، هي شبه جزيرة سيناء. وهذه أسماء لاتينيّة ـ م.]

كلّ شبه الجزيرة العربيّة.

إنّ تفسخ مكّة التّجاريّ لم يكن ليدمّر توقير العرب الخرافيّ الذي اكتُسب تدريجيّاً لهيكلها وطقوسها الدّينيّة، فاحتفظت الكعبة بقداستها بوصفها ملاذاً، أو محجّة جميع أبناء الجزيرة العربيّة.

بهذا حاولنا بقدر ما تفسير الأصل الشّركيّ للكعبة، وطقوسها الوثنيّة. إلّا أنّه بقي تفسير كيف أنّ أصل هذا المقام المقدّس الشّركيّ، ومناسكها الوثنيّة أصبحت مرتبطة باسميْ إبراهيم وإسماعيل، والذي كان اعتقاداً عربيّاً شعبيّاً في عهد مُحَمَّد، وكذلك قبل زمن طويل من نشوء الإسْلام.

لقد رأينا أنَّ هجرات يهوديّة عديدة جاءت من سوريّا إلى الجزيرة العربيّة، وأنَّ جماعات مهاجرة من اليهود أقاموا في أجزاء مختلفة من شبه الجزيرة ـ في المدينة، وخيبر، وأماكن أخرى. وإنّه لأمر قويّ الاحتمال أنّ إحدى هذه القبائل من الأصل الإبراهيميّ أو الإسماعيليّ، قد نفذت عبر الصّحراء إلى مكّة، واستوطنت هناك مع السّكّان الأصليّين من اليمن؛ وقد جلب معهم القادمون الجدد تقاليدهم وقصص إبراهيم وهاجر وإسماعيل التي أصبحت بمرور الوقت وتمازج الجنسين مرتبطة بمقام مكّة المقدّس، والطّقوس الدّينيّة المحلّيّة للسّكّان الأصليّين. وزيادة على ذلك، فإنّ هذه المأثورات والقصص الإبراهيميّة أضفت على هذه الطّقوس تفسيراً محدّداً لأصلها، وأعطت أرضيّة عقلانيّة لإقامتها، فصارت تُعدّ من جانب العرب تفسيراً أصليّاً لتشريعهم الأوّليّ. وعلى هذا، كما يكتب موير بحذاقة[1]: «بتعديل موجز، فإنّ قصّة فلسطين تصبح قصّة الحجاز. وضواحي الكعبة تُقدّس على أنّها مسرح محنة هاجر، وبئر زمزم المقدّس على أنّه مصدر غوثها. إنّ الحجّاج يهرولون جيئةً

(1) *Life of Mahomet,* Introd. pp. xcii, xciii.

وذهاباً بين الصّفَا والْمَرْوَة، ذكرى لخطواتها السّريعة بحثاً عن الماء. وقد كان إبراهيم وإسماعيل هما اللّذان بنيا الكعبة، وثبّتا عليها الحجر الأسود، وأسّسا مناسك الحجّ إلى عَرَفَات لجميع أهل الجزيرة العربيّة. ومحاكاةً له، فإنّ الحجّاج يرمون الحصى كما لو كان على الشّيطان، ويقدّمون الأضحيّة في منى في ذكرى أضحية إبراهيم البديلة. وبهذا، رغم أنّ الطّقوس المحلّيّة تغيّرت قليلاً، إنْ لم تتغيّر كلّيّاً بتبنّي الأساطير الإسرائيليّة، إلّا أنّه صار يُنظر إليها بضوء مختلف تماماً، وارتبطت بقداسة إبراهيم ـ خليل اللّه ـ في المعتقد العربيّ».

عندما تبنّى مُحَمَّدٌ وأدخل في الإسْلام مناسك الحجّ الشّركيّة للكعبة، فإنّه أدخل بعض التّغييرات فيها، وفق ديدنه في النّقل. فبدلاً من الأضاحي الشّركيّة في منى، فإنّ مُحَمَّداً أحلّ مكانها الطّقوس القربانيّة ليوم الغفران العظيم الذي أخذه مُحَمَّد عن اليهود؛[1] وقد رفض مُحَمَّدٌ وحرّم شعيرة الطّواف حول الكعبة في حالة العريّ، ومع ذلك، فإنَّ الطّقوس الإسْلاَمِيّة للحجّ، كما أقامها وأمر بها مُحَمَّد، كانت ـ وما زالت إلى اليوم ـ فعليّاً ذات الطّقوس الوثنيّة للعرب، الذين كانوا يقيمونها قبل نشوء الإسْلام.[2]

---

(1) انظر مسبّقاً. إنَّ صيام اليهود الذي قلّده مُحَمَّد في البدء، نُسخ بصيام رمضان الإسْلاَمِيّ؛ بيد أنّ مُحَمَّداً احتفظ بطقس القربان، وأدمجه في طقسه الدّينيّ الجديد في عيد الأضحى، فأدرجه النّبيّ محاكاةً للأضاحي الشّركيّة التي تُقدّم في منى عند ختام الحجّ الأكبر. في هذا الطّقس فإنّ مُحَمَّداً عكس أمر التّضحيّة بالجداء، فقدّم الأوّل عن قومه، والثّاني عن نفسه: انظر اللأوِيِّين: 16/6، 15؛ الْعِبْرَانِيِّين: 7/27.

(2) إنَّ المؤلّف يختلف مع رأي السّير ويليام موير في كتابه حياة مُحَمَّد (المقدّمة، ص xciii) الذي ينصّ على أنَّ مُحَمَّداً عند احتفاظه بطقوس الكعبة قد «جرّدها من كلّ نزعة وثنيّة». إنَّ تقديس الحجر الأسود ـ وتقبيله مثّل الشّكل القديم للعبادة في الشّرق ـ لهو شركيّ بشكل واضح.

وصلنا الآن إلى نهاية بحثنا بخصوص مصادر الإِسْلام. وفي الاستعراض الختاميّ سوف نجمل باختصار الاستنتاجات التي وصلنا إليها في الصّفحات السّابقة. وهنا، وقبل الانتهاء من هذا الجزء من بحثنا، يمكن لحظ أنّ أكثر الطّقوس والشّعائر المتّصلة بالإِسْلام اقتُبست من طقوس دينيّة كانت تُمارس في الجزيرة العربيّة لوقت طويل قبل مُحَمَّد.

ومن ثمّ، ففي حقل مثل حقل الدّين، فإنّ الإِسْلام هو تجميع معقّد من الفكر والعادات الدّينيّة المقتبسة من مصادر عديدة ومختلفة، قولبها مُحَمَّدٌ في منظومة دين خاصّ له بشكل مميز، لأنّها مطبوعة بشخصيّته وخُلقه. زيادة على ذلك، هذه المنظومة الهجينة من العناصر المتنافرة، أُعلنت أنّها من الإله، وهذا ما جعل قوانين الدّين والإيمان بالنّسبة لأتباع النّبيّ جامدة غير قابلة للتّغير في كلّ عصر ولكلّ الأزمنة.

إنّ المبادئ والممارسات،[1] وبعض الأعراف الشّركيّة المنافية للعقل التي تخصّ العرب الجاهلين في عهود الظّلام ملزمة ويتوجّب إقامتها على جميع المسلمين الأرفع ثقافياً في وقتنا الحاليّ والذي هو عصر التّنوير.

إنَّ عيوب، والتّأثير المهلك لمثل هذه المنظومة الدّينيّة واضحة. مثل بحيرة ما داخل البلد التي تُرفد من تيّارات عديدة، لكن خالية من منفذ، فتصبح راكدة، وتطلق أبخرة سامّة تسبّب الموت والخراب لكلّ الإقليم المحيط بها، كذلك الإِسْلام، وهو منظومة دينيّة متجمّعة من مصادر مختلفة العناصر وله بعض أوجه الحقّ، بيد أنّ له الكثير من السّمات الخاطئة التي تنتهك الحكم الأفضل للأتباع المتنوّرين، كما إنّها بغيضة للذّوق العامّ للبشريّة. والإسلام يدّعي أنّه

(1) مثل تعدّد الزّوجات، التّسرّي، العبوديّة، الخ.

وحيٌّ إلهيٌّ كاملٌ، وغير قابل للتّغيير،[1] وأنّه الإيمان والدّين المطلوبان لكلّ البشر ولكلّ الأزمنة، ويقرّ الثّبات في مبادئه الأخلاقيّة وعدم التّطوّر في سمات طقوسه الدّينيّة، رغم أنّ رقيّ المعرفة وتقدّم الحضارة قد تظهر أنّ أكثر مبادئه وأوامره تتعارض مع طبيعة الكائن الإلهيّ.

إنّ منظومة الإسْلام الدّينيّة الهجينة والمتنافرة وغير القابلة للتّغيير قد سمّمت المفهومات الأخلاقيّة للمسلمين، وقيّدت نظرتهم العقليّة،[2] وبذلك سبّبت ركوداً أخلاقيّاً وعقليّاً[3] وموتاً في تلك الأقطار التي تسلّم بحكمه، أو تقبع في عبوديّة له إمَّا بسبب الجهل، أو بقوّة السّيف.

---

(1) وصف لافت للنّظر بخصوص طبيعة الإسلام غير قابلة للتّغيير قدّمها محرّر صحيفة إسْلاَمِيّة في القاهرة. إذْ يتحدّث عن تكييف الإسْلام مع الفكر الأوروبّيّة، فيقول: «لن يقبل أيّ شعب إسْلاَمِيّ تكييفاً أو تعديلاً للإسْلام. إنّ الإسْلام كما هو دين، هو مرشد للإنسان في الحياة، في واجباته نحو اللّه والإنسان، وهو إلهيّ وكامل... إنّ الإسْلام، كما هو كامل، فإنّه مناسب بشكل مذهل لحاجات الإنسان في إنجلترا أو في الأقاليم القطبيّة الشّماليّة، كما لبدو صحراء الجزيرة العربيّة، وهذه الواقعة هي إحدى البراهين المدهشة على أصله الإلهيّ. وقد ورد ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ﴾ [سورة يونس: 64/10، م.]؛ ومن ثمّ، فإنّ القُرْآن والسّنّة ثابتان لجميع الأزمنة ولكلّ البشر». *Egyptian Herald*, Feb. 22, 1896 ـ.

(2) إنّ الحالة المتخلّفة للتّعليم بين المسلمين كانت معلماً ملحوظاً في الإحصاء الهنديّ.

(3) *Vide* Prof. D. S. Margoliouth's *Muhammadanism*, p. 149; G. H. Lancaster's *Prophecy, the War, and the Near East*, p. 148.

يعزو ابن خلدون المؤرّخ المسلم الحالة التّعيسة والمنحطّة للبلدان المُحَمَّديّة إلى التّأثيرات المحافظة للإسْلام.

الفصلُ الرّابع عشر

نظرة ختاميّة

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالَّذِينَ هَادُوا، وَالصَّابِئِينَ، وَالنَّصَارَى، وَالْمَجُوسَ، وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا، إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[1]﴾.

وُلد الإِسْلام في الصّحراء، فكانت أمّه العرب الصّابئة، وأباه اليهوديّة؛ وحاضنته كانت المسيحيّة الشّرقيّة. إدوين أرنولد.

كما نتصوّر الرّبّ، نتصوّر الكون؛ كائن عاجز عن الحبّ غير قابل لأنْ يُحبّ. مبدأ فِربرن.

لقد أكملنا بحثنا في مصادر الإِسْلام، وفي هذا الفصل الختاميّ، سنستعرض باختصار، وسنجمل الاستنتاجات التي توصّلنا إليها في الصّفحات السّابقة.

لقد رأينا أنَّ وحدانيَّةَ اللّهِ، العقيدة الرّئيسة في دين الإِسْلام، جاءت من الفكرة السّاميّة أو التّوحيديّة عن الرّبّ، والتي كانت إيماناً قديماً تقليديّاً للعرب، وكانت تنسجم مع الإيمان السّاميّ. وكان هذا الإيمان يتجلّى في بعض الأعراف الاجتماعيّة والدّينيّة، ومن شهادة هِرودوتس، واشتقاق مفردة «اللّه»

(1) سورة الحجّ: 22/2.

التي كانت تُستعمل كثيراً في الشّعر العربيّ قبل الإسْلام. زيادة على ذلك، يشير بعض الكتّاب العرب إلى أنّ أصل عبادة العرب، وبالأخصّ مَن يدّعون أنّهم من نسل إسماعيل، كان اللّه الواحد الحقّ. وإنّ اتّصال مُحَمَّد مع «الأحناف» أو العرب المصلحين الذين رفضوا الوثنيّة، وأعلنوا أنّهم أتباع دين إبراهيم؛ قد عزّز إيمانه بوحدانيّة اللّه. إلى جانب كلّ ذلك فإنّ العقيدة قد استمدّت أهمّيّةً إضافيّةً من احتكاك «النّبيّ» مع اليهوديّة.[1]

فيما يتّصل بمذهب القرآن عن الملائكة والشّياطين، لقد بُيّن ببعض الاستفاضة أنّ هذه العقائد أتت من الزّرادشتيّة بشكل أساسيّ، لكنّها أُخذت من المصادر اليهوديّة، وصُبغت بشكل ما بعقائد وخرافات العرب المحلّيّة. بعض مقالات المذهب أتت من مصدر مسيحيّ، وبعضها من الميثولوجيا الأرْمَنيّة والبابليّة.

ومذهب القرآن بخصوص الكتب والأنبياء مستمدٌّ بشكل رئيس من المصادر اليهوديّة والمسيحيّة، رغم أنّ الصّابئين اعترفوا ببعض الكتب المنسوبة إلى بعض الأنبياء قبل الطّوفان. وأحد كتب الصّابئة كان كتاباً يُسمّى سِفْر شيث، الذي كان معروفاً للعرب في عهد مُحَمَّدٍ، ومن ثمّ، كان معروفاً لمُحَمَّد، ذلك أنّ عدّة شعائر دينيّة إسْلاميّة مشابهة للصّابئيّة.

وقد وُصف يَسُوع في القرآن بأنّه رسول، و«روح اللّه»، والنّبيّ الوحيد بدون

(1) إضافةً لِما قيل بشأن الموضوع في الفصل الثّالث، بوسعنا أنْ نضيف هنا ما قاله هـ. هيرشفِلد في (*Journal of the Royal Asiatic Society*): «يمكن أن يُؤخذ الانحطاط الدّينيّ في الجزيرة العربيّة قبل وقت قصير من الإسْلام بمعنى سلبيّ في فقدان القبائل لشعور القرابة بالأرباب القبليّة. ويمكننا أن نعبّر عن ذلك بشكل أكثر ملموسيّة بالقول: إنَّ الأرباب أصبحوا تدريجيّاً أكثر وأكثر ضبابيّة عبر التّأثير المهلك الذي مارسته الفكر اليهوديّة والمسيحيّة، لنحو من متيْ سنة على شرك الجزيرة العربيّة».

خطيئة. وهذه التّصوّرات لأقنوم ربّنا الإلهيّ، وميلاده البتوليّ الموجودة في القرآن، لا بدّ من أنّها أتت من مصدر مسيحيّ. إضافةً لذلك، أنكر مُحَمَّدٌ ألوهيّته كإله ثالوثيّ، وبنوّته الإلهيّة، إمَّا بسبب معتقد خاطئ مبنيّ عن قصدٍ، وإمّا بسبب نظرات محرّفة ومشوّهة للثّالوث، كانت تسود بين مسيحيّي الجزيرة العربيّة وسوريّا في عهد مُحَمَّد.

الكثير من تعاليم مُحَمَّدٍ حول أقنوم المسيح مأخوذة من المصادر المنحولة؛ وفي رفضه للصّلب، فإنّ مُحَمَّداً اتّبع فحسب تعاليم بعض الهراطقة الذين نشطوا في القرنين الثّاني والثّالث الميلاديّين. والإشارات القرآنيّة إلى قدوم المسيح الثّاني أُخذت من كتبنا المقدّسة، والنّبوّة المفترضة في العهد الجديد التي تشير إلى ظهور مُحَمَّدٍ، نشأت من الخلط بين مفردة «باراكليت» (παράκλητος) مع مفردة أخرى هي (περικλυτός) والتي تترجم بمعنى قريب من مفردة «أحمد» ـ أحد أسماء النّبيّ.

إنّ عقيدة البعث ويوم الحساب اقتُبست بشكل واضح من الكتب المسيحيّة، بيد أنّ بعض التّفاصيل بشأن «اليوم» الواردة في القرآن، أُخذت من بعض كتب العهد القديم النّبويّة. ويسهم التّلمود أيضاً في التّصوّرات القرآنيّة عن البعث ويوم الحساب و﴿السّاعة﴾؛ وفي الواقع، فإنّ مُحَمَّداً حاز على أكثر معرفته بالعهد القديم بوساطة التّلمود.

اقتبسَ مُحمَّدٌ «الميزان» الذي توزن به أعمال المرء يوم الحساب، من عمل منحول يُدعى عهد إبراهيم. والفكرة موجودة أيضاً في التّلمود، وفي الميثولوجيا الزَّرادشتيّة، لكنَّ مصدرها النّهائيّ هو الميثولوجيا المصريّة القديمة. ذلك أنّ عهد إبراهيم نُظم في الأصل في مصر، وربّما كان مؤلّفه قد حاز على الفكرة من سِفْر الأمواتِ المصريّ الذي يحتوي على صورة لفكرة «مسرح الحساب» الأخير.

إنَّ الأَعْرَاف، أو الجدار أو الحجاب، الذي قيل: إنّه يقع بين الجنّة والنّار له مثيل في التّلمود، وفي عهد إبراهيم الذي أخذ منهما القرآن بشكل مباشر، بيد أنّ المصدر النّهائيّ للفكرة هو الميثولوجيا الأفِستيّة التي تبقي «مكاناً منفصلاً» لأولئك الذين «تتساوى سيّئاتهم وحسناتهم».

الصِّرَاط، «الطّريق» أو «الجسر» الإِسْلاَمِيّ، الذي يمتدّ فوق النّار والواجب على الجميع العبور عليه بعد الحساب، أُخذ من ذات المصدر النّهائيّ للأعراف. إنّه جسر تشينفات في الأفِستا، «جسر المحتشدين» الذي يجب على الجميع العبور عليه قبل دخول الجنّة، والذي لا يستطيع عبوره غير أرواح الصّالحين، بينا تسقط أرواح الأشرار منه إلى النّار.

ثمّة إشارة إلى جسر النّار في المأثور اليهوديّ، لكن جاء فيه أنّ الوثنيّين فحسب من يعبرونه الذين سيسقطون منه إلى النّار؛ وقد أخذ اليهود هذه الفكرة من الپارْسيّين.

وفي الميثولوجيا الآريّة يوجد «جسر الآلهة» الذي استلهمه عابدو الطّبيعة على أغلب الاحتمالات من قوسُ قزح، أو درب اللّبّانة، بوصفه الجسر الذي تعبر عليه الآلهة من السّماء إلى الأرض. وهذا أحد المؤشّرات التي لحظناها في هذا البحث، والتي تشير إلى الأصل الآريّ للپارْسيّين. وفي أرجح الاحتمالات، فإنَّ الأسطورةَ الآريّة أصلُ تشينفات الأفِستيّة.

لقد أخذ القرآن مذهب الجنة والنّار بشكلٍ واسع من التّلمود، أو التّقاليد المبنيّة عليه. وثمّة اعتقادات هندوسيّة وپارْسيّة متشابهة بعض الشّيء مع بعضها، ومع اعتقادات القرآن، وهي تشير إلى الأرومة الأثنيّة المشتركة لهذَيْن الجنسيْن.

إنّ تصوير مُحَمَّدٍ للجنّة، ومتع المؤمنين فيها، يشبه في نواحٍ عديدة تلك

الموجودة في التّلمود، وفي الآڤِستا. وحُوْر المسلمين في الجنّة هي البِريكات أو العذارى السّماويّات «ذوات الجمال الخلاّب» اللّواتي اعتقد الهندوس أنّهنّ أبساراسايّات، أو مخلوقات النّور التي تسكن في سماء الرّبّ إندرا، التي تُدعى سوار گا (स्वर्ग).

بدون شكّ، كان مُحَمَّدٌ متأثّراً باللّغة المجازيّة لِسفْرِ الرّؤْيَا، وهو يرسم مباهج الجنّة القرآنيّة، بيد أنّ تصاويره الحسّيّة تعود إلى ميله الشّهوانيّ فحسب.

إلى جانب الأوصاف التّلموديّة للنّار التي اقتبسها مُحَمَّد بشكل واسع، ثمّة النّار الگاثيّة، الموصوفة بتفاصيل دقيقة في الآڤِستا، والتي ربّما أخذ مُحَمَّدٌ منها أيضاً تعاليمه القرآنيّة.

ثمّة إشارات ثانويّة إلى النّار مستمدّة من المصادر اليهوديّة والمسيحيّة.

إنّ القضاءَ والقدر العقيدة الأخيرة في دين الإِسْلام التي أُكّد عليها كثيراً في القرآن.

لقد رأينا أنّ مُحَمَّداً في صوغه لهذا المذهب تأثّر إلى حدّ كبير بتعاليم الكتب اليهوديّة والمسيحيّة المقدّسة، والتي تتكشّف فيها سلطة اللّه المطلقة بوضوح؛ بيد أنّ الرّأي القرآنيّ في حالته المنفردة الجافّة لا يمكن أن يعود إلى تلك الكتب المقدّسة. ومن ثمّ، نشدنا بعض المصادر الأخرى التي لها أن تفسّر الصّرامة المروعة لهذه المقولة، التي تدلّل على مفهوم للألوهيّة جائر وليس من طبيعة الإله بسبب تناقضه مع مبدأ العدالة، ذلك أنّ إحدى صفاته الأساسيّة هي العدل. وقد وجدنا أنّ المصدر الأقدم للمذهب الإِسْلاَمِيّ حول القضاء، والذي يصعب تمييزه أحياناً عن الجبريّة، أو القدر الأعمى كما يفهمه المسلمون في يومنا هذا، موجود في العبادات البدئيّة والأديان الأرواحيّة التي كانت موجودة في الجزيرة العربيّة قبل نشوء الإِسْلام. والمتجذّرة في عقول

تابعي مثل هذه العبادات، والمتشابكة بإيمانهم، إنّهم يعزون إلى فكرة الجبر، أو القدر الأعمى مختلف ظواهر وجودهم. على أيّ حال، فإنّ هذه العقيدة لدى بلورتها بيدي النّبيّ من أجل أن تكون مقولة في الإسْلامِ، ازدادت «قسوةً».

فيما يتعلّق بأركان الإسْلام، وبخصوص «الرّكن» الأوّل، التّشهّد، أو تلاوة العقيدة، فقد لحظنا وجود ما يشبه الجزء الأوّل من العبارة الإسْلاَمِيّة كان شائعاً بين العرب في إقامتهم لطقس الإهلال قبل زمن طويل من نشوء الإسْلام. وكذلك لحظنا التّشابه بين هذا الجزء من التّشهد والإقرار بوحدانيّة الإله الوارد في شماع، أو اللّيترجيا التي تُتلى يوميّاً: «اسمع يا إسرائيل، إنّ الرّبّ إلهنا هو الرّبّ الواحد»؛ وفوق ذلك، يتشابه التّشهد مع الاعتراف بوحدانيّة الإله الذي أعلنه أولاد يعقوب لدى احتضار أبيهم، حسب الرّواية القرآنيّة[1] التي اكتسبها مُحَمَّد من التّلمود. إنّ إعلان أو تلاوة وحدانيّة الإله الوارد في الجزء الأوّل من التّشهّد، جاء بشكل جليّ من هذه المصادر. والجزء الثّاني من التّشهّد الذي يعلن رسوليّة مُحَمَّد، كان من تلفيقات النّبيّ الخاصّة.

إنّ الرّكن الثّاني الذي أخضعناه للبحث هو أمر مُحَمَّدٍ بإقامة الصّلاة في أوقات محدّدة في اليوم، ووجدنا أنّه يرجع في المقام الأوّل إلى ممارسة اليهود المنسجمة مع تعاليم كتب العهد القديم المقدّسة، وكذلك التّلمود. ولاحقاً، وبعد «الإسراء» أصبح مُحَمَّدٌ أقلّ مودّة نحو اليهود، فزاد من عدد الصّلوات إلى خمسة التي تتطابق مع خمسة أوقات لدى الصّابئة، كما أشار إلى ذلك كاتب عربيّ قديم، هو أبو عيسى المغربيّ. وقد وجدنا المصدر النّهائيّ لهذه الأوقات الخمسة الإسلاميّة في الزّرادشتيّة التي وبحسب الآفِستا، تقسّم اليوم إلى خمسة أقسام أو أوقات يجب أن تُقام فيها الصّلوات.

---

(1) سورة البقرة: 133/2.

وطقوس التّطهّر الإِسْلاَمِيّة التي تسبق الصّلاة، أُخذت بشكل أساسيّ من طقس التّطهّر لدى اليهود كما أمرت به كتب العهد القديم، وشرحها التّلمود. لقد كان لدى العرب بعض طقوس التّطهّر، وقد اتّبع الإبيونيّون والصّابئون طقوس الاغتسال التي تشبه بعض الشّيء ما أُمر به في القرآن، وربّما كانت هذه المصادر قد مارست تأثيراً على مُحَمَّد عندما شرّع مناسكه القرآنيّة، بيد أنَّ المصدر الرّئيس والتّأثير الغالب كان بدون شكّ يهوديّاً.

إنَّ الرّكوع الذي يقوم به المسلمون لدى الصّلاة، وفي صلاة الجماعة؛ وعادتهم الفَرِّيسِيّة في الصّلاة العامّة، كلّها من أصل يهوديّ. وكان هيكل أورشليم قبلةَ مُحَمَّدٍ الأولى، وقد اتّخذه مُحَمَّدٌ من عُرْف اليهود، والذي قام بتبديله لاحقاً صوب كعبة مكّة، كي يستميل العرب، ولكنّ السّبب الأساس هو كراهيته المتزايدة لليهود.

إنَّ طقس الختان الذي يمُارسه المسلمون لم يُفرض في القرآن أو الأحاديث، ومن ثمّ، لا يمكن اعتباره تشريعاً إِسْلاَمِيّاً، لقد كان طقساً إبراهيمياً وكان يمارسه اليهود، وكذلك العربُ قبل زمن طويل من نشوء الإِسْلام.

إنَّ الصّيام في رمضان، هو الواجب العمليّ الثّالث، وله أصل مركّب. إنَّ الصّيام، والقانون القرآنيّ الذي يحدّد زمنه، اقتُبسا من اليهود، والأخير أمرٌ تلموديّ. والصّيام أثناء النّهار فقط يأتي وفق عُرف اليهود (وكذلك الصّابئة)؛ وزيادة على ذلك، فإنّ المستثنيين من الصّيام هم ذات الفئة عند اليهود، كما حُدّدت في التّلمود. وإنّ مدّة الصّيام أو فترة الثّلاثين يوماً، وعيد الفطر، أُخذت من الصّابئين. لكن ربّما كان مُحَمَّدٌ في تعيينه فترة ثلاثين يوماً خاضعاً لتأثير عُرف قريش، التي كانت تقضي شهراً من كلّ عام على جبل حرّاء، قرب مكّة «للتّكفير». وزيادة على ذلك، يبدو أنّ منسكَ قريش قاد مُحَمَّداً إلى اختيار شهر رمضان لصيامه، ذلك أنّهم كانوا يقضون هذا الشّهر من كلّ عام في «أيّام

الجاهليّة».

أمّا مصدر الزّكاة، وهو الرّكن الرّابع في الإسْلام، فنجده أيضاً في اليهوديّة، وهذا ظاهر من إتيمولوجيا المصطلحين القرآنيّيْن الدّالّين على هذا الرّكن ـ الزّكاة والصّدقة، وهما اشتقاقان يهوديّان. والممارسة اليهوديّة كما أمر بها في العهد القديم، وضرب عليها أمثلة في كلّ من كتب العهدين القديم والجديد المقدّسة يعطي دعماً إضافيّاً لهذا الاستنتاج الذي تؤكّده الكتابات المنحولة، وبالأخصّ الإشارات في التّلمود إلى فضيلة وضرورة وجزاء الإحسان.

بيد أنّ مُحَمَّداً لم يتبنَّ الممارسة اليهوديّة في كلّ تفصيل. فوفقاً لطريقته في الاقتراض، أدخل تغييرات في الأمر إنْ كان بخصوص المبلغ المطلوب تأديته، أو إنْ كان بشأن الغاية التي تُعطى لأجلها.

وفيما يتّصل بالحجّ، أو الرّحلة المقدّسة إلى مكّة، وهو «الرّكن» الخامس والأخير في الإسْلام، فإنّه يمكن تقصّي أصل جميع مناسكه المميّزة في شرك الجزيرة العربيّة. ولعهد طويل قبل أن يرى الإسْلام النّور كانت قبائل الجزيرة العربيّة تمارس مناسك الحجّ هذه، ما عدا التّغييرات التي أدخلها مُحَمَّدٌ. وكي يكسب هذه القبائل المتفرّقة والمستقلّة للإسْلام، ويوحّدها في رابطة عامّة ذات وحدة روحيّة وقوميّة، فإنّ مُحَمَّداً تبنّى مناسك حجّهم الوثنيّة، وجعلها الطّقس الأعلى الرّفيع للإسْلام. وعبر إنزال رايته أمام الشّرك العربيّ، وتصالحه معه، فإنّ مُحَمَّداً أكمل هدفه، بيد أنّه في ذات الوقت عرّض نفسه ودينه إلى شجب قاسٍ وعادل؛ على مناسك الحجّ الوثنيّة السّخيفة هذه التي قال في القرآن إنّها قوانين إلهيّة؛ وتبطل هذه المناسك دعوى الإسْلام بأنّه منزل من اللّه وأنّ مُحَمَّداً نبيّه.

لقد انتهى بحثنا الآن في مصادر الإسْلام؛ ومن ثمّ، أُنجزت مهمّتنا. وكافّة

مقالات الإسْلامِ قد بُحثت، وأُشير إلى مصدرها، أو مصادرها. لكن ثمّة مسائل أخرى وردت في القرآن كان يمكن أن تقع ضمن مجال بحثنا، بيد أنّنا أسقطناها كي نبقي البحث ضمن حدود معقولة. على أيّ حال، يمكننا إرجاعها إلى واحد أو أكثر من هذه المصادر التي ذُكرت في الكتاب.

لننظر الآن إلى ما مضى، ولنباشر مسحاً شاملاً لتلك المصادر التي جاء منها الدّين والأركان الإسْلاَمِيّة. وسيظهر أنّ اليهوديّة التّلموديّة العامل الأبرز في أصول الإِسْلاَمِ وأنّها صاحبة التّأثير المسيطر في تشكيل وتطوّر الإسْلام.[1]

ووثنيّة الجزيرة العربيّة مع توحيدها في طور النّموّ، والفيتشيّة، والصّابئيّة، والحنفيّة، والزّرادشتيّة، والمسيحيّة، ويمكن إضافة ـ وإنْ بدرجة قليلة البوذيّة ـ وكلّ من الميثولوجيا الهندوسيّة والمصريّة؛ كلّ هذه المصادر أسهمت حصّتها في نشوء الإسْلام. بيد أنّ اليهوديّة، أو بالأحرى، اليهوديّة التّلموديّة (وليست يهوديّة العهد القديم) التي كان مُحَمَّد مديناً لها بالصّفة المميّزة لدينه، والتي زوّدت أيضاً شكل ومحتوى الكثير من «آياته» هي بكلّ تأكيد «الشّريك المسيطر» في العناصر المتنوّعة والمختلفة التي ألّفت دين وأركان الإسْلام. إنَّ الحبر گايگر،[2] العالم اليهوديّ، برهن بشكل جليّ هذا الاستنتاج عبر إرجاع كلّ المعالم الرّئيسة نحو المصادر التّلموديّة. ومن ثمّ، فإنّ حكم هوگِس، يثبت، وهو: «إنَّ المُحَمَّديّة... مجرّد يهوديّة تلموديّة كُيّفت للجزيرة العربيّة،

(1) إنَّ آراء كارليل (*Heroes*, p 52) بأنّ الإسْلام قابل للتّعريف بأنّه صيغة مرتبكة للمسيحيّة وأنّه «نوع من المسيحيّة» (ص 70)، لا يمكن تبريرها بتعاليم القُرْآن التي ترفض بشكل قاطع ألوهيّة والبنوّة الإلهيّة ليَسُوع المسيح.

(2) *Was hat Mohammed aus dem Judenthume aufgenommen* — A. Geiger.

علاوة على رسوليّة يَسُوع ومُحَمَّد».[1]

وبذلك فليس ثمّة من جديد في مفهومات مُحَّمدٍ ونشوء الإسلام إلّا مُحَمَّداً بوصفه رسول اللّه وتصاويره الحسّيّة للجنّة. إنّ دينه ليس ابتكاراً بل تلفيقاً؛ خالياً من كلّ مستجدّ ما عدا عبقريّة مُحَمَّد في مزج العناصر القديمة في دواءٍ عامّ لجميع الأمراض البشريّة، والإكراه عليه بوساطة السّيف.[2]

لا شكّ في أنّ خلجات نفس مُحَمَّد الشّعريّة الأولى، أعلنت لدى بدء سيرته النّبويّة، عندما كان صادقاً ومخلصاً[3] ـ كما نعتقد ـ في مطالبه الدّينيّة، والتي تبدي روحاً من الحماسة الدّينيّة العميقة، ولا شكّ في أنّ الآيات انبعثت من شعوره الدّاخليّ الخاصّ، نتيجة لقوّة إيمانه في النّداء والتّفويض الإلهيّين. بيد أنّ جميع نتاجه الّلاحق، وبدلاً من أن يكون، كما أكّد أنّها «آيات» غير ذاتيّة، تنزّلت على قلبه من ﴿الرّوحُ الأَمِين﴾ تشهد من نظمها بأنّه أولى في نظمها الكثير من الوقت والعمل المجتهد، وبذلك ثمّة شاهد افتراضيّ على أنّ مُحَمَّداً كان بوسعه القراءة والكتاب.[4]

---

(1) *Notes on Muhammadanism*, pp. 27, 28.

(2) *Arabia: The Cradle of Islam*, by Zwemer, p. 170.

(3) ليس بوسعي إلّا أنْ أختلف مع زويمر (الذي يقتفي أثر كويل)، الذي يقول: إنّ محمّداً «كان غير متبدّل»؛ «مجرّد... أفّاك حاذق منذ اليوم الأوّل لرسالته إلى يوم موته». لكنّ آخرين يرون أنّه كان صادقاً في البدء و «آمن في حقيقة وحيه» ـ انظر:

The Cradle of Islam, p 182. Muir, *L. of M.*, p. 165; Palmer, *The Qur'an*, p. xxi., Kuenen, Tisdall, D. B. Macdonald, Rabbi Geiger

(4) يكتب البروفيسور أ. هـ. سايس «كانت الجزيرة العربيّة لأجيال موطن الثّقافة وفنّ الكتابة». استشهاد أورده زويمر في (*Arabia The Cradle of Islam*)، ص 159. ويشير زويمر أيضاً إلى أنّه «في أيّام الجاهليّة كانت الكتابة معروفة والشّعر مزدهراً»

على أيّ حال، بينما كلّ المقولات البارزة في دينه كانت مأخوذة من مصادر مختلفة، تتراوح بين العبادات الأقدم إلى منظومات الدّين والعبادة الرّوحيّة عالية التّطوّر؛ فإنَّ محمّداً أثناء توحيده كلّ هذه العناصر المختلفة الغريبة في كلّ تامّ متّصل متماسك بهذه الدّرجة أو تلك؛ ترك طابعاً واضحاً من شخصيّته على المنظومة التي أسّسها بهذا الشّكل، وسمّاها الإسْلام.

يبدو أنّه يمكن لـ «نبيّ» الجزيرة العربيّة أنْ ينال وسام التّقدير، على إخلاصه في قناعته الدّينيّة المبكرة، وعلى الحماسة في نشرها؛ والمفهوم السّامي حول وحدانيّة الإله رغم ضلاله وعلى عظاته السّامية المخلصة الدّاعية للخضوع للإرادة الإلهيّة، وعلى ثقته الرّاسخة في الإله في وجه عداء أبناء بلده المكشوف وسخريتهم، التي صبر عليها لمدّة سنين، والتي دفعته في نهاية المطاف من موطنه في مكّة.

في تقديمنا له هذه التّقريظ المستحقّ فإنّنا نرثي بأنّ عقلاً غير مدرّب، لكنّ العقل الموجّه للجزيرة العربيّة لم يحصل على علم بالعهد الجديد المسيحيّ بشكل صرف، الذي كان لا بدّ من أنّ تأثيره الخيّر وقوّته المحوّلة ستجعله تابعاً متحمّساً وناشراً لدين الصّليب.

ولكن وبينما نقول ذلك في مديح «النّبيّ» فإنّنا لا نستطيع أن نشيح بأنفسنا عن واقع أنّه انحطَّ تدريجيّاً إلى متحمّس طامحٍ، ومخطّط بارع، لم يتردّد في

في الجزيرة العربيّة. ذاته، ص 163. ليس ثمّة برهان قاطع في القُرْآن على أنَّ مُحَمَّداً كان يجهل القراءة والكتابة. وقد أظهر الحبر گايگر أنّ مفردة «أمّيّ» في عبارة ﴿النَّبِيّ الأُمِّيّ﴾ (سورة الأعراف: 157/7) التي تُفسر بـ «النّبيّ غير المتعلّم» تعني في الواقع «غير يهوديّ» كمقابل لليهوديّ، و «تشير إلى جهل مُحَمَّد قبل وحي الإسْلام، بالكتب المقدّسة القديمة». إنّ المفردة عينها ترد في سورة آل عمران (20/3) في معرض الإشارة إلى «عموم النّاس» أو العرب بوجه عامّ.

استعمال أيّ وسيلة لبلوغ الغاية التي كانت في مخطّطه. وقد خرق بشكل صريح ومكرور تقريباً كلّ قاعدة أخلاقيّة للعرب. وقام بنقض أثيم لمبادئ الشّرف، أو قانون العرب الشّفاهيّ. وقد تآمر على اغتيال وقتل أولئك الذين تسبّبوا بالمتاعب له، ومجزرته الوحشيّة للأسرى اليهود، سوف تترك لطخة مظلمة أبديّة على شخصيّته، وتفسد عبارته التي يعيد ذكرها: «بسم اللّه الرّحمٰن الرّحيم». وكان شهوانيّاً صريحاً، وقانونه الذي أجاز أربع زوجات، لم يعتبره ملزماً له، لأنّه كان لا يشبع حسّيّته؛ وقد انغمس في لذّة مع عشر[1] (أو إحدى عشرة) زوجة إلى جانب عدّة مسترقّات بوصفهنّ محظيّات.

زيادة على ذلك، ولكي يصادق على جرائمه ويبرّر تحلّله، فإنّ هذا «النّبيّ» المدّعي يأتي «بوحي خاصّ» من اللّه فيه المصادقة الإلهيّة. وثمّة سورة في القرآن بعنوان «التّحريم» (السّورة 66) وأجزاء منها غير صالحة للقراءة، حتّى أمام مستمعين رجال، حيث جاء فيها أنّ اللّه أنزل لمُحَمَّد التّحلّل من الأقسام والمصادقة على سلوكه الشّهوانيّ مع ماريّة، جاريته القبطيّة ـ إنّ هذا «التّنزيل» القرآنيّ كاف لدحض دعوى مُحَمَّد بأنّه ملهمٌ من السّماء، ويدين الدّين الذي علّمه.

وبهذا، في الممارسة كما في المبدأ الذي يجيز العبوديّة، وتعدّد الزّوجات،

(1) بحسب أبي الفداء، كان لدى مُحَمَّدٍ خمس عشرة زوجة، وتزوّج بثلاث عشرة. وفي الواقع ليس ثمّة من تحديد لعدد الزّوجات الذي سمح القُرآن بها لمُحَمَّد، انظر سورة الأحزاب (50/33): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ! إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ، وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَيْكَ، وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ، إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا؛ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ومع ذلك يقول كارليل (*Heroes*, pp. 64, 65): «إنَّ مُحَمَّداً لم يكن رجلاً شهوانيّاً»، ويتغاضى عن الانغماس اللّذائذيّ المسموح بالقُرآن.

والجواري، وعدم التّسامح الدّينيّ، فإنّ «مصلح» الجزيرة العربيّة، و «خاتم النّبيّين» بدلاً من إعلاء المستوى الأخلاقيّ لقومه وتحريرهم من القيود البربريّة، فإنّه أخفض وأفسد هذا المستوى، وشدّ هذه القيود بشكل أكثر وثوقاً على أتباعه للأبد. الحقُّ يُقال: إنَّه عارض العُرف الجاري في الجزيرة العربيّة بشأن وأد البنات،(1) وجعلها ممارسة غير شرعيّة في الإِسْلام، بيد أنّ تشريعه لـ «الحجاب» والذي جاء بسبب إحدى مسائله الزّوجيّة الكثيرة، فإنّه سرمد العزل وتنزيل جميع النّساء المُحَمَّديّات، وهو المسؤول بشكل كبير عن الرّكود الأقرب للموت(2) الذي يوجد في الإِسْلام في يومنا الحاضر. ولم يكن يوجد قبل زمن مُحَمَّد «الحجاب»، أو نظام الحريم في الجزيرة العربيّة،(3) فكانت نساء الجزيرة العربيّة تملك الحقوق، وكانت تشغل مكان الاحترام والشّرف في مجتمع الجزيرة العربيّة. والمرأة المسلمة اليوم تُعدّ

(1) في هذا التّصرّف، فإنّ مُحَمَّداً اقتدى بتعاليم الشّيخ زيد، المصلح الحنفيّ الذي كان يعترض على هذه العادة.

(2) يقول كين إنَّ الحجاب «يكمن في أساس كلّ المعالم المهمّة التي تميّز التّقدّم عن الرّكود».

(3) يشير البروفيسور د. س. مرگوليوث (*Mohammedanism*, pp. 135–138) سافاري (Sale's *Koran* with Savary's notes, p. 249, note 11) إلى أنَّ «الحجاب» كان عرفاً شرقيّاً من قديم الزّمن. ونحن نقرأ أنَّ رِفْقَةَ «أَخَذَتِ الْبُرْقُعَ وَتَغَطَّتْ» في حضور إسحاق (التَّكْوِين: 65/24). ويتّفق زويمر (*Arabia*, p. 161) وگِردنِر (*Reproach of Islam*, p. 188) مع هذه النّظرة المشار إليها في النّصّ، بأنّ نساء الجزيرة العربيّة قبل مُحَمَّد لم يكنّ يتبرقعن. وتأكيد لافت لذلك يقدّمه ز. أ. كامبل (*Shadow of the Crescent*, p. 202)، الذي يشير إلى أنّه عندما زار مدينة عوفا، وهي حسب المأثور مشابهة لـ أور الكلدانيّة، شاهد قبراً اكتشفه عاملون مؤخّراً خلال الحفريّات. وعلى جانب القبر كان ثمّة ستّ صور فسيفساء لشاغليها، وقد صُورت النّساء سافرات. ويقول: إنَّ العمل ليس أبعد من القرن السّادس.

ملكيّة يمكن أنْ تُباع أو تُشترى، تُطلّق أو «يُحتفظ بها» لنزوة أو هوى مفاجئ للرّجال. وزيادة على ذلك، فإنّ كلّ ذلك يتمّ وفق المصادقة الإلهيّة لـ «آيات» مُحَمَّد القرآنيّة.

بعد أنْ وصل هذا البحث إلى نهايته، بوسعنا أخيراً أن نسأل: أوّلاً، إلى أيِّ سبب يمكن تفسير توسّع الإِسْلام السّريع وانتشار قبوله في العالم؟ وثانياً، كيف يمكننا شرح الانحدار الأخلاقيّ لمؤسّسه، والتّعاليم اللّاأخلاقيّة التي بلغت ذروتها في وصيّة شنّ الحرب على كلّ من لا يعتنق الإسلام، وذبحهم إن لم يصبحوا مسلمين؟[1] إنّ الأسئلة ذات علاقة متبادلة، وفي الختام يمكن أن يُشار إلى مفهوم الله في الإِسْلام، كما يتبيّن من القرآن.

أوّلاً، لقد كانَ الإِسْلام وإلى اليوم دين السّيف، والذي به نال فتوحاته المعنويّة كما السّياسيّة. إنّ وجود طبقة البوراه بين مسلمي الهند اليوم يشهد على فتوحات السّيف الدّينيّة للإِسْلام، ذلك أنّ أجدادهم كانوا هندوساً، أُجبروا لدى الفتح المُحَمَّديّ على اعتناق الإسلام بحدِّ السّيف. إنّ الحرب وسفك الدّماء، بمثال وتعاليم مُحَمَّد، مكرّسان لخدمة اللّه في نشر دين الإِسْلام، وهذا مفهوم لا ينطبق على الطّبيعة الإلهيّة.

ولكنْ بعيداً عن الفتوحات بالسّيف، فإنّ دين الإِسْلام ـ كما أشار إلى ذلك گيبون ـ يحتوي على «حقيقة أزليّة» عُبّر عنها في الجزء الأوّل من التّشهّد، أو قانون الإيمان الإِسْلاَمِيّ: «لا إله إلاّ اللّه». إنّها جوهر الحقيقة الأزليّة الموجودة في المنظومة مقرونة بعنصر تقديس أعمى لشخصيّة مُحَمَّد على أنّه «رسول اللّه» والذي يفسّر الانتشار الواسع والوجود المستمرّ لدين يعوق

(1) سورة التّوبة: 5/9، 29.

الحياة الرّوحيّة لتابعيه، ويثبّط تطوّرهم العقليّ والأخلاقيّ؛ وفي تلك البلدان الذي يسود فيها، يسدّ على أتباعه الينبوع المقدّس الأعمق للحقيقة الإلهيّة، ويجعل كلّ جهد للإصلاح التّقدّميّ عقيماً.

فيما يتّصل بالانحدار الأخلاقيّ لـ«النّبيّ» الذي بدأ سيرته، كما نعتقد مخلصاً في دعاويه، ونبيلاً في أهدافه العليا، لكنّه انحطّ إلى حسّيّ، وانتهازيّ، وذي تعاليم دينيّة في مسائل عديدة لا يمكن أن توصف بأنّها لا أخلاقيّة فحسب، بل فاسقة أيضاً.

إنّ هذه السّمات المظلمة التي تظهر في حياة وخُلق مُحَمَّدٍ وفي الكثير من تعاليمه الأخلاقيّة، يمكن أن تعود إلى مفهومه الضّالّ لطبيعة وصفات الإله، وإلى ذلك الجهل ـ عمداً أو عفواً ـ بمتطلّبات القانون الأخلاقيّ.

لقد رأينا (في الفصل الثّالث) أنّ تصوّر مُحَمَّد للإله كان يفتقر إلى العديد من الصّفات الجوهريّة للألوهيّة. لقد وصف الرّبّ عن حقّ بأنّه الحاكم السّرمديّ المتعالي، القدير العليم، القدّوس، العادل، الرّحيم، الغفور. إنّ هذه المفهومات لدى قراءتها من منظور المسيحيّة جميلة وحقّة، وفي العقل الإِسْلاَمِيّ مصطلحات جوفاء، بلا دلالة فعليّة أو أساسيّة. يُوصف اللّه بأنّه «عادل» في «وحيه» المزعوم، ومع ذلك يضلّل البشر عمداً. ويُسمّى «القدّوس» ومع ذلك فإنّه بلا نقاء، وألوهيّته قبلت التّسوية بغفرانه للأشرار، وتغاضيه عن خطايا «النّبيّ»؛ ذلك أنّه غفور للّذين يطيعون ﴿ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾.[1] وجاء أنّه رحيم وغفور، ومع ذلك يظهر قسوةً لا رحمة فيها، صارمة تجاه الذين هم خارج نطاق الإِسْلام.

سلطة مطلقة، قدرة كلّيّة عديمة الرّحمة، إرادة استبداديّة، بدون سيطرة

---

(1) سورة الحجرات: 14/49. انظر أيضاً سورة المائدة: 3/5؛ سورة النّور: 62/24؛ سورة الأحزاب: 50/33، 59، 73؛ سورة الشّورى: 5/42.

وعديمة العطف، لا تقرّ بقانون أو معيار خارج هواها الخاصّ، منعزلة بشكل لا حدّ له ومنفصلة عن مخلوقاتها التي هي مجرّد دمى في لعبة القدر، حسب قضائه الأزليّ الذي لا يتغيّر، ولا يمنح لعباده دافعاً نحو الخير، ضنين بأيّ تدخّل في حقله الخاصّ بامتيازه الاعتباطيّ، وأكثر ميلاً لإنزال العقوبة من وهب البهجة، غير محبّ وغير محبوب، متوحّد، مطلق، لا شخصيّ، متعذّر بلوغه، ليس ودوداً؛ هذا هو التّصوّر الإسْلاميّ للإله الذي يحتويه القرآن، وتقرّه المأثورات الإسْلاَمِيّة.

هذا هو تصوّر الإله الذي تغيب عنه الأبوّة الإلهيّة التي تلطّف من «قسوة» قضائه الأزليّ الذي لا يتغيّر، وليس في عنايته فداء، ولا خطّة خلاص من أجل إصلاح الخطاة وكسبهم من جديد إلى الصّواب والحياة، عبر إظهار عظمة حبّ اللّه لمخلوقاته، واستبدال نفسه بوصفه حامل ذنوبهم وفاديهم.

إنّ الفكرة الإسلاميّة عن الإله غير كافية بسبب سلبيّاتها، ولا أخلاقيّة في بعض مفهوماتها الوضعيّة، والتي منها تعاليم مُحَمَّد اللّاأخلاقيّة والفاسدة في بعض الأحيان، وهي التي أفسدت حسّه الأخلاقيّ، وحجبت الطّبيعة الحقيقيّة للخطيئة، وأنزلت وأفسدت معيار اللّه الأخلاقيّ للحقّ، الذي لم يبرز محمّد مبادئه الأخلاقيّة، ولم يشدّد عليها في جميع «آيات» القرآن.

باختصار، إنّ لاهوت مُحَمَّد، وبعبارة بالكراف، هو «وحدة وجود القوّة[1]»؛ ومن ثمّ، فإنّ دينَه دينُ السّيف.

في الختام، إنّ الدّين يجب أنْ يصمد أو يسقط وفق مفهومه للإله، ومذهبه عن الخطيئة، إذْ إنّ هذه الأسئلة تقع في أساس كلّ دين، والدّين

---

(1) العبارة بالإنجليزيّة ـ *The pantheism of force*.

الذي يضلّ عن هذه العقائد الأساسيّة يجب أن يُرفض بوصفه ضلالاً. وإذا حكمنا وفق هذه المعايير فإنّ مُحَمَّداً مؤسّس الإسْلام، أدان نفسه، ودين الإسْلام، الذي علّمه، ليس إلهيّاً لأنّه يقبل الشّرّ الأخلاقيّ، ويناقض صفة الإله الذي أعلن مُحَمَّد أنَّ منه تلقّى جميع «آياته».

الخاتمة

فهرس المحتويات

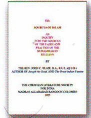
الجزءُ الثّاني

أركان الإسْلام

هذا الكتاب

يصنِّفُ كتابُ «مصادرُ الإسْلام: بحث في العقيدة وأركان الدّيانة المُحَمَّديّة» بوصفه من الدراسات الإشكاليَّة الأولى التي بحثت في موضوع ساد القرن التّاسع عشر عند جمهرةٍ كبيرةٍ من المستشرقين، وهو البحثُ عن موارد الإسلام الأولى، وكيف تكوَّن هذا الدِّين الجديد وطرح أسئلة جوهريَّة كبيرة. هل كان الإسلام دين أصيل في ذاته، وقطع ما قَبلهُ؟ أم أنَّه يمثل دين الاستمرارية لمجموعة ديانات ظهرت قبله؟ وقدَّم المؤلف مجموعةً من الإجابات التي قد يكون بعضها جريء في طرحه أو لا ينتمي إلى الرأي العام السائد عن الإسلام وبداياته الأولى، ومن النقاط الهامة في الكتاب أنه يؤرشف تاريخ الدراسات الاستشراقيَّة الكلاسيكيَّة وهي تخوض في هذا الموضوع الجوهريّ.

جون سي بلر



عالمُ دينٍ مسيحيّ موقر انتقل إلى الهند وعاش فيها فترة طويلة خلال القرن التاسع عشر، وقدَّم كتابه الحالي ربما من أجل أن يعطي صورة واضحة عن طبيعة الإسلام وعلاقته بالديانات الأخرى، ومَد الإرساليات المسيحيَّة بقواعد البيانات عن المسلمين وطبيعة تواجدهم في الهند إبّان سيطرة بريطانيا هناك.



The Academic Center for Research
CANADA- TORONTO



+964 780 226 2494
facebook.com/acadcntr
www.acadcr.com
info@acadcr.com

ISBN 978-1-990131-57-8
